© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات

رئيس التحرير: يحيى يخلف

مدير التحرير: غسان زقطان

مستشار التحرير: فيصل دراج

يشارك في التحرير: عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٣٠» صيف ٢٠٢٢

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090904802525 10

الفهرس

الافتتاحية

٧ **عضوية دولة فلسطين في الأمم المتحدة**

أوراق فلسطينية

١١ **شرعية النظام السياسي الفلسطيني**

عبد الغني سلامة

١٧ **مذابح وتطهير عرقي في الوثائق الإسرائيلية الجديدة**

عليان الهندي

٢٥ **أوهام الرهان على يسار إسرائيلي.. سراب حل الدولتين**

سعد القرش

أوراق المنظمة

٣٧ **الاتحاد الأوروبي والمنظمة**

د.إكرام عبد الرحيم

٤٩ **مؤسسات المنظمة**

رضوى عبد القادر

٦١ **الاتحاد العام لطلبة فلسطين درع م.ت.ف، فرع مصر نموذجاً للتأسيس، (١ من ٢)**

أ.حسام أبو النصر

أوراق دولية

٧٥ **الحرب الروسية الأوكرانية والشرق الأوسط "صراع العرق والإيمان والغاز "**

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

شذى يحيى

٨٧ **الأزمة الدوليّة الروسية الأوكرانية: من النشأة.. حتى الحرب الطاحنة**

عزيز محمود العصا

أوراق ثقافية

١٠٣ **"أماكن الفكر".. سيرة غيريّة أعادت اكتشاف إدوارد سعيد من جديد!**

يوسف الشايب

١١٧ **المثقفون الفلسطينيون في مجابهة الانتداب والصهيونية**

عبد القادر ياسين

١٢٥ **أدب المقاومة "الفكرة الفلسطينية بين المحكم والمتشابه"**

د. حنان عواد

١٤٩ **العنوان الإيحائي في رواية «سوناتا لأشباح القدس» لواسيني االأعرج**

أمين دراوشة

١٥٧ **أدونيس.. عن راهن الشعر العربيّ ومستقبله**

بديعة زيدان

١٦٣ **الغزالة ..**

زعل ابو رقطي

١٦٧ **أسرار مارنا هاوس .. حكايات من غزة**

تأليف: لوتا شولركفيست / ترجمة: وليد الهليس

أوراق المؤسسة

١٨٧ **تقرير المؤسسة**

عضوية دولة فلسطين في الأمم المتحدة

رحلة السياسة الفلسطينية في جهود اعتراف الأمم المتحدة بفلسطين متواصلة لكسب العضوية الكاملة لتحقيق قيام الدولة الفلسطينية باعتراف الشرعية الدولية بعد تهرب اسرائيل من الانصياع لحل الدولتين، ومواصلة سياسة الاستيطان والاعتقال واقتحام المدن والقرى، وتصعيد الأوضاع الأمنية .

في تشرين الثاني / نوفمبر من عام ٢٠١٢ منحت الجمعية العامة للأمم المتحدة فلسطين صفة دولة مراقب غير عضو في الأمم المتحدة ،وكان ذلك مكسبا قانونيا ودبلوماسيا ،كما دعا القرار مجلس الأمن إلى النظر بشكل ايجابي الى قبول عضوية دولة كاملة العضوية حسب الطلب الذي قدمه الرئيس محمود عباس في أيلول / سبتمبر ٢٠١١. وفتح هذا الاعتراف الانضمام الى منظمات الأمم المتحدة والمعاهدات الدولية ، بما في ذلك محكمة العدل الدولية .

وعارضت اسرائيل وقلة من الدول هذا القرار ..وفي سبتمبر من عام ٢٠١٥ تبنت الامم المتحدة قرار رفع العلم الفلسطيني أمام مقار الأمم المتحدة بما في ذلك في جنيف وفيينا، كان ذلك معركة سياسية ودبلوماسية تحقق فيها وضع فلسطين على الخارطة .. ومقدّمة لخطوات قادمة تحقق ذلك.

وجاءت خطة صفقة القرن التي ابتدعها الرئيس الأميركي دونالد ترامب عام ٢٠١٩ ومنذ اعلانها في البحرين من قبل كوشنير رفضتها القيادة الفلسطينية والشعب الفلسطيني ، وكان ذلك صفعة لنتنياهو وللسياسة الاسرائيلية .. سياسة الضم والأبرتهايد.

***

يتوجه السيد الرئيس محمود عباس الى الأمم المتحدة في ٢٦ أغسطس الجاري بهدف الحصول على العضوية الكاملة لينجح في ان تأخذ حقها الطبيعي بأن تكون دولة كاملة العضوية.

ويتعيّن أن يطلب أولا من مجلس الأمن الموافقة على هذا الطلب وسيواجه بالفيتو الاميركي ومن ثمّ يتوجه الى الجمعية العامة، . ومن المتوقع أن نحصل على أغلبية في التصويت.

يأتي هذا في أجواء تشهد مناخاً دولياً مضطرباً بعد حرب روسيا مع اوكرانيا ، واصطفاف أوروبا الى جانب أوكرانيا .

وتحالف روسيا مع الصين .وأزمة الصين مع تايوان ومع الولايات المتحدة ، وأزمة الطاقة والغاز العالمية ..كل ذلك يعقّد المناخ الدولي، ومن جهة أخرى هناك عملية تحريض اسرائيلية على السلطة الفلسطينية واستعانتها ببعض الدول العربية لثنيها عن طلب العضوية الكاملة ،فقد دعت تل ابيب واشنطن والقاهرة والدوحة للضغط على الرئيس أبو مازن لثنيه عن الذهاب الى الأمم المتحدة من أجل الحصول على العضوية الكاملة ، على الرغم من ذلك لم تخضع القيادة الفلسطينية ،ولم تتراجع، وسيذهب الرئيس محمود عباس ليكرس اعتراف الأمم المتحدة بعضوية فلسطين كدولة على الخارطة الدولية، في هذه الظروف رغم الوضع الدولي لا نفقد الأمل . وفي هذه الظروف نقرع جدران الخزّان.

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

شرعية النظام السياسي الفلسطيني

عبد الغني سلامة*

المقدمة

يعيش الفلسطينيون في ظل نظام سياسي اسمه منظمة التحرير الفلسطينية، وهي التي تقود نضالهم السياسي والوطني منذ نشأتها في العام ١٩٦٤، وتمثلهم سياسيا منذ اعتراف الجامعة العربية بها في العام ١٩٧٤، دون أن تكون لها سيادة على الأرض، أو حكم مباشر على الشعب، ولكنها بعد أوسلو (١٩٩٣)، صارت تحكم جزءا من الشعب في المناطق التي تخضع لسيادتها باسم السلطة الوطنية.

وقد اكتسبت المنظمة شرعية وجودها، وشرعية قيادتها للشعب، وشرعية تمثيله من خلال ما يسمى بالشرعية الثورية، والتي انتزعتها من خلال ممارستها الفعلية للكفاح الوطني بكافة أشكاله، ولأنها كانت تتطابق مع تطلعات الشعب وأهدافه في التحرير ونيل الحرية، والانعتاق من الاحتلال، وكانت تمثل الحركة الوطنية الفلسطينية بكافة أطيافها.

ولم تؤثر قوى المعارضة الجذرية للمنظمة على شرعيتها الوطنية، وشرعية تمثيلها للشعب (أي القوى الرافضة لها، والتي لم تعترف بها)، فأي نظام سياسي في العالم لا بد من وجود قوى مناوئة له، أو مشككة بشرعيته، ومن المتعذر أن يحظى أي نظام بإجماع كامل من قبل الشعب..

وبعد قيام السلطة الوطنية، صار النظام السياسي الفلسطيني قائما على كيانين، يتمايزان هيكلياً، إنما مع بعض التداخل القائم، خاصة على مستوى رأس الهرم، هما منظمة التحرير، والسلطة الوطنية، وبعد قيام السلطة الوطنية، لم تعد الشرعية الثورية مصدرا وحيدا لشرعية القيادة والحكم، فقد تعززت هذه الشرعية من خلال انتخابات عامة جرت في ١٩٩٦، وفاز فيها الرئيس الراحل ياسر عرفات، وأفرزت أيضا مجلسا تشريعيا أغلبيته من فتح. ثم تلتها انتخابات رئاسية ثانية جرت في ٢٠٠٥، وفاز فيها الرئيس

* كاتب فلسطيني.

محمود عباس، وانتخابات تشريعية جرت في ٢٠٠٦. فازت فيها كتلة حماس بالأغلبية، التي مكنتها من تشكيل حكومة. ثم في العام التالي حصل الانقسام. ومن بعدها دخل النظام السياسي في أزمة الشرعية، والتي ما زلنا نعاني منها حتى اليوم.

ومع أن القيادة الفلسطينية انتزعت اعتراف الأمم المتحدة بدولة فلسطين، وتم قبولها كعضو مراقب في الجمعية العامة (٢٠١٢)، واعترفت ١٣٧ دولة بدولة فلسطين، إلا أنه بسبب بقاء الاحتلال الإسرائيلي جاثما فوق أراضي الدولة الفلسطينية، وتقييده صلاحياتها، وحرمانها من مواردها، وتعمده تجريدها من سيادتها الفعلية على الأرض والمعابر والحدود والاقتصاد، لهذه الأسباب لم يتم التخلي عن منظمة التحرير، ولا عن صفتها التمثيلية، وكونها مصدر الشرعية للسلطة الوطنية، وأيضا لأن نصف الشعب الفلسطيني لا يقيم في أراضي الدولة الفلسطينية المحتلة.. لذلك، وبسبب الانقسام أيضا، ورغم وجود مسمى دولة فلسطين، إلا أن أزمة الشرعية ظلت قائمة، وظلت تتآكل.

أزمة الشرعية في عهد السلطة الوطنية

منذ تأسيسها وحتى العام ٢٠٠٣، ظلت السلطة الوطنية قائمة على النظام الرئاسي، ونتيجة ضغوط سياسية خارجية، تم استحداث منصب رئيس الوزراء، والذي أسند حينها للرئيس محمود عباس، ليتحول إلى نظام مختلط «شبه رئاسي»، وفي عام ٢٠٠٦ بعد الانتخابات التي فازت فيها كتلة حماس بالأغلبية تم تشكيل الحكومة العاشرة برئاسة إسماعيل هنية، ليتشكل نظام سياسي برأسين، ببرنامجين مختلفين، أحدهما في رئاسة السلطة والآخر في رئاسة الوزراء.

كان لفوز حماس في الانتخابات وتشكيلها حكومة "حمساوية" تأثيرات سلبية في واقع حياة الشعب الفلسطيني، فقد فُرض حصار مالي وسياسي خانق على السلطة الوطنية في الضفة والقطاع على حد سواء، ثم تفاقمت الخلافات الداخلية بين الأشقاء حتى وصلت مرحلة الإقتتال الداخلي وسفك الدم الفلسطيني بأيدي فلسطينية، الى أن وصل الخلاف ذروته بانقلاب حماس على السلطة الشرعية (والتي كانت تمثلها حكومة وحدة وطنية) وانفصال غزة عن الضفة في حزيران ٢٠٠٧.

وهكذا، بعد أن كان النظام السياسي الفلسطيني يعاني من أزمة وجود سلطة برأسين (الرئاسة والحكومة)، بعد الانقلاب الحمساوي (أو الحسم العسكري كما أسمته) أصبح النظام يعاني من أزمة الانقسام ووجود سلطتين.

في تلك المرحلة ادعى كل طرف أنه يمثل الشرعية الفلسطينية؛ حكومة حماس قالت أنها جاءت بقوة الانتخابات، أي أنها صارت تستمد شرعيتها من صندوق الانتخابات، وبالتالي فإن المجلس التشريعي (الذي تسيطر عليه حماس) هو الشرعية، بينما قالت السلطة في الضفة أنها تمثل الشرعية، لأن النظام السياسي والقانون الأساسي

يعطيان الصلاحيات الكاملة للرئاسة، ولأن السلطة تستمد شرعيتها القانونية من منظمة التحرير، وشرعيتها الرسمية من اعتراف العالم بها. مضيفة بأن الانتخابات لوحدها لا تعطي تفويضا مطلقا وأبديا لمن فاز فيها.

وحسب القانون العام، فإن مدة صلاحية المجلس التشريعي أربع سنوات، وكذلك مدة الرئاسة.. هذا الأمر أوجد أزمة جديدة بعد انقضاء السنوات الأربع، فبمجرد انتهاء مدة ولاية الرئيس (كانون ثاني ٢٠٠٩) صار الخطاب الحمساوي يركز على أن الرئيس انتهت ولايته، وبالتالي فقد الشرعية.. ولكن، بعد سنة انتهت ولاية المجلس التشريعي أيضا، وبالتالي وبنفس المنطق والحجة القانونية لم يعد المجلس شرعيا، ولكن نواب حماس قالوا أن المجلس يظل شرعيا حتى تنظم انتخابات تشريعية ثانية تأتي بمجلس جديد.. والمشكلة أنه لم تجرَ من بعدها أية انتخابات رئاسية، أو تشريعية.

وبعد فشل كل محاولات إنهاء الإنقسام تكون أزمة الشرعية في النظام السياسي الفلسطيني قد وصلت حدا خطيرا.

تجليات وتداعيات تآكل الشرعية الفلسطينية

أزمة تآكل شرعية النظام السياسي الفلسطيني لا تتجلى فقط في إضعاف الصفة التمثيلية لمنظمة التحرير الفلسطينية، أو في تكريس واقع الانقسام، بل وأيضا في التراجع الخطير والمتواصل للديمقراطية الداخلية، والمس بالحريات العامة، والحق في حرية الرأي، وعودة ظواهر الإعتقال السياسي، والاعتداء على المتظاهرين. والفشل في بلورة آلية للشراكة الديمقراطية كضرورة أساسية للتعددية السياسية في الساحة الفلسطينية، إضافة إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية للفئات الفقيرة ومحدودة الدخل، والغضب الشعبي على غياب العدالة الاجتماعية، وتكافؤ الفرص، وسيادة القانون، وانتشار مظاهر المحسوبية والواسطة.. الخ. وهذه أزمة عميقة، لم يعد ممكنا إنكارها أو التستر عليها.

غير أنه ما كان لأزمة الشرعية وأزمات السلطة أن تستفحل إلى هذا الحد لو لم تقابلها أزمة فى شرعية القوى المعارضة لها، فأزمة حماس ربما أعمق وأخطر، خاصة بعد نحو ١٥ سنة من حكمها المنفرد للقطاع، وما آلت إليه الأمور من تدهور للأوضاع الاقتصادية والمعيشية والاجتماعية، وبسبب الحصار، وإغلاق المعابر الحدودية، وتفاقم الفقر والبطالة، فضلا عن أربعة حروب عدوانية شنها جيش الاحتلال على القطاع، وتسببت بخسائر جسيمة في الأرواح والممتلكات..

إلى جانب أزمة حماس المتمثلة في عجزها عن المواءمة بين شعارات المقاومة (مبرر وجودها كحركة مقاومة)، وبين ضرورات ومتطلبات البناء والحياة اليومية للمواطنين (مبرر حكمها للقطاع)، وعدم اعتراف العالم بشرعية حكمها، وما تتعرض له من عقوبات، وتجفيف لمواردها المالية، وخسارة حلفائها

في الإقليم واحدا تلو الآخر، الأمر الذي أجبرها على قبول المنحة القطرية عبر إسرائيل مباشرة، وبموافقة أجهزتها الأمنية، ما وضعها في موقف حرج ودقيق.

وبعد أن مثلت الانتخابات مخرجا ممتازا للخروج من الأزمة، أو حلحلتها على الأقل، جاء قرار تأجيلها، أو إلغائها ليزيد من عمق الأزمة، ومن خطورتها. ما يؤكد مرة أخرى على دور إسرائيل المحوري في إيجاد وتعميق الأزمة الفلسطينية.

إذن، أزمة الشرعية مكونة من شقين، الأول: وجود سلطتين، متعارضتين، ببرنامجين متناقضين، وقد أدى ذلك إلى الانقسام السياسي والجغرافي، ما أضعف من الصفة التمثيلية لمنظمة التحرير، وللقيادة الفلسطينية الرسمية، وبالتالي إضعاف الموقف الفلسطيني كله. والثاني: انسداد الأفق السياسي، وتعثر التسوية، مع استمرار سياسات التهويد والضم والاستيطان، وعجز كلا السلطتين عن إحداث أي اختراق سياسي، أو تحقيق منجزات جوهرية، فضلا عن تراجع الروح النضالية، وتراجع سقف الحريات، واستفحال بعض مظاهر الفساد (ربما الوضع أفضل نسبيا في الضفة الغربية، على الأقل من الناحية المعيشية) لكن الاحتلال لا يوفر فرصة لتقويض أي منجز، ووضع العراقيل أمام أي حالة تقدم، بل إنه يتعمد إلى إضعاف "السلطتين"، وترسيخ حالة الانقسام.

محاولة لتشخيص أسباب وعوامل الأزمة

وبما أن العنوان الأبرز لأزمة الشرعية هو وجود سلطتين، الأولى في الضفة الغربية وتقودها فتح، والثانية في غزة وتقودها حماس، وبالتالي صار ضروريا تحديد مستويين رئيسين نشخص فيهما نقاط الخلاف والإلتقاء بين الحركتين: المستوى الإستراتيجي العام، ونجد فيه تباينا طفيفا وأحيانا تطابقا شبه تام في رؤية الحركتين وموقفهما من القضايا الكبرى كالتسوية السياسية، ومشروع الدولة الفلسطينية، وفلسفتهما من المقاومة وممارستهما لها، والمفاوضات المباشرة، وكذلك موقفهما الملتبس من الإعتراف بإسرائيل. وفي المستوى الثاني سنجد قضايا وعوامل سياسية وميدانية ذات بعد تكتيكي، ولكنها مهمة ومؤثرة، ومنها تأثير العامل الخارجي، وبناء الثقة بين الطرفين والمرجعيات المؤسسية، إلى جانب القضايا التفصيلية الشائكة والتي نجمت عن الإنفصال أو كانت سببا له..

وقد نتفق في النهاية أن كل ما تقدم عبارة عن الشكل الظاهري لتناقض الحركتين، وأنّ جوهره عبارة عن تناقض بين مشروعين: المشروع الوطني القومي في مواجهة المشروع العالمي للإسلام السياسي، ولن نتطرق هنا للحكم على المشروعين، ومدى أهمية كل منهما لفلسطين، ولقضية فلسطين، في هذه المرحلة تحديدا.

وطالما أن الهدف السياسي المعلن لكل من فتح وحماس يكاد يكون متطابقا، فهل ما يجري من خلاف

واقتتال بين التنظيمين هو نوع من الصراع على السلطة؟ وصراع على من سيفاوض إسرائيل؟ ومن سيوقع معها الحل النهائي؟ أم صراع على الكراسي والموارد والثروة ومناطق النفوذ كما يجري في الكثير من بلدان العالم؟! وطالما أن السلطة التي يجري الصراع عليها هي سلطة تحت الاحتلال وبلا صلاحيات ولا تمتلك موارد ولا ثروات حقيقية، فهل هؤلاء المتصارعين مجانين وعميان؟! الحقيقة أنهم ليسوا كذلك بالمطلق، ولكن الموضوع له علاقة بما هو بعد السلطة وبما هو أبعد من البرنامج السياسي.

وصار واضحا لدينا من خلال ما تقدم بأن صراع فتح وحماس هو صراع بين مشروعين مختلفين، المشروع الوطني التحرري الذي تمثله فتح ومعها فصائل منظمة التحرير ذو الطبيعة الوطنية والساعي لبناء دولة فلسطينية ومجتمع مدني، ومشروع الإسلام السياسي الذي تمثله حركة حماس وحلفاؤها ذو الطبيعة الدينية والساعي لفرض القضايا الأممية الكبرى (المشروع الإسلاموي العالمي) على حساب المشروع الوطني.

قد يرى البعض أن انتصار أحد المشروعين يعني خسارة الآخر، وهذه حقيقة نسبية، ولكن السؤال الذي يبرز فورا هو: انتصار مَن على مَن؟ انتصار فتح على حماس أو العكس؟ أم انتصار أحد الطرفين على إسرائيل؟ والفرق كبير جدا بين الحالتين، فقد يتمكن فصيل من إلحاق هزيمة عسكرية بالآخر كما فعلت حماس في غزة في صيف ٢٠٠٧، ولكن هذا لم ولن ينهي الصراع لا بين الفصيلين الشقيقين ولا مع الاحتلال، بل هو حتما يؤخر أو يعطل بل ويمنع انتصار أي من الطرفين على الاحتلال، لأنه من البديهي أن الانتصار على الاحتلال يتطلب أولا وقبل أي شيء آخر توحد الفصيلين على أرض المعركة في مواجهة الاحتلال، وتوظيف كل إمكاناتهما التنظيمية والعسكرية والجماهيرية والسياسية ضمن استراتيجية موحدة تذوب فيها كافة التناقضات الفرعية والهامشية. وغير ذلك ستظل أزمة الشرعية قائمة، ومستفحلة.

الحل والمخرج

مع تفاقم أزمة الشرعية لم يعد النظام السياسي الفلسطيني يمتلك ترف المفاضلة بين استراتيجية وأخرى، فالخيار الوحيد المتاح أمامه، ولا خيار سواه، هو تغليب غريزة البقاء على نزعة الإنتحار، وبالتالي ليس أمامه سوى الخروج من أزمته، والإقدام على خطوات عملية واتخاذ قرارات تاريخية تجعله يضع قدميه على بداية السكة، وهذا يتطلب بداية تجاوز حالة إحتكار السلطة، والتفكير بعقلية منفتحة، وبروح مسؤولة، ترى المستقبل وتهتم به قبل اهتمامها بالحاضر.

والخطوة الأولى للخروج من الأزمة، تتمثل في إنهاء الانقسام، وهذا شرط تأسيسي، ومن ثم ترسيخ الوحدة الوطنية، والبدء فورا في إصلاح منظمة التحرير، وإعادة بناء مؤسساتها بوظائفها التعبوية الشاملة لطاقات فلسطينيي الشتات، وصياغة إطار نظام سياسي موحد، بروح ثورية جديدة، وببرنامج سياسي مقاوم. وهذا

يعني توقف محاولات التعايش مع الانقسام، وجعله انقساما توافقيا، كما يحدث الآن عبر جولات الحوار والمصالحة التي لم تفضِ إلى شيء، لأنها تحولت إلى عملية مصالحة تدير الانقسام بدلا من أن تنهيه. والإعلان الفوري عن إجراء إنتخابات تشريعية، ورئاسية، وللمجلس الوطني، دون إنتظار موافقة الاحتلال على إجرائها في القدس، بل جعل الانتخابات فيها معركة مقاومة شعبية. هذا ما يتعلق بالشق الأول.

ما يتعلق بالشق الثاني، يتوجب اعتماد خيار المقاومة الشعبية، والعمل على تصعيدها وتعميمها، وتبني استراتيجية دفاعية هدفها تثبيت ودعم صمود الشعب فوق أرضه، ورفض أي مناورة سياسية تصفوية. وعلى الصعيد الداخلي: إطلاق حرية الرأي والتعبير، وتحريم كل أشكال الاعتقال والقمع والاستدعاءات السياسية، واتخاذ إجراءات جدية بشأن ملف الفساد، وتمتين الجبهة الداخلية، بخطاب إعلامي وطني موحد.. وهذا يعطي مشروعية للنظام، ويزيد من التفاف الشعب من حوله، ويجعله متفهما لعجز النظام عن اختراق حالة الانسداد السياسي.

وفي التفاصيل، هناك الكثير مما يتوجب فعله: تعميق الشراكة الوطنية، ولكن دون محاصصة، والبدء بهجوم سياسي يستهدف الساحة الدولية، من أبرز عناوينه: مواصلة الجهود الدبلوماسية لجهة توسيع الإعتراف بالحقوق الوطنية، واعتراف المزيد من دول العالم بالدولة الفلسطينية، تطوير حملة المقاطعة، ودعم جهود حركة الBDS ، وتعزيز حملة مقاضاة إسرائيل وملاحقتها في المحاكم الدولية، وتصعيد حملة معاملة إسرائيل كنظام أبارتهايد، وفتح ملف الأسرى، وإنهاء الحصار على القطاع.

وأخيرا، التفكير بشكل إيجابي في قضية تغيير الدور الوظيفي للسلطة، بحصرها في تسيير الأمور الحياتية، وإعادة مركز الثقل السياسي إلى منظمة التحرير.

خلاصة

الواقع المحزن يوحي بأن حماس متمسكة بسيطرتها على قطاع غزة، ويبدو أنها تستفيد من أموال الجباية، وأن قياداتها تماهت مع امتيازات السلطة، ولأن القطاع آخر معقل للإسلام السياسي، ولجماعة الإخوان المسلمين تحديدا، والتخلي عنه سيعني فشل مشروع الإسلام السياسي برمته، خاصة بعد إسقاط نظام الإخوان في مصر، وخروجهم من سورية، ومن السعودية، ومعظم دول الخليج.

كما يبدو واضحا أن السلطة الوطنية في الضفة الغربية لا تمتلك إستراتيجية واضحة لاستعادة القطاع، ولم تبذل الجهود الكافية، ولم تقدم التنازلات المطلوبة من أجل إنهاء الانقسام، وبالتالي لا يبدو في الأفق القريب ما يؤكد على استعادة الوحدة الوطنية، وإنهاء الانقسام، وحل أزمة الشرعية للنظام السياسي الفلسطيني.

الانتخابات العامة وحدها من يشكل مخرجا مناسبا من هذا النفق المظلم.

مذابح وتطهير عرقي في الوثائق الإسرائيلية الجديدة

عليان الهندي*

بعد اندلاع الحرائق في الغابات المحيطة بمدينة القدس المحتلة خلال صيف عام ٢٠٢١ اللاهب، وانكشاف أثار الدمار والتهديم الشامل الذي أحدثته آلة الدمار الصهيونية-الإسرائيلية في المدن والقرى العربية الفلسطينية، التي سبقها طرد الشعب الفلسطيني. وفي أعقاب موافقة محكمة العدل الإسرائيلية، على طلب معهد "عقبوت" لدراسات الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني، الكشف عن جلسات الحكومات المتعلقة بالمذابح والاغتصاب والسرقة التي حدثت للشعب الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨،(١) أفرج أرشيف دولة إسرائيل عن بعض جلسات الحكومة الإسرائيلية المؤقتة المنعقدة في شهر تموز عام ١٩٤٨، التي وقعت حتى بعد وقف إطلاق النار والإعلان عن قيام الدولة العبرية، بهدف طرد الفلسطينيين من وطنهم التاريخي.

وبهذا الكشف تنضم هذه الوثيقة، مع غيرها من الوثائق التي نشرت خلال الأعوام الماضية، في كشف حجم القتل والاغتصاب والدمار والتخريب الذي أحدثته العصابات الصهيونية، ودولة إسرائيل من بعدها، بالشعب الفلسطيني بهدف طرده من أرضه وإقامة ما يسمى بالدولة اليهودية.

وخلال عملها على تحقيق أهدافها، وإضافة إلى المذابح والقتل والتخريب، وفي السنوات الأولى من إقامتها، استغلت دولة الاحتلال الإسرائيلي كل الوسائل لتحقيق مآربها بما في ذلك، استغلال اليهود العرب المتحدثين باللغة العربية ،المستعربين أو المتأسلمين، بالتجسس على الفلسطينيين والاطلاع على مخططاتهم ومشاريعهم، بواسطة مخططات شريرة تتمثل بالزواج من مسلمات من دون علمهن أنهن يتزوجن يهوداً.

رغم الكشف عن الكثير من هذه الجرائم في صحيفة الاتحاد الصادرة عن الحزب الشيوعي

* باحث وكاتب في الشؤون الإسرائيلية

الإسرائيلي "راكاح" السابق في أواخر سبعينات وبداية ثمانينات القرن الماضي، ودور بعض المؤرخين الجدد أمثال إيلان بابيه وآفي شلاييم وسمحا بلبلين والعائد إلى أحضان الصهيونية بيني موريس، الذي كان السبب في إطلاق هذا المصطلح. إلا أن التفاصيل الجديدة أصبحت متاحة أمام الجمهور الواسع، ليقرأ ويحلل بطريقته، تفاصيل هذه المذابح على لسان القتلة والجزارين أنفسهم الذين مارسوا عمليات القتل، بدم بارد، والاغتصاب والسرقة والنهب بشكل جماعي وممنهج.

ما تم كشفه باللغة العبرية، وغيرها من المقالات القليلة المنشورة ،رغم قلته، يستحق منا فضحه وكشفه، لفضح المعايير المزدوجة لما يسمى بالمجتمع والقانون الدولي، خاصة أننا تعرضنا في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧، إلى عشرات المذابح مثل مذبحة الخليل التي نفذها باروخ غولدشتاين، والمذابح الجماعية التي حصلت بسبب اقتحامات المسجد الأقصى والمذابح التي يمر بها قطاع غزة منذ ما يقارب العقدين من الزمن، إضافة إلى الممارسات والقرارات الحكومية الهادفة لطرد الشعب الفلسطيني من أراضيه وممتلكاته في الشيخ جراح وسلوان في مدينة القدس، وفي مسافر يطا جنوب مدينة الخليل والأغوار الفلسطينية، والخان الأحمر والتجمعات البدوية، وهي ممارسات وسياسات اتخذت شكلا جماعيا خلال العقدين الماضيين، كما كان عليه الحال قبل وبعد الاعلان عن دولة الاحتلال الإسرائيلي.

طرد السكان

رغم احتلال فلسطين، ورغم الروايات الصهيونية التقليدية بأن الفلسطينيين تركوا أرضهم وهربوا، تكشف الوثائق الجديدة الصادرة عن الحكومة الإسرائيلية أن معظم الشعب الفلسطيني، لم يغادر أراضيه وظل متمسكا بها حتى الرمق الأخير، ما استفز القيادات السياسية والعسكرية الصهيونية على حدٍّ سواء، ودفعها إلى إصدار أوامر مكتوبة وغير مكتوبة بممارسة عمليات القتل، بما في ذلك قتل الأسرى، والسرقة والنهب والاغتصاب بشكل جماعي، من قبل المدنيين اليهود والجيش وحتى طلاب المدارس، الذين وصفهم أول رئيس حكومة، دافيد بن غوريون، بأنهم شبان جميلون ولطفاء يسرقون وينهبون، وجيد أنهم لا يكسرون (٢).

واستشهد وزير الداخلية في الحكومة المؤقتة باروخ شالوم شطريت باللد والرملة التي لم يهرب سكانها منها، لكنهم اختفوا بعد ٤٨ ساعة من احتلالها، حين شارك المدنيون والعسكريون والطلاب، بشكل جماعي في قتل الفلسطينيين وممارسة عمليات الاغتصاب ونهب ممتلكاتهم (٣). ويضيف الوزير شطريت أن الجيش يقوم باجتثاث العرب من أماكن سكناهم وطردهم. في حين رفض الوزير مردخاي بنتون، في نفس الجلسة، الاتفاق مع رئيس الحكومة ومع غيره من الوزراء بأن

سكان المدينتين التي تواجد فيهما ٥٠ ألف شخص، بعد احتلالهما، قد هربوا بمحض إرادتهم (٤). وأكد أن عمليات القتل والنهب والاغتصاب والطرد المباشر، كان لها الدور الفعال في عمليات إخراج الفلسطينيين من المدينتين، أسوة بغيرهما من المدن والقرى.

واكد وزير الزراعة في الحكومة المؤقتة أهارون تسيزلينغ، أن ممارسات الجيش كان هدفها فتح الباب أمام العرب للهروب، ولم ينزعج الوزير المذكور من عمليات الاغتصاب، بل انزعج من قيام جنود الجيش الإسرائيلي حينها بإجبار النساء الفلسطينيات، على خلع أساور الذهب والفضة من أياديهن وقطع عقود المجوهرات من أعناقهن (٥).

ولتأكيد الطرد وعدم الموافقة على أية عودة للشعب الفلسطيني اتخذت الحكومة الإسرائيلية قرارا :"بوضع معايير لهدم القرى الفلسطينية خاصة القريبة من المستوطنات اليهودية" (٦). وفي السياق المذكور، قال رئيس الحكومة بن غوريون "علينا مسح الكثير من الأماكن من على وجه الأرض".

الروايات المذكورة أكدها، البروفيسور اليعازر شبيد الذي شارك وهو شاب في احتلال مدن اللد والرملة وصفد والقدس والنقب بقوله :"الزهور المزروعة في بيوت الاغنياء في صفد أخرجت الجنود عن طورهم، وأصبحوا كالحيوانات الجائعة، حيث سرقوا كل ما يقع تحت أيديهم ووضعوه في جيوبهم وحملوه على أكتافهم، وبخصوص طرد سكان اللد قال شبيد :"أوامر الطرد صدرت بواسطة السماعات في الشوارع. ولتسريع طردهم دخلنا وأخرجناهم، حيث جمعوا حاجياتهم البسيطة وحملوها على الحمير". وأضاف :"رأينا كبار السن والنساء والأطفال يبكون وينتحبون ويولولون ويصرخون ويحتجون، لكنهم في النهاية يرضخون ويذهبون" (٧). وقال :"بعد ذلك رأينا على الطرقات الأمتعة التي ألقوها على قارعة الطريق، بعدها سألت نفسي ما الذي فعلناه لهؤلاء الناس التعساء في عودتنا من المنافي لأرضنا"(٨).

لكن يبدو أن البروفيسور العلماني، ندم على الفقرات الانسانية التي كتبها وانضم كموريس وغيره من المثقفين، إلى صفوف اليمين الإسرائيلي، الذين اعتبروا التطهير العرقي أفضل وأخف ضررا على الفلسطينيين من الإبادة والمجازر.

اعترافات القتلة

كشف خلال العقود السبعة الماضية عن عشرات المذابح التي نفذتها العصابات الصهيونية ودولة إسرائيل من بعدها، بهدف إجبار الشعب الفلسطيني على ترك أرضه ووطنه التاريخي، لكن مرات قليلة جدا، هي التي كشفت فيها الجهات الرسمية الإسرائيلية عن هذه المذابح وتفاصيلها ودور القيادة السياسية والعسكرية العليا في إعطاء الأوامر لأفراد العصابات الصهيونية والجيش

الإسرائيلي، المهيئان لممارسة القتل والمذابح وعمليات الاغتصاب والسرقة والنهب بشكل جماعي.

ولا بد من الإشارة، أن الممارسات المذكورة ،المنفذة بحق الشعب الفلسطيني، لم تتوقف حتى بعد قيام الدولة العبرية، التي وضعت نماذج ومعايير للقتل الجماعي، التي كان أشهرها تجميع أبناء القرى الفلسطينيين، الذين احتلت قراهم، في أحد البيوت أو الحفر وإلقاء القنابل فيها، وتمشيطها بالرصاص لقتل من تبقى من الأحياء، كما حدث في قرى الحولا والصالحة والصفصاف والدوايمة والبرج والطنطورة.

في قرية الحولا قام اللواء الثاني في الجيش الإسرائيلي بقيادة الضابط شموئيل ليس، بتجميع ٦٠ فلسطينيا كانوا قد استسلموا من دون مقاومة، الذي استمتع هو وجنوده بهواية قتل الفلسطينيين، عندما قتلوا في اليوم الأول ١٨ فلسطينيا، وفي اليوم الثاني أحضر ١٥ من أبناء القرية وأمروهم بالاتجاه نحو المقبرة، وهناك أوقفوهم على الحائط وأفرغ الضابط المسؤول مخزنين من رشاشه (ستين) في أجساد المدنيين. وخوفا من بقاء بعضهم أحياء، تجول جندي باسم ميرون بين القتلى، وقام باستكمال إطلاق النار على من اعتقد أنهم ما زالوا أحياء. ولم يتوقف الأمر على القتل الجماعي فقط، فقد تم اغتصاب ٣ نساء وقتلهن. لذلك لم يكن غريبا في كل روايات من هجر من فلسطين رفع مقولة "العرض ولا الأرض"، لأن حوادث الاغتصاب تكررت في كل عمليات الطرد تقريبا(٩).

أما كتيبة الايتسل الإرهابية ،التي قاد تنظيمها رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق مناحيم بيغن، فقد تحدثت وثيقة لا يعرف مصدرها، عن استسلام ٣٥ فلسطينيا من ضمنهم نساء وأطفال، وهم يرفعون الاعلام البيضاء في قرية ميرون. لكن القوة العسكرية الارهابية لم تهتم باستسلامهم وحمايتهم كما ينص القانون على ذلك، بل قامت بتجميعهم، وأمرتهم بحفر بئر. وبعد انتهائهم من ذلك، قام جنود الايتسل بإلقائهم في الحفرة وقتلهم بالسهام الفرنسية، في حين تم اغتصاب فتاة تبلغ من العمر ٢٠ عاما، وبعد ذلك طعنوها بالسهام ووضعوا عصا شجرة في جسدها. وللتأكد من قتل الجميع تجول جندي بين الجثث، مطلقا النار للتأكد من مقتل الجميع (١٠).

النهج في التعامل مع المدنيين والأسرى ظل هو النهج السائد في دولة الاحتلال الإسرائيلي حتى بعد قيام دولة إسرائيل، حين اعترف العميد احتياط أرييه بيرو أنه وقوات الجيش الإسرائيلي الخاضعين لأمرته قاموا بقتل الجنود المصريين خلال عدوان السويس عام ١٩٥٦، وأنه بنفسه قام بقتل أسرى. وأضاف، من نجحنا بقتله قتلناه(١١) لأنه لم يجد الوقت للانشغال بهم.

أما في قرية الرينة، وتحديدا في شهر يوليو من عام ١٩٤٨، فقد جمع ١٤ فردا، من بينهم إمرأة بدوية وجاسوس يعمل مع الجيش الإسرائيلي الغازي، وقام أفراد الجيش بإطلاق النار عليهم من دون أي اهتمام حتى بالمتعاون معهم (١٢).

أما ما حصل من مذبحة في قرية الدوايمة، ورغم الشهادات الفلسطينية المتنوعة حول المذبحة، لا بد من التنويه إلى ما ذكرته صحيفة هأرتس، بأن المصادر الإسرائيلية تشير إلى مقتل ما يقارب من ١٢٠ فلسطينيا من أبناء القرية، من بينهم أطفال حطمت جماجمهم بالعصي، ما دفع بضابط الاستخبارات إلى القول، لا يوجد بيت في قرية الدوايمة لا يوجد فيه قتلى عرب.

لكن ما حصل في قرية البرج الواقعة في منطقة راس الواد، يشير إلى شهوة القتل التي تملكت أفراد العصابات اليهودية، التي احتلت القرية ووجدت فيها ٤ أشخاص طاعنين في السن، من بينهم إمرأة مريضة والحاج ابراهيم الذي أجبروه على مساعدتهم في المطبخ الذي أقاموه في القرية. وبعد ثمانية أيام قرر الجنود التخلص من الأربعة، حين طلبوا من ابراهيم الذهاب لجمع بعض الخضروات لهم. بعد ذهابه جمع الجنود الفلسطينيين الثلاثة ووضعوهم في غرفة، وأطلقوا عليهم قذيفة دبابة، التي أخطأت هدفها، ما دفعهم إلى إلقاء ٦ قنابل يدوية في الغرفة التي تجمعوا فيها، ما تسبب بقتل اثنين منهم، الأمر الذي دفع باحد الجنود إلى إطلاق ٤ رصاصات على الشخص الثالث. إثر ذلك قاموا بحرق الغرفة على ما فيها من جثث(١٣).

وعندما عاد ابراهيم إلى الجنود، سألهم عن زملائه، أبلغوه أنهم أرسلوهم إلى مستشفى رام الله، لكن يبدو أن ابراهيم لم يصدقهم، وبعد عدة ساعات أطلقت عليه ٤ رصاصات أردته قتيلا.

وبخصوص قرية الطنطورة، التي أقيم على أنقاضها كيبوتس نحشوليم، التي قتل فيها ما بين ٢٥٠-٣٠٠ من الفلسطينيين المدنيين بعد انتهاء الحرب ،وحاولت إسرائيل التغطية على هذه المذبحة بشتى الطرق، بعد كشفها من الباحث والطالب ثيودور كاتس في بداية ثمانينات القرن الماضي، الذي جمع شهادات مروعة من الضحايا عن تلك المجزرة، والذي أجبر فيما بعد على الاعتذار والتراجع عما كشفه، بعد أن قام مشاركون في لواء الاسكندروني برفع دعوى قضائية ضده.

لكن اعترافات القتلة المتأخرة، الذين بلغوا جميعهم أكثر من ٩٠ عاماً، والذين جمعت شهاداتهم وعرضت في فيلم وثائقي "الطنطورة" من إخراج الفنان ألون شفارتس، تفيد بأنه كان هناك مذبحة مروعة اشترك فيها كل جنود لواء اسكندروني. وفي شهادته، يقول الجندي السابق حاييم لفين من لواء الاسكندروني الذي قاده خلال تلك الفترة المقدم دان إيفن :"جاء أحد الجنود وأبلغنا وهو في حالة هستيرية أنه قتل من ١٥-٢٠ شخص من قرية الطنطورة". فرد عليه زملائه :"لماذا تنفعل، لا تدري كم قتلوا من اليهود"(١٤).

أما الجندي عاميتسور كوهين، فيقول في شهادته :"لم آخذ أسرى، ولو كان هناك صف من المقاتلين العرب المستسلمين لأطلقت عليهم النار". وعندما سئل كم قتلت :"لم أحصي القتلى، كان معي

رشاش فيه ٢٥٠ طلقة، أطلقتها جميعها على المدنيين الفلسطينيين"(١٥).

وفي شهادة اخرى يقول الجندي ميخا فيتكون أن أحد الضباط ،الذي أصبح فيما بعد من كبار موظفي وزارة الدفاع، أخرج مسدسه وبدأ بقتل الفلسطينيين واحدا وراء الأخر من دون أي إزعاج، ومن دون أية انفعالات". وبعد الانتهاء من قتل الفلسطينيين أوضح لجنوده أنه قتلهم لأنهم رفضوا تسليم السلاح الذي خبؤوه في القرية"(١٦). ويكمل فيتكون شهادته بالقول :"أنهم أحضروا مجموعة من الفلسطينيين ووضعوهم في برميل، وقاموا بإطلاق النار عليهم، ما تسبب بسيلان الدماء من البرميل". ويكمل الجندي حديثه بالقول أنهم :"بكل بساطة لم يتصرفوا كبشر".

في حادثة الطنطورة، لم يجر أي تحقيق، وإنما تم توبيخ ضابط لأنه لم يهتم بدفن الموتى، الذين خشي الموبخون من انتشار الأمراض في صفوف القتلة الجدد الموجودين في القرية (١٧).

القبر الجماعي الذي حفر فيما بعد يبلغ طوله ٣٥ متراً وعرضه ٤ أمتار وهو موجود اليوم أسفل كراج للسيارات يقع على شاطيء بحر قرية الطنطورة.

الغاية تبرر الوسيلة

الأمر لم يتوقف على القتل والذبح، فقد امتدت الوحشية والهمجية اليهودية في التعامل مع الشعب الفلسطيني، حتى في المجال الأخلاقي، حين عمل رئيس جهاز المخابرات والموساد السابق إيسار هرئيل على تجنيد عشرات من شباب يهود العراق للقيام بأقذر واحقر الممارسات بحق الفلسطينيين خاصة النساء منهن، حين طلب من هؤلاء المجندين العمل في أوساط الفلسطينيين بالمدن والقرى العربية وفي تجمعات البدو بالنقب، في بداية عام ١٩٥٢، والتزوج من بناتهم من دون علمهن أنهن يتزوجن يهودا(١٨).

وبعد تدريبهم لمدة عام في معسكر بريطاني (استولى عليه الشهيد حسن سلامة وجعله مقرا له بعد خروج الانتداب من فلسطين) على اللهجة الفلسطينية، وإرسالهم للعمل في المصانع والورشات التي ضمت عمالا فلسطينيين، منحوهم هويات تشير إلى أصولهم الفلسطينية وديانتهم الإسلامية، وأرسلوهم إلى المدن والقرى العربية للتجسس على السكان الفلسطينيين الذين اعتبرتهم الدولة حديثة المنشأ "طابورا خامسا"، وخشيت من مشاركتهم بأي حملة عسكرية عربية لاستعادة ما تم احتلاله(١٩).

بعد فترة من وجودهم في التجمعات الفلسطينية، تم إقناعهم بالزواج من مسلمات للمساعدة في الدفاع عن دولة الاحتلال. وبعد موافقتهم تزوج عدد من العاملين في جهاز المخابرات الإسرائيلية من فلسطينيات في أعراس فلسطينية كاملة، من دون علمهن أنهن متزوجات من يهود(٢٠).

استمر الوضع على حاله مدة عقد تقريبا، بداية الستينات، حتى رفض المجندون الاستمرار بالحياة المتناقضة التي يعيشونها، ولرغبتهم بالعيش كيهود. حينها قرر جهاز المخابرات العامة الكشف عن هذه القضية المثيرة للاشمئزاز للنسوة الفلسطينيات. وعندما أحضرت العائلات إلى مقرات جهاز المخابرات العامة وأبلغن برواية الزواج من غير مسلمين أغمي على بعضهن، في حين أجهشت الأخريات بالبكاء، ورفضت معظمهن الاستمرار في هذه الحياة، اختارت واحدة منهن، وكانت تحمل أفكارا قومية عربية عدم الاستمرار بالعيش في إسرائيل وهربت مع ابنها إلى الأردن، وتزوجت هناك(٢١).

ولم تنج من تجسس "المستعربين" اليهود، حتى على المقاهي الفلسطينية، مثل مقاهي حيفا التي تجسسوا عليها قبل قيام دولة إسرائيل، وبعثوا عنها تقارير مختلفة تشير إلى روادها الذين صنفتهم لثلاث فئات هي: الأولى، تضم نشطاء ضد الحركة الصهيونية وضد الانتداب البريطاني في الماضي والمستقبل. والثاني، نشطاء متعاطفين مع المقاومة. والثالث، نشطاء شاركوا في السابق بثورة عام ١٩٣٦. (٢٢)

خلاصة

التطهير العرقي الذي تعرض له الشعب الفلسطيني، من قبل دولة الاحتلال الإسرائيلي، وما زال متواصلا حتى هذا اليوم، تستخدم فيه الدولة التي تدعي أن أبناءها ضحايا المذابح، كل الوسائل المتاحة لها، من دون أية كوابح قانونية أخلاقية لتنفيذ مبتغاها بإقامة ما يسمى بالدولة اليهودية على أرض فلسطين.

قيل في البداية، لتبرير قتل واغتصاب وسرقة الفلسطينيين، أن اليهود يحتاجون دولة من أجل وقف التمييز العنصري الذي يتعرضون له في أوروبا والمذابح التي تعرضوا لها من قبل النازية الألمانية، وحالة الشتات التي يعيشونها. أما اليوم، فهم يحتاجونها لإقامة دولة الشريعة اليهودية للتسريع بالخلاص وإقامة الهيكل المزعوم، وذلك على حساب الشعب الفلسطيني المالك الأصلي لهذه الأرض عبر كل الأزمان.

التفاصيل الجديدة حول عشرات المذابح التي كشف عنها، والتي تنتظر الكشف، المعروفة مسبقا لدى القيادات الصهيونية ومن بعدها قادة الدولة العبرية، أنهت المقولات المشهورة التي استغلت في استعمار فلسطين مثل "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" و"جاء اليهود لتعمير الخراب والصحراء"، تثبت بشكل قاطع أن استمرار احتلالها لفلسطين، قائم على القوة المسلحة، وليس على حقوق دينية أو تاريخية أو ديمغرافية كما تدعي.

في المقابل، ورغم المذابح وعمليات الطرد الجماعي والفردي للفلسطينيين، المتواصل حتى هذا اليوم، ما زال الشعب الفلسطيني أغلبية في أرض فلسطين. ومن أجل المحافظة على هذه الأغلبية، عليهم توحيد صفوفهم، وتبني برامج صمود ومقاومة إلى أن يشاء الله أمرا كان مفعولا.

الهوامش

١. . لم تستخدم الوثائق الإسرائيلية كلمة فلسطين أو الفلسطينيين، بل استخدمت كلمة عربي وعرب. والمصطلح استخدمته ككاتب.

٢. . جلسة الحكومة المؤقتة المنعقدة بتاريخ ١٩٤٨\٧\٢١، التي أفرج عنها أرشيف دولة إسرائيل في أعقاب التماس تقدم به مركز "عقبوت" لمتابعة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني.

٣. . نفس المصدر. ص ١٠.

٤. . نفس المصدر، ص ٣٧.

٥. . عوفر أديرت، خطأ تقني من أرشيف الدولة كشف لماذا اتخذ قرار بإخفاء المعلومات للمحافظة على الصورة، صحيفة هأرتس، ٢٠٢٢\١١\٢٥.

٦. . مصدر سبق ذكره، جلسة الحكومة المؤقتة، ص ٥٢.

٧. . موشيه بن عطار، اليعازر شبيد ١٩٢٩-٢٠٢٢ الوطني الذي لم يرتاح من الواقع الإسرائيلي، رابط المقال في الموقع الاليكتروني لصحيفة هأرتس، 22/24-01-haaretz.co.il/literature/study/2022 .2022/1/ty-article.

٨. . نفس المصدر.

٩. . أدم راز، دير ياسين لم تكن المذبحة الوحيدة، الكشف عن برتوكولات الحكومة لعام ١٩٤٨، ٢٠٢١/١٠/١٩، الرابط الاليكتروني لصحيفة هأرتس www.haaretz.co.il/magazine/2021/ty-article-magazine/09-12/.

١٠. . نفس المصدر.

١١. . تقرير اخباري عن صحيفة يديعوت أحرنوت، مصر تدرس إمكانية طلب تعويضات عن قتل الأسرى، رابط المقال الاليكتروني www.ynet.co.il/Ext/Comp/ArticleLayout/CdaArticlePrintPreview/0,2506,L-2942305,00.html

١٢. . نفس المصدر.

١٣. . مصدر سبق ذكره، ملحق صحيفة هأرتس، ٢٠٢١/١٢/١٠.

١٤. . نفس المصدر.

١٥. . نفس المصدر.

١٦. . نفس المصدر.

١٧. . نفس المصدر.

١٨. . ب. نيساني، الشاباك (جهاز الامن العام -المخابرات) زوج عامليه من العربيات: عشرات الاطفال سجلوا كيهود، صحيفة "كيكار هشبات" المتدينة، الرابط الاليكتروني للمقال m.kikar.co.il/security-news/٦٢٤٦٥ ٢٠١٨/٢/١١.

١٩. . نفس المصدر.

٢٠. . نفس المصدر.

٢١. . نفس المصدر.

٢٢. . إليشا بسكين، الوثائق تكشف: هكذا تجسس تنظيم "الهاغاناة" على مقاهي العرب في حيفا، مقالة في مدونة "هسفرنيم – مدونة الكتب الوطنية، ٢٠١٧/٧/١٦.

أوهام الرهان على يسار إسرائيلي.. سراب حل الدولتين

سعد القرش*

في نهاية طرق التطبيع مع العدو يوجد ثقب أسود، حفرة تبتلع الأفكار المتهافتة وأصحابها، وتذهب بهم إلى النسيان. ربما لا يكون هذا الثقب أو تلك الحفرة في نهاية الطريق تماما، ربما في المنتصف، وعمى البصيرة غالب. ولم يتمتع هؤلاء بفضيلة الاعتذار، بعد دعوات اتسمت بالكثير من التبجح والاستعلاء، تنصحنا بالعدول عن ثقافة الانتقام، ومدّ الأيدي إلى يد اليسار الإسرائيلي، لبناء تكتل يواجه اليمين الصهيوني المتطرف. هكذا قالوا. ومات معظمهم ولم يذكرهم أحد، ولا يزال البعض يواصل الرهان الخاسر، ولا يعي الخسارات، ويعمى عن رؤية مظاهر الهوس الصهيوني بإبادة ما هو عربي. وفي الأزمات لا فرق في إسرائيل بين يمين ويسار.

لم يكن اغتيال شيرين أبو عاقلة خطأ. اغتيلت الشهيدة الفلسطينية صباح الحادي عشر من مايو ٢٠٢٢، برصاص جيش الاحتلال، أثناء تغطيتها لاقتحامه مخيم جنين. إصابة مباشرة في الرأس. في الكنيست، تكلم النائب أحمد الطيبي بحرقة، متحديا رئيس الوزراء الإسرائيلي: «أنت تعرف اسم الضابط الذي أطلق النار على شيرين أبو عاقلة». ولاحقا ستقول إدارة نيويورك تايمز: «يوم مقتل شيرين قال متحدث عسكري إسرائيلي إن الصحافيين أهداف مشروعة لأنهم مسلحون بالكاميرات». أعلن المسؤول العسكري ما كان مسكوتا عن التصريح به، ولم يقل شيئا نجهله. تصريح يزيح سرابا راهن عليه التطبيعيون العرب، ويعيدنا إلى مذكرات موشي شاريت الواردة في كتاب «إرهاب إسرائيل المقدس».

القارئ العربي، والمراقب الأجنبي الموضوعي، لم يكن كلاهما ينتظر نشر أجزاء من مذكرات موشي شاريت في عام ١٩٧٥، أو الأعوام التالية التي حاولت فيها إسرائيل منع نشر المذكرات. فالمشهد على الأرض عانى أثارَه العربي، وتابعه الأجنبي، وتأكدت لكليهما طبيعة عقيدة تأسس عليها كيان

* كاتب فلسطيني

عنصري لا يتورع عن الإبادة الجماعية، إثباتا لجدارة مهامّ خدمته للرعاة، وخصوصا شرطي العالم، الراعي الذي كان يوما بريطانيا، فلما غربت شمس إمبراطوريتها، ورث الراعي الأميركي خدمات «دولة وظيفية» لا تحمّله ماديا تكلفة حاملة طائرات في المنطقة؛ لحماية مصالحه، كما تعفيه من تلويث يديه بعمليات قذرة يزهو بها القادة الصهاينة، ويضيفونها إلى قائمة إنجازاتهم في «الإرهاب المقدس».

في كتاب «إرهاب إسرائيل المقدس» تدرس الكاتبة الإسرائيلية ليقيا روكاش مذكرات شاريت الذي تعرضت عائلته لضغوط هائلة؛ لمنع نشر يومياته بالعبرية. ثم جرت محاولات شملت التهديد برفع دعاوى قضائية، «وطرق أخرى»؛ لمنع النشر خارج إسرائيل. وفي ٤ أبريل ١٩٨٠ كتبت صحيفة «معاريف»، في صفحتها الأولى: «كارهو إسرائيل في الولايات المتحدة ترجموا بدون إذن يوميات موشي شاريت». وفي الشهر نفسه هدّد مكتب محاماة شهير في نيويورك، متحدثا باسم عائلة شاريت والناشر الإسرائيلي لليوميات، «برفع دعوى سريعة في محكمة إقليمية فيدرالية»، لمنع نشر اليوميات كاملة أو مجتزأة. التهديد لا يتعلق بحفظ حقوق الملكية الفكرية، وإنما باتهامات «هستيرية بمحاولة فضح إسرائيل عبر شاريت».

كان موشي شاريت (١٨٩٤ ـ ١٩٦٥) أول وزير خارجية لإسرائيل، وثاني رئيس لوزرائها بين عامي ١٩٥٣ و١٩٥٥، بين فترتيْ رئاسة ديفيد بن جوريون لوزراء الكيان الصهيوني. وكان بين الرجلين خلاف قديم. فقبل حرب ١٩٤٨ حاولت الولايات المتحدة عبر وزير خارجيتها جورج مارشال إيجاد حل سياسي لمشكلة الوجود اليهودي في فلسطين، وكان هناك اقتراح يستهدف «إقامة كونفدرالية شرق أوسطية تضم كيانا صهيونيا»، وكان من المفترض أن يكون رئيس الوزراء المصري محمود فهمي النقراشي المفاوض الرئيس في الجانب العربي، «هذه المفاوضات التي كان من المتوقع أن تمنع اندلاع الحرب... كانت ستعني تأجيل الموعد الذي تحدد من أجل إعلان دولة إسرائيل لعدة أسابيع».

ولكن بن جوريون اعترض على فكرة التفاوض، ورفض تأجيل إعلان إنشاء «الدولة»، واتهم شاريت «بأنه يعارض قيام الدولة». وأنكر شاريت الاتهام، وجادل بأنه يفضّل الحل السياسي على الحل العسكري؛ فالوسائل الدبلوماسية تحقق الهدف نفسه. آمن بن جوريون بالعنف، وله خبرة بالعمل المسلح، وأما منطق شاريت فاستند إلى خبرته في إدارة العلاقات الدولية للحركة الصهيونية، بصفته رئيسا للقسم السياسي في الوكالة اليهودية (١٩٣٣ ـ ١٩٤٨). واستمر الصراع بينهما حتى كان سببا في «طرد شاريت» من منصبه كوزير للخارجية في يونيو ١٩٥٦؛ لمعارضته «أعمال التحرش المستمرة» بجيران إسرائيل، وكانت «تصفية وجوده المعارض مسألة ضرورية من أجل تحقيق مخطط الزعامة الإسرائيلية السياسية والعسكرية».

تغطي يوميات شاريت الفترة من أكتوبر ١٩٥٣ إلى نوفمبر ١٩٥٦، وهي ذروة السنوات الأخيرة من حياته السياسية. وتمتد اليوميات حتى ٢٩ نوفمبر ١٩٥٧، وهي فترة شهدت معاناته بسبب «توقف نشاطه بعد موته السياسي». وصدر كتاب ليڤيا روكاش بعنوان «إرهاب إسرائيل المقدس» عن مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة، وترجمته ليلى حافظ. وقال ناعوم تشومسكي في مقدمة الكتاب إن بين إسرائيل والولايات المتحدة «علاقة خاصة»، تتضح على المستوى المادي بتدفق رأس المال، والأسلحة، والدعم الدبلوماسي، والعمليات المشتركة، وتظهر هذه «العلاقات الخاصة أيضا على مستوى العقيدة»، فتتحرك إسرائيل للدفاع عن المصالح الأميركية في الشرق الأوسط. وقلما يُشار إلى الدور الحيوي لإسرائيل في استمرار الصراع.

تشومسكي اليهودي الأميركي المعارض للسياسات الأميركية والإسرائيلية يرى شاريت من دعاة الاعتدال، مستشهدا بأن «هزيمته» السياسية عكست صعود بن جوريون وموشي دايان وصهاينة آخرين «لم يترددوا في استخدام العنف للوصول إلى أهدافهم». ويضيف أن المذكرات «التي كرّست لها ليڤيا روكاش دراستها، تعتبر بما لا يدعو للشك، مصدرا وثائقيا أساسيا. تلك اليوميات تبقى خارج التاريخ الرسمي». وما عرف في الآونة الأخيرة بتيار المؤرخين الجدد في إسرائيل، وهم ينقُضون الرواية الصهيونية الرسمية، يكاد تشومسكي يشير إليهم، بقوله إن روكاش قدمت «خدمة قيمة عندما جعلت تلك الأوراق متاحة، لأول مرة، إلى كل هؤلاء الذين يهتمون باكتشاف العالم الحقيقي الذي يقبع وراء التاريخ الرسمي».

في الصفحة رقم ٣٣ من يومياته، يسجل شاريت أن الثلاثينات كانت مرحلة الاستضعاف، وفيها قام الصهاينة «بالسيطرة على مشاعر الانتقام... الآن، بالعكس، نقوم بتبرير نظام العمل الانتقامي... لقد أزلنا القيود الفكرية والأخلاقية التي تقوّض تلك الغريزة وجعلنا من الممكن.. دعم الانتقام كقيمة أخلاقية.. كمبدأ مقدس»، بعد «استئصال الكوابح الأخلاقية». وتعلّق ليڤيا روكاش بأن شاريت رأى، «بشكل واضح، المنطق وراء عقيدة الأمن الإسرائيلية بأنها فاشستية، وقام بتقديم تقييم حقيقي لعواقبها، من الفساد الأخلاقي، على المستوى الداخلي، وتزايد العنف على المستوى الإقليمي. ولقد عارضها، وكان بلا شك أحد ضحاياها. فقد كانت هزيمته مسألة لا يمكن تجنبها»، بالرغم من «إيمانه القاطع بالصهيونية».

تقول ليڤيا روكاش إن اليوميات تثبت أن الخطر العربي «أسطورة اخترعتها إسرائيل لأسباب داخلية، لديها وداخل الدول العربية، ولم تستطع النظم العربية إنكارها، تماما، رغم أنها كانت على الدوام في خوف من استعدادات إسرائيل لحرب جديدة». وترى اليوميات «مدمرة للدعاية الصهيونية»، وتنقل منها قيام بن جوريون، عام ١٩٥٤، «بتطوير الخطة الجهنمية» لإشعال صراع طائفي في

لبنان، عن طريق تحويل «لبنان إلى المسيحية». وتضمّن تطوير الخطة خطوات تفصيلية «لتقسيم وإخضاع هذه الدولة لإسرائيل». وتأمّل شاريت «السلسلة الطويلة من الأحداث الزائفة والحروب التي اخترعناها»، ورفْض أي تسويات أمنية للحدود، تقدمها الدول العربية أو الأمم المتحدة؛ لأن دايان رأى أنها «تقيّد يد إسرائيل».

سجل شاريت، في ٢٦ مايو ١٩٥٥، قول دايان إن العمليات الانتقامية «مادة حيوية بالنسبة لنا. فهي تساعدنا على الحفاظ على توتّر عالٍ بين شعبنا والجيش... فمن أجل أن يذهب شبابنا إلى النقب، يجب أن نصيح أنها في خطر». في تلك السنوات الأولى بعد تأسيس إسرائيل، كان المجتمع غير متجانس؛ لقدومه من قارات مختلفة، ويواجه «خطر تفسّخه اجتماعيا وثقافيا»، واقتضت ذهنية الحصار نسف الكوابح الأخلاقية، لاعتياد الإرهاب. وما نسميه في العالم العربي نكبة ١٩٤٨، في رأي الصهاينة تحرير، «انتصار للحق اليهودي ضد القوة». ولحدوث التحول الثقافي، «كان لا بدّ من التضحية بأرواح يهودية من أجل خلق الاستفزاز» لتسويغ عمليات انتقامية جديدة.

أورد شاريت شهادة جندي شارك، عام ١٩٤٨، في احتلال قرية الدوايمة الفلسطينية: «قتلت ما بين ٨٠ إلى ١٠٠ عربي، من النساء والأطفال. لقتل الأطفال، كانوا يقومون بتحطيم رؤوسهم بالعصي. لم يكن هناك منزل واحد بلا جثث... جاء المخربون لكي يفجّروا المنازل بالديناميت. أمر قائدنا بإحضار امرأتين إلى المنزل الذي كان على وشك تفجيره... جندي آخر افتخر بأنه اغتصب امرأة عربية قبل إطلاق النار عليها وقتلها. أمر الجنود امرأة عربية أخرى معها رضيعها بتنظيف المكان لمدة يومين، وبعد ذلك أطلقوا النار عليها وعلى طفلها. القادة المتعلمون... وكانوا يعتبرون أفضل الرجال أصبحوا قتلة، وذلك ليس خلال ضراوة المعارك، ولكن كمنهج طرد وإبادة».

هكذا، ومن دون «تغطية أخلاقية»، اعتمدوا سياسة العنف المفتوح، وبدأ تمجيد الإرهاب، وانتهاج الانتقام، باعتباره القيمة «الأخلاقية.. بل المقدسة». ويسجل شاريت في ١٥ أكتوبر ١٩٥٣ أن أنباء وصلته عن تدمير ٣٠ منزلا في قبية الفلسطينية، «هذا العمل الانتقامي لم يسبق له مثيل في حجمه وفي قوة الهجوم المستخدمة. ظللت أسير في حجرتي ذهابا وإيابا وأنا بلا حول ولا قوة، أشعر بكآبة كاملة بسبب عجزي... لقد كنت مرعوبا من التفاصيل التي استمعت إليها في إذاعة رام الله عن تدمير القرية العربية، عشرات المنازل دكّت وسوّيت بالأرض، وعشرات الأفراد قتلوا. يمكنني أن أتخيل العاصفة التي سوف تهب غدا في العواصم العربية والغربية».

وكتب شاريت في اليوم التالي: «يجب أن أؤكد هنا أنني، عندما اعترضت على العملية لم أكن أشكّ، ولو من بعيد، في وقوع حمام الدم هذا». وسأله القائم بالأعمال الأميركي «راسل» إذا كان سيُدين

عملية قبية؟ وسجل شاريت في يوميات ١٧ أكتوبر: «قلت إنني لن أستطيع أن أجيب... كاترييل سالمون (الملحق العسكري الإسرائيلي في لندن) تقدم بفكرة تضليل: عملية قبية سوف تجذب كل انتباه العالم، إلا إذا اخترعنا عملية أخرى مثيرة». ورجع بن جوريون من عطلة؛ لحضور اجتماع الحكومة، وتقرر إصدار بيان عن مذبحة قبية. رأى شاريت أن ينطوي البيان على «الأسف»، وأصرّ بن جوريون على استبعاد الجيش من أي مسؤولية.

كتب شاريت: «لم أستطع أن أطلب جديا أن يؤكد البيان بشكل واضح مسؤولية الجيش؛ لأن ذلك كان سيجعل من المستحيل إدانة الفعل، وفي النهاية سوف نضطر إلى تأييد هذه المجزرة البشعة». وتعلّق ليڤيا روكاش أنه بالنسبة لشاريت، «لم يكن من الممكن المساس بالجيش»؛ فالجيش نفّذ قرارا «اتخذ على المستوى السياسي». إن استعادة مجزرة واحدة تثير الشجون والأسى، وخفوت الألم وانخفاض منسوبه، لا يطول، فسرعان ما تتوالى جرائم إسرائيل؛ فهي تخشى مضيّ فترات طويلة من دون اشتباكات عسكرية. جيش متأهب للحرب سيصيبه التراخي. للسلام ثمن إسرائيلي باهظ. يقول شاريت، في ٢٧ فبراير ١٩٥٤، إن الحرب مع مصر ظلت «الطموح الأكبر» لإسرائيل.

والتطبيعيون كأنهم لم يقرأوا مذكرات شاريت «المعتدل». كان أحدهم، للمفارقة، أستاذا للتاريخ واحتل مناصب إدارية وأكاديمية متعددة، وسمعته يقول إنه كفيل باستمالة ربع الإسرائيليين خلال عشر سنوات إلى «السلام». لم يقل أي سلام؟ ولا كيف يضمن التأثير في هذه النسبة من «المواطنين» الحاضنين لجيش الاحتلال؟ وقد مات وإسرائيل تزداد شراسة، ولا أحد يتعلم الدرس، بمن فيهم كاتب ضحى بموهبته في الكوميديا، ولعله أراد أن ينقل المسخرة من قاعات المسارح إلى ساحة الصراع العربي الصهيوني، فخلط عملا هازلا بعمل لا يحتمل الدعابة. قلت: الصراع العربي الصهيوني، بدلا من الصيغة المائعة المضللة: الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. ففلسطين ليست وحدها المستهدفة بإقامة «دولة» إسرائيل.

في نهاية عام ١٩٩٣ كتب علي سالم أنه يفكر في زيارة إسرائيل، لتأليف كتاب يجيب عن سؤالين: من هم هؤلاء القوم، وماذا يفعلون؟ كان عمر الكيان الصهيوني ٤٥ سنة وأربع حروب وبضعة اجتياحات وإغارات وآلاف الضحايا والملايين من الفلسطينيين المحرومين من حق العودة. ولكن الغفلة جعلت الكاتب المسرحي يطرح سؤاليْه الساذجين، وينفذ في أبريل ١٩٩٤ مشهدا استعراضيا بالسفر، وبعد خمسة أشهر نشر كتابه «رحلة إلى إسرائيل». دخلها بسيارته النيڤا الخضراء، «آخر ما تبقى من الاتحاد السوفييتي». وقبل سفره استبق مَن سينتقدونه واتهمهم بالفاشية، «أنتم ضدي لأنه لا شيء لديكم تقدمونه للسلام ولم يكن عندكم ما تقدمونه للحرب سوى الضعف والأكاذيب».

تستبد شهوة الميكروفون بالمرضى والمأزومين. وقف علي سالم على مسرح افتراضي معنّفا مَن سينتقدونه: «السلام يصنعه الشجعان وأنتم جبناء، ويطلبه الأحرار وأنتم عبيد، ويحرص عليه الأذكياء وأنتم بلهاء، ويعمل من أجله الأقوياء وأنتم ضعفاء». انطلق المسكين من تخيّل أن الذي بيننا وبين الكيان العسكري الاستعماري حرب عقلية، مصدرها الكراهية. فماذا سيقول في الأرض المحتلة لمرافقيه من الإسرائيليين؟ قال إنه يختلف عن دعاة الحرب، ويريد التخلص من هذه الكراهية؛ فقرر أن يشارك في صنع السلام، وإن هناك كراهية «تغذيها عواصم الصحراء وأنبياء الفاشية، ولكن عندما يسود السلام المنطقة، وتنتصر الحرية... سينظر الناس خلفهم في دهشة واشمئزاز لما كنا نفعله ببعضنا البعض».

خطوة فردية فاجأنا بعدها واهمون يراهنون على المواطن الإسرائيلي في إيجاد سلام دائم، «قبل نهاية هذا القرن». تبنى ذلك الرهان بقايا صقور مخصية لليسار، عقدوا لقاءاتهم في العاصمة الدنماركية. وفي ٣٠ يناير ١٩٩٧ صدر «إعلان كوبنهاجن بشأن إنشاء التحالف الدولي من أجل السلام العربي الإسرائيلي»، بمشاركة تسعة مصريين منهم لطفي الخولي ومراد وهبة وعبد المنعم سعيد وعلي الشلقاني. وأجهض الإعلان في القاهرة ببيان وقعه ٢٥٠ مثقفا عربيا يدعو إلى تكوين تحالف عربي يواجه التطبيع، وأعلن عن تأسيس «جمعية مناهضة التطبيع». كان الخولي عراب «جمعية القاهرة للسلام»، ومن أعضائها أسامة الغزالي حرب وسعد الدين إبراهيم وصلاح دياب. ومات الخولي عام ١٩٩٩، ونُسي.

نُسي أيضا كتاب علي سالم. لا يهتم أحد بإعادة طبعه؛ فليس صالحا ولو للتسلية؛ فالنكتة تلقى مرة واحدة، ولن يستفيد باحث من كتاب سياحي يحاول الانتقام النفسي من الضحايا. وقامت في مصر ثورة شعبية في يناير ٢٠١١، وأجهضت مرتين بجولتين من القوى المضادة للثورة، وفوجئنا بأن علي سالم لا يزال حيا، يوم إعلان وفاته في سبتمبر ٢٠١٥. وجذب انتباهي في نهاية كتابه وهمٌ يلخّصه قوله: «إن أقوى جسور السلام بين مصر وإسرائيل هو اليهود المصريون»، واقترح «كيفية الاستفادة من وجودهم هناك»، بتنظيم مؤتمر لهم في القاهرة أو الإسكندرية عنوانه «ماذا تريدون من مصر؟»؛ للإسهام «حتما في بناء الثقة بين الشعبين».

كأن اليهود الذين غادروا مصر إلى فلسطين المحتلة مجموعة من السحرة يمكن استضافتهم للمشاركة في مؤتمر، ثم يعودون إلى العدو، ليمارسوا سحرهم في «بناء الثقة». وإذا كان في مصر شعب، فإلى أي درجة يصدق وصف تهجين اليهود، بعد استجلابهم، بأنهم «شعب»؟ أسعفتني دراسة منشورة في كتاب «يهود الوطن العربي»، وقد أصدره مركز زايد والتنسيق والمتابعة بالإمارات في مارس ٢٠٠٣، وهو من حصاد ندوة نظمها المركز في أكتوبر ٢٠٠٢ عن يهود العالم العربي. وصدر

الكتاب بمقدمة محمد خليفة المرر عن التسامح العربي الإسلامي مع اليهود، «إلى أن ظهرت المؤامرة الكبرى... فيما عرف بوعد بلفور عام ١٩١٧»، وما تلاه من «اغتصاب فلسطين».

لا تمرّ مقدمة المرر مرور الكرام الآن في الإمارات، ولا يسمح بإعادة نشرها، في ظل المصاهرة، وفتح الأجواء والصدور لعدو ربما يبدي انزعاجا من تراث مركز زايد، ومنذ تأسيسه عام ١٩٩٩ نشط في تنظيم ندوات تنقض المشروع الصهيوني في فلسطين المحتلة، وتنتقد مشاريع التهجير والاستيطان. وأصدر المركز كتبا ضمن هذا التوجّه، حتى أمر الشيخ زايد بإغلاقه، في أغسطس ٢٠٠٣، بعد حملة صهيونية أميركية اتهمته بمعاداة السامية. وأتمنى أن يسارع مؤلفو هذه الكتب إلى إعادة نشرها في دور نشر عربية رافضة للتطبيع وللإذعان لشروط المصاهرة الخليجية الصهيونية، وخصوصا كتاب «مركزية مفهوم الطرد والترحيل في العقيدة الصهيونية» للدكتور محمود سعيد عبد الظاهر.

أما كتاب «يهود الوطن العربي» فإحدى دراستيه عنوانها «اليهود العرب في إسرائيل بين التسامح الإسلامي والسبي الصهيوني»، وفيها يبطل الدكتور عبد الله رمزي أوهام علي سالم وجماعة كوبنجاهن، وينسف الرهان على سلام أو تعايش يسهم فيه اليهود الذين خرجوا من البلاد العربية، واستقروا في فلسطين، مواطنين من الدرجات الدنيا، يغذّون الآلة الصهيونية، فاليهود العرب «في الكيان الصهيوني الآن جزء عضوي لا يتجزأ عن البنية الصهيونية العامة هناك»، بل صاروا تحت تأثير دعائي صهيوني «من أكثر الطوائف الإسرائيلية عنفا وكرها للعرب»، وينحازون دائما إلى أقصى اليمين العنصري، ويرفضون «كل أشكال التسوية العادلة الهادفة إلى إقامة دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس الشريف».

لم يعد خافيا أن الكيان الصهيوني مجتمع استيطاني عسكري وظيفي غربي، مهما يفتح أبوابه ويمنح جنسيته لأي يهودي أيّا كان بلده الأصلي. ومن الاستغفال تصوّر تطبيع بين شعوب طبيعية وجيش مستنفر للعدوان، حتى لو كان يملك مقعدا في الأمم المتحدة، ويحظى باعتراف أممي بأنه «دولة». لا تستقيم علاقات ومعاهدات وتعايش بين الطبيعي وغير الطبيعي. «إسرائيل دولة آرية» هو عنوان كتاب للكاتب الصهيوني مايكل سيلرز، وهو أيضا من أصدق التعريفات لماهية كيان يضم صفوة أقلية غربية (أشكناز)، ويهودا شرقيين (سفارد)، ويهودا من مواليد فلسطين (الصابرا)، ويهودا من الدول العربية والإسلامية (المزراحيم) وصوت هؤلاء «مخنوق ومطموس إلى حد كبير» بتعبير الدكتور رمزي.

في فيلم «انس بغداد» يوثّق مخرجه العراقي سمير جوانبَ من معاناة يهود عراقيين أجبروا على الرحيل إلى فلسطين عام ١٩٥١، وكيف استقبلوا في معسكرات غير آدمية في إسرائيل. وفي هذه

الدراسة يقول الدكتور رمزي إن النظام الصهيوني يخفض اليهود الشرقيين في السلّم الاجتماعي، ويرفع الأشكناز. لأسباب صهيونية أوروبية، يتم التمييز لمصلحة اليهود الأوروبيين، بل إن مصطلح «الشعب اليهودي» يستبعد اليهود الشرقيين، وربما ينظر إليهم كأعضاء في الجماعات اليهودية ما داموا خارج فلسطين المحتلة، «ولكنهم حينما يصلون إلى إسرائيل يصبحون مغاربة أو مصريين وتتحدد مكانتهم الاجتماعية... ويلجأ بعض يهود المغرب العربي إلى ادعاء أنهم من أصل فرنسي حتى يحسنوا صورتهم أمام الآخرين».

نهض الكيان بجهود أوروبية، دولا وعصابات، وحددت نخبته الحاكمة «الطبيعة الغربية الإشكنازية للدولة»، ومارست تمييزا واضطهادا لليهود الشرقيين والعرب، فهؤلاء كما قال بن جوريون في ٢٤ أكتوبر ١٩٦٠ في خطاب بالكنيست، «أتوا من مجتمع متخلف فاسد وغير متعلم». استبداد الأقلية العرقية بالنفوذ في إسرائيل يستند إلى جذور ثقافية انطلق منها أحد رواد الشعر العبري، وهو مؤلف النشيد الوطني لإسرائيل حاييم ناحمان بياليك الذي ولد في أوكرانيا عام ١٨٧٣ وتوفي في تل أبيب عام ١٩٣٤. بياليك، الذي بشر بالأرض المقدسة الموعودة، قال إنه يكره العرب، «لأنهم يذكرونه باليهود الشرقيين». ويرى الدكتور رمزي أن في إسرائيل «حربا ثقافية» بين أقليات تعاني التمييز.

جهود «الأسرلة»، لدمج هؤلاء في نسيج قومي واحد، تستهدف صبغهم «بالصبغة الإشكنازية»، وبالرغم من القبول والتسامح مع اليهود في العالم العربي، فقد محت الدعاية الصهيونية «الصورة الإدراكية المختزنة في ذاكرة الرعيل الأول من المهاجرين العرب اليهود... فجعلتهم دائما بين فكي الرحى؛ إما العيش في مهانة المجتمع الإسرائيلي، أو الإيهام بتعرضهم للذبح في حالة الوقوع مرة أخرى تحت سلطة العرب المسلمين... كما لا يخفى على الدارس لتاريخ الصراع المسلح العربي ـ الصهيوني حالة الشراسة والقسوة والعنصرية»، والمعاملة العدائية من اليهود ذوي الأصول العربية للأسرى العرب. على اليهود عموما يصدق قول شارلي شابلن إن السم النازي تسرّب من الجلاد إلى الضحية.

فصل الخطاب، حتى لا تتبدد جهود وأعمار في إعلاء زيف، وتصديق أوهام، والاستنامة لأحلام يقظة تذهب هباء، فقد تبين للعقل العربي «فشل انتظار تفكك المجتمع الإسرائيلي على خلفية الخلاف الطائفي بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين... كما فشل الرهان على ما يسمى باليسار الصهيوني وما يسمى بقوى السلام في إسرائيل في خلق تيار يتبنى ثقافة السلام، ويقترب من مفهوم الحقوق العربية المشروعة»، انتهى كلام المؤلف، ليبدأ الحل من الداخل، داخلنا، فالكسالى وحدهم ينتظرون حلا خارجيا بانهيار ذاتي للعدو، ويتسوّلون سلاما مستحيلا، منذ عام ٢٠٠٢، بمبادرة للمهزومين،

عنوانها «الأرض مقابل السلام»، وحلّ الدولتين. وبالتطبيع الخليجي، أفاقتهم صفعة نتنياهو بأن «السلام مقابل السلام».

صفعة «السلام مقابل السلام» لا يبالي بها أستاذ الفلسفة مراد وهبة (٩٦ عاما) الذي يعتبر إسرائيل دولة طبيعية أبدية الوجود، وأبطاله أنور السادات ودونالد ترامب وعبد الفتاح السيسي، ويتهم جمال عبد الناصر وباراك أوباما وهيلاي كلينتون بالميل إلى تنظيم الإخوان. في كتاباته الغزيرة يتجاهل مراد وهبة الأساطير الدينية المؤسسة لإسرائيل، وإصرار قادتها على الطبيعة الدينية للدولة، ونسف قواعد ومفاهيم العلمانية والمواطنة للفلسطينيين داخل بلادهم. ولا يشير إلى قرار التقسيم لفلسطين التاريخية رقم ١٨١، الصادر من الأمم المتحدة عام ١٩٤٧، وهو لا يسقط بالتقادم. من المدهش وجود باحثين أجانب ليسوا مثقلي الضمير بقضية فلسطين أكثر إنصافا من الدكتور مراد وهبة المصري.

من محن الفلسفة سير أستاذها وراء السياسي بخطوة، وقراءة وقائع متغيرة كنهاية للتاريخ، وتلخيص القضية بوصفها صراعا فلسطينيا إسرائيليا، والتفرّغ للدفاع عما يراه حقا لكيان احتلالي، ومدح عبقرية السادات، والتحسّر على مصير إسحق رابين. من البؤس هبوط المنحنى إلى التعليق على بيانات رسمية، وله أن يرى ذلك «تأملات فلسفية»، فمعاهدة إبراهيم الإماراتية الإسرائيلية «توفر تفكيرا جديدا حول أسلوب تناول مشاكل المنطقة وتحدياتها»، ويدلل على تأملاته الفلسفية في مقال في الأهرام (١٥ سبتمبر ٢٠٢٠) بقول كبير مستشاري ترامب جاريد كوشنر: «إن الفلسطينيين لا يمكنهم الاستناد إلى الماضي في صياغة السلام»، ويشيد بإلغاء الإمارات في أغسطس ٢٠٢٠ قانون مقاطعة إسرائيل لسنة ١٩٧٢.

أداؤه تقليد للمعلقين على مبارايات الكرة، ولا أظنه نزولا بالفلسفة من التجريد إلى الفضاء العمومي، بل تفريغها من سؤالها، فلا يبقى من جوهرها النقدي إلا انتقاد جرائم الجماعات الإسلامية، وليس كل سلفية تنطلق من الدين لشرعنة سلوك السياسي، وترسيخ العدوان، كما في حالة إسرائيل. من البؤس أن يكون رئيس العدو أكثر شجاعة، ويعتذر يوم ٢٩ أكتوبر ٢٠٢١ إلى أهل قرية كفر قاسم، ويطلب «العفو» من عائلات ٤٩ فلسطينيا ضحايا مذبحة عام ١٩٥٦. تصريح إسحاق هرتسوغ يحرج من يتوسلون بعلمانية عوراء ترى بعين واحدة، وتتنكّر لحقيقتها التي يعرّفها الدكتور مراد بأنها «التفكير في النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق».

حدود خيال السياسيّ ومدى إدراك إعلاميي السلطة وذوي الثقافة الشفاهية هي تقريبا ما يراه الدكتور مراد، تسطيح قضية مركبة بعنوان «الصراع الفلسطيني الإسرائيلي». أما المهموم بالفلسفة

فينشغل بالظاهرة الصهيونية في سياقها، والمفكر يبحث الظاهرة عبر التاريخ، ومآلاتها المحتومة كحادث سير مضاد للتاريخ، وتفكيكها حتى بعد زوال الكيان الصهيوني، كما زالت كيانات عدوانية عنصرية بانتهاء الغرض منها، وتخلّي رعاتها عنها منحازين إلى بدائل أعظم فائدة وأقل تكلفة. وبالرغم من هذا كله، لم يعترض أحد على خيارات أستاذ الفلسفة مراد وهبة الذي لا يملّ تكرار كلامه أسبوعيا في صحيفة الأهرام. ويفترض أن يكون المتفلسف أكثر الناس قلقا وإعادة النظر في يقينه؟

مضى عقدان من توسّل «السلام» وتسوّل. عشرون عاما تكفي للشك في آمال الرهان على اليسار الإسرائيلي. البديل الوحيد لدولة فلسطينية كاملة السيادة هو دولة علمانية يتساوى فيها المواطنون، أيّا كانت دياناتهم أو إلحادهم. وهذا الحل العقلاني الإنساني ينسف الظاهرة الصهيونية، ويهدم فلسفة الاستعمار البريطاني في تأسيس كيان عسكري يحمي مصالحه ويعزل شطريْ العالم العربي. وقبل زوال شمس الوكيل البريطاني كانت الولايات المتحدة قد تسلمت ملف إسرائيل، وصارت الراعي الرسمي. وبدلا من استجداء الاستجابة لمبادرة عربية مهينة، ولدت ميتة عام ٢٠٠٢، يمكن أن نجادل بالرهان على الدولة العلمانية الواحدة في فلسطين، وطرحها خيارا وحيدا، واختبارا حقيقيا لسراب الديمقراطية الغربية والعلمانية الأميركية.

أوراق المنظمة

الاتحاد الأوروبي والمنظمة

د.إكرام عبد الرحيم

لم يكن الاتحاد الأوروبي، ومن قبله الجماعة الأوروبية، ينظر للقضية الفلسطينية، ما قبل السبعينات، إلا كجزء من منطقة أوسع، سماها الاحتلال البريطاني "الشرق الأوسط". وقد تميَّزت سياسة "الاتحاد الأوروبي"، ومن قبله "الجماعة الأوروبية"، في كثير من الأحيان، بالتبعية للولايات المتحدة الأميركية، التي يعود لها الفضل الكبير على أوروبا، بعد الحرب العالمية الثانية، حيث تبنت الولايات المتحدة "مشروع مارشال"(١)*، لإعادة بناء أوروبا، مرة أخرى، وتصديها للتهديد النووي السوفييتى، في ذلك الحين، وتطورت علاقة "الاتحاد الأوروبي"، بالمنظمة، عبر عدة محطات.

سوف نتناول هذا الفصل، في ثلاثة مباحث، تسبقهم مقدمة عن نشأة الاتحاد الأوروبي.

المبحث الأول: عدم الاعتراف؛.

المبحث الثاني: تضارب المواقف؛

المبحث الثالث: الاعتراف، والتعاون.

مقدمة: نشأة الاتحاد الأوروبي:

يعد الاتحاد الأوروبي أكثر التجارب نجاحًا، وأعمقها تأثيرًا، في تاريخ التكامل الاقتصادي الإقليمي. وقد كانت بداية الجماعة الأوروبية، كتكتل اقتصادي، هو "اتحاد البنلوكس"، الذي تأسس في العام ١٩٤٤، بين ممالك ثلاث في أوروبا الغربية؛ وهي بلجيكا، وهولندا، ولوكسمبورج. وتم تفعيل الاتفاق بينهم في المنفى، في لندن، العام ١٩٤٤، وتمت إعادة تفعيل الاتفاق، العام ١٩٤٧.

انضمت إلى الدول الثلاث المؤسسة للبنلوكس، ثلاث دول أخرى، هي: (فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا)، لينشئوا أول إطار مؤسسي أوروبي، يتمتع بسلطات فوق قومية، وهي "الجماعة الأوروبية للفحم والصلب"، التي

وُقعت الاتفاقية الخاصة بها، في ١٨ نيسان/ أبريل١٩٥١، والتي ظهرت إلى حيِّز التنفيذ، في ١٠ آب/ أغسطس ١٩٥٢. ومنذ ذلك التاريخ، مرّت مسيرة الوحدة الأوروبية بمراحل عدة، متخذة أشكالاً مختلفة؛. منها الجماعة الاقتصادية، من خلال "معاهد روما"، في العام ١٩٥٧، وكاتحاد جمركي، العام ١٩٦٨، ، وكاتحاد أوروبي، بفضل جهوده التوسعية، إلى ٢٥ دولة تسعى، وبشكل جدي، إلى دستور موحَّد(١).

ففي حزيران/ يونيو ١٩٥٦، دخلت الدول الست سابقة الذكر، في مفاوضات، قادت إلى التوقيع، في ٢٤ آذار/ مارس ١٩٥٧، على "اتفاقية روما"، المنشئة لجماعتين أوروبيتين جديدتين، هما: الجماعة الاقتصادية الأوروبية "السوق المشتركة"، و "الجماعة الأوروبية للطاقة النووية" (اليوراتوم)، وهي الاتفاقية التي دخلت حيِّز التنفيذ، اعتبارًا من أول كانون الثاني/ يناير ١٩٥٨، لتبدأ مرحلة جديدة، ومهمة، في مسيرة حركة التكامل، والاندماج الأوروبي.

في العام ١٩٦٢، تمّ اتباع السياسة الزراعية الموحَّدة، والتي تم بمقتضاها إنشاء السوق المشتركة، ونظام الأسعار الموحَّدة لمعظم المنتجات الزراعية. ولحقه دمج الجماعات الأوروبية الثلاث في جماعة واحدة، بموجب اتفاقية الدمج، الموقَّعة في نيسان/ أبريل ١٩٦٥، والتي دخلت حيِّز التنفيذ، اعتبارًا من أول تموز/ يوليو عام ١٩٦٧، وصولاً إلى بداية تطبيق الاتحاد الجمركي، اعتبارًا من أول تموز/ يوليو ١٩٦٨،أي قبل موعده المقرر بثمانية عشر شهرًا كاملة.

في أول كانون الثاني/ يناير ١٩٧٣، انضمت إلى الجماعة الأوروبية كلٌّ من المملكة المتحدة، وإيرلندا والدانمارك، ليصبح عدد دول الجماعة الأوروبية تسع دول. ثم انضمت اليونان، في أول كانون الثاني/ يناير ١٩٨١، ليصل عدد دول الجماعة الأوروبية إلى عشر دول. وفي أول كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦، انضمت إسبانيا، والبرتغال، وبذلك أصبح عدد دول الجماعة الأوروبية اثنتي عشرة دولة(٢). ومع بداية التسعينات، وتحديداً في ٧شباط/ فبراير ١٩٩٢، تمّ التوقيع على "معاهدة ماستريخت"، التي شكلت نقلة نوعية جديدة، حيث تم استبدال مصطلح " الجماعة الأوروبية"، المستخدم في حينه ، والإعلان عن قيام " الاتحاد الأوروبي"، في خطوة أوحت بأن حركة التكامل، والاندماج الأوروبي بدأت تدخل مرحلة الوحدة السياسية. حيث شكلت المعاهدة أساس الدستور الأوروبي، الذي صدر العام ٢٠٠٤. وفي العام ٢٠١٣، توسع الاتحاد الأوروبي، ليصل إلى ٢٨ دولة، كانت آخرها كرواتيا(٣).

لقد مرت علاقة الاتحاد الأوروبي بمنظمة التحرير الفلسطينية، بالعديد من التطورات، لعل أهمها:

المبحث الأول: عدم الاعتراف:

يمكن أن نحدد هذه الفترة، من العام ١٩٦٤، وهو العام الذي نشأت فيه "منظمة التحرير الفلسطينية"(٤)، وحتى ١٩٧٩، حيث تم توقيع "اتفاقية السلام" بين مصر وإسرائيل. بالرغم من أن أوروبا، وبالأخص

بريطانيا، هي من زرعت الاستعمار الصهيونى في فلسطين، في مطلع القرن العشرين، ودعمت وجوده، إلى أن اصبح "دولة"، اعترفت بها الدول الأوروبية. وقد اشتركت أهم دولتين استعماريتين في أوروبا، في ذلك الوقت، بريطانيا، وفرنسا مع دولة الكيان الصهيوني، في الاعتداء على مصر(٥). وقد أدت العديد من العوامل، الداخلية والخارجية، بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة، إلى تراجع النفوذ الأوروبي، لصالح النفوذ الأميركي والسوفييتي. وقد انكفأت العديد من دول أوروبا الغربية على نفسها، في الستينات(٦)، وقبلت، بدروها، باعتبارها تابعًا لدور الولايات المتحدة الأميركية، المتحيِّز بالكامل "لإسرائيل"(٧). هذا، وفي المقابل، عندما تأسست "منظمة التحرير الفلسطينية"، العام ١٩٦٤، تعاملت مع الدول الغربية، على ضوء موقف الأخيرة من القضية الفلسطينية، وتم قطع العلاقات العربية مع بعض الدول الغربية، مثل ألمانيا الغربية، لموقفها المؤيد لإسرائيل.، وظلت دول أوروبا تنظر للقضية الفلسطينية، على أنها قضية لاجئين، حتى يمكن القول إنه، حتى العام ١٩٦٥، كانت كلمة فلسطين مشطوبة من الملفات الأوروبية(٨).

بدأت "الجماعة الأوروبية"، بعدما حققت إنجازًا كبيرًا، سابقًا للمخططات التي وضعتها لتكتلها، تلتفت للوطن العربي، محاولة بدء عملية التنسيق، والتعاون السياسي، التي تبلورت في أول محاولة للاتفاق على موقف أوروبي جماعي، العام ١٩٧١، حيث تبنت، في ١٣ أيار/ مايو، "وثيقة شومان"(٩)، التي تحدثت عن شروط التسوية، من وجهة النظر الأوروبية، وهي: انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية، التي احُتلت، في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، و تدويل مدينة القدس، وحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، بتخييرهم مابين العودة، والتوطين في أقطار أخرى(١٠) .

بالرغم من أنّ هذه الوثيقة لم تأت بجديد حاسم، وتعاملت مع القضية الفلسطينية باعتبارها قضية لاجئين، فإنها لم تحظ بقبول إسرائيل، التي اعترضت عليها، مما دفع دولًا أوروبية عديدة، وبالذات ألمانيا، وهولندا، إلى التراجع، والتقليل من أهميتها، وعدم اعتبارها وثيقة رسمية، تعبِّر عن موقف جماعي مشترك، رغم ترحيب دول أخرى، مثل بلجيكا، بها، واعتبارها بداية جادّة، على طريق توحيد الموقف الأوروبي من أزمة "الشرق الأوسط".

السؤال الذي يطرح نفسه هنا؛ من الذي دعا "الجماعة الأوروبية" إلى تغيير موقفها حيال القضية الفلسطينية، بعد أن كانت منسية، تمامًا، من الأجندة السياسية للجماعة، حتى العام ١٩٦٧ ؟

يعود هذا الاهتمام إلى المنظمات المسلحة الفلسطينية، وهجماتها على الساحة الأوروبية، والتي ازدادت، منذ انطلاق الثورة الفلسطينية، وتأسيس منظمة التحرير، العام ١٩٦٤، بهدف إسماع الصوت الفلسطيني للعالم. ونكتفي هنا "بحادثة ميونخ"(١١) الشهيرة، في ألمانيا الاتحادية، ضد الفرقة الأوليمبية الإسرائيلية، العام ١٩٧٢، فالعمل الفدائي الفلسطيني كان جرس الصحوة لأوروبا الغربية، من الغفوة تجاه القضايا العربية(١٢) .

جاءت حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، لتفرض المعطيات الجديدة على "الجماعة الأوروبية"، حتى تُغيِّر بعض مواقفها من الصراع العربي- الإسرائيلي، بعد قرار وزراء البترول العرب، في ١٩٧٣/١٠/١٧، القاضي بفرض الحصار النفطي على الولايات المتحدة الأميركية، وهولندا، وتخفيض مستوى الإنتاج، بشكل عام، حتى يتم الانسحاب من الأراضي المحتلة، وتأمين الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، فشعرت "الجماعة الاوروبية" بخطر على مصالحها الاقتصادية، وأصدرت "بيان بروكسل"، في ١٩٧٣/١١/٦، الذي دعا إلى تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، للعام ١٩٦٧، وقرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨، للعام ١٩٧٣، وتم التأكيد على رفض الموقف الأوروبي لمبدأ احتلال الأرض بالقوّة(١٣) . ولأول مرة، تحدث هذا البيان عن حقوق مشروعة للفلسطينيين، واعتبارها أحد أهم الشروط التي يجب أن يستند إليها أي سلام.

تلت "بيان بروكسل" "وثيقة كوبنهاغن"، في ١٤/ ١٢/ ١٩٧٣،التي أضافت تعديلات على "وثيقة شومان"، حيث تم الاعتراف بالشعب الفلسطيني، وحقوقة. كما طالبت بمحادثات سلام، بضمانات دولية، فهذا الإعلان، وهذه الوثيقة، يؤكدان استعداد أوروبا للمشاركة في عملية السلام، واعترافها بالعملية الأساسية، التي تشكلها الضمانات الدولية، وهما الأمران اللذان كانت ترفضهما "إسرائيل"، دائمًا، لكن المبادرات الأوروبية ظلت حبيسة المواقف النظرية، التي تظهر، أحيانًا، وتخبو أحيانًا أخرى.

كان من نتائج حرب اكتوبر، أيضًا، "الحوار العربي – الأوروبي"(١٤). ومثَّل الطرف الأوروبي في الحوار "الجماعة الأوروبية"، أما الجانب العربي، فمثله "جامعة الدول العربية". وتعتبر دول "الجماعة الأوروبية" الشريك التجاري الأكبر للدول العربية، عند بداية الحوار، حيث مثلت صادرات دول الجماعة الأوروبية، إلى الوطن العربي، حوالي ١٣٪، في المقابل استوردت الجماعة ما يربو على ٧٠٪ من مجموع البترول العربي.

ركزت الجامعة العربية على العديد من المطالب، في هذا الحوار، من أهمها؛ اعتراف دول الجماعة الأوروبية، بمنظمة التحرير الفلسطينية، كممثل للشعب الفلسطيني، وهذا يؤدي، من وجهة النظر العربية، إلى اعتراف الجماعة الأوروبية بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، وقيامها بدور سياسى أكبر لاستقرار المنطقة(١٥).

شكَّل هذه الحوار ثلاث دوائر، منها الدائرة الاقتصادية، التي تمحورت حول البحث عن آلية للتعاون الاقتصادي، لإنهاء الحظر البترولى، عن أوروبا. والدائرة السياسية، والدائرة الثقافية والحضارية، حيث تباين مفهوما الجانب العربي، والجانب الأوروبي تجاه القضية الفلسطينية، حيث ركز الجانب العربي على محورية القضية الفلسطينية. مما أدى إلى عدم الوصول إلى نتائج ملموسة من هذا الحوار(١٦).

رأت الولايات المتحدة الأميركية، في هذا الحوار، بداية خروج أوروبى على السياسة الأميركية. وبدأت الولايات المتحدة تهدد أوروبا، بخروجها عن حمايتها من الخطر النووي السوفييتي، إذا ما أصرت على النهج الاستقلالي، بعلاقاتها بالصراع العربي - الإسرائيلى. فقد كان النهج الأوروبي، تجاه هذا الصراع، مرهون

بعدة قيود، من بينها؛ ضعف القوة العسكرية، والاقتصادية لأوروبا، في ذلك الوقت، بالإضافة إلى صعوبة التنسيق بين السياسات القومية المختلفة، لذا تعاملت الجماعة الأوروبية، في ذلك الوقت، مع الأزمة من منطلق السياسات القومية(١٧).

كانت قضية التمثيل الفلسطيني من أهم العقبات التي اعترضت الحوار العربي – الأوروبي. بالرغم من أن دول الجماعة الأوروبية قد بدأت تدرك حقوق الشعب الفلسطيني، فإنها لم تتفق حول من يمثل هذه الحقوق. حيث رفضت إشراك منظمة التحرير الفلسطينية، في الحوار العربي - الأوروبي، رغم اعتراف "الجامعة العربية " بـ " منظمة التحرير الفلسطينية"، كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني، وفي أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٤، ورغم اعتراف الجمعية العامة للأمم المتحدة بمنظمة التحريرالفلسطينية، في العام نفسه، وخطاب ياسر عرفات أمام الجمعية العامة، في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٤، ورغم تصويت فرنسا، وإيرلندا،وإيطاليا لصالح القرار، فإن الرفض الأوروبي لتمثيل المنظمة أدى إلى تأجيل المؤتمرالأول، إلى صيف ١٩٧٥ (١٨).

يرجع الرفض الأوروبي لإشراك المنظمة، إلى الموقف الأميركي من هذا الحوار. وقد حاولت الجماعة الأوروبية تجاوز هذ الخلاف، بطرح صيغة وسط، وهي عقد اجتماع عام، على مستوى الخبراء، بشرط ألا يقتصر دور هؤلاء على المسائل الفنية، أو التي تتعلق بالقطاعات الاقتصادية، ورأت فيه الجامعة العربية قبولًا بالتمثيل الفلسطيني، كطرف كامل للحوار. بينما رأت فيه الجماعة الأوروبية هروبًا من الاعتراف بـ "منظمة التحرير الفلسطينية". وفي المقابل، أكدت المنظمة تمسكها بحضور جلسات الحوار العربي- لأوروبي، حيث تولى إدارة "الصندوق القومي الفلسطيني، مهمة تمثيل المنظمة في اجتماع الخبراء، وأوفد ممثلين عنه للمشاركة(١٩). تأثر الحوار العربي – الأوروبي، سلبًا، باتفاقية "كامب ديفيد" والخلافات العربية – العربية، ونقل الجامعة العربية إلى تونس؛ في المقابل، أيدت الجماعة الأوروبية المفاوضات المصرية – الإسرائيلية في كامب ديفيد، وإن أكدت على أهمية الحل الشامل للصراع العربي- الإسرائيلي(٢٠).

سجَّل مؤتمر القمة لدول "الجماعة الأوروبية"، بلندن، في حزيران/ يونيو ١٩٧٧م، تطوّرًا هامًّا، عندما طالب البيان، في ٩ حزيران/ يونيو ١٩٧٧، ولأول مرّة، بضرورة قيام وطن للشعب الفلسطيني، دون أن تكون هناك أية إشارة لماهية هذا الوطن، وضرورة اشتراك ممثلين عن الشعب الفلسطيني، يتم تحديدهم من خلال التشاور بين الأطراف المعنية، وذلك دون الإشارة إلى "منظمة التحرير الفلسطينية"(٢١)، والاعتراف بأن قراريْ مجلس الأمن رقم ٣٣٨و٢٤٢ ليسا كافييْن لحل "مشكلة الشرق الأوسط"(٢٢).

لعل أهم سمات هذا الحوار أنه دار حول دبلوماسية المقايضة، أي مقايضة الموقف السياسي الأوروبي تجاه الصراع العربي-الإسرائيلي، بعلاقات اقتصادية مميزة مع الدول العربية، مقابل زيارات التعارف، والجولات الاستطلاعية الأوروبية، فالعلاقات السياسية بين العرب و"الجماعة الأوروبية"، سوف تبقى مرهونة بمدى

رضا الولايات المتحدة عن تلك العلاقة. ومن أهم إيجابيات هذا الحوار، على المستوى الأوروبي، أنه مهد لتفعيل الدور الأوروبي، بعد انتهاء الحرب الباردة، كما مهد لقيام علاقات متعددة بين أطرافه، التي ظهرت، فيما بعد، في العلاقات الأوروبية – المتوسطية؛ ليساهم في عملية بناء النظام المتوسطي، الذي يشكل تحديًا كبيرًا للنظام الشرق أوسطي(٢٣).

المبحث الثاني: تضارب المواقف:

ظل تضارب المواقف السياسية للجماعة الأوروبية، هو الحاكم، في علاقتها بالمنظمة، (١٩٧٩ - ١٩٨٩). فقد مثل مؤتمر الاشتراكية الدولية، الذي عقد، في فيينا، تموز/ يوليو ١٩٧٩، تطورًا في الموقف الأوروبي من القضية الفلسطينية، حيث قدم المستشار النمساوي، برونو كرايسكي، دعوة إلى ياسر عرفات، رئيس "منظمة التحرير الفلسطينية"، لإلقاء كلمة في المؤتمر. كما جاء "بيان البندقية" بسبب فشل مباحثات الحكم الذاتي في كامب ديفيد(٢٤).

لقد استمر التطور في الموقف الأوروبي، وصولاً إلى حزيران/ يونيو ١٩٨٠، وذلك من خلال صدور "بيان قمة البندقية" لدول الجماعة الأوروبية، في ١٣ حزيران/ يونيو ١٩٨٠م، وهو البيان الذي شكل منعطفًاً تاريخيًاً جديدًاً، وأحدث انتقالة موضوعية واضحة، في مسار السياسة الغربية الأوروبية الموحدة، تجاه قضية الصراع العربي- الإسرائيلي، وذلك حين أقرّت أوروبا بأن المشكلة الفلسطينية ليست مشكلة لاجئين، ودعت إلى حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وضرورة إشراك "منظمة التحرير الفلسطينية"، باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، في مباحثات السلام الخاصة بالمنطقة(٢٥).

قدمت "الجماعة الأوروبية"، في أعقاب "إعلان البندقية"، مساعدات للشعب الفلسطيني، ما بين العامين ١٩٨١ و ١٩٨٧، قُدِّرت بـ ٨,٩٨ مليون أيكوا(٢٦)، كما أقدمت الجماعة الأوروبية، العام ١٩٨٦، على زيادة استيراد البضائع الفلسطينية، الصادرة من الضفة الغربية وقطاع غزة، والذي بدوره شجَّع التجارة الخارجية، والتصدير، ودعم المنتج الفلسطيني(٢٧).

ظلت المواقف الأوروبية متأرجحة، مابين التأييد للحق العربي، والمطالبة بقيام وطن للشعب الفلسطيني، وبين التراجع عن المواقف الواضحة، كما حدث في الموقف الأوروبي من الصراع، بعد غزو إسرائيل للبنان؛ حيث دعت أوروبا إلى التوفيق بين "مبادرة ريغان"(٢٨) و"خطة الملك فهد"(٢٩)، وذلك حتى تتجنب إعلان مبادرة أوروبية، بعد الغزو، كما سجل "بيان دبلن"، العام ١٩٨٤م، تراجعًاً أوروبيًاً كبيرًاً تجاه الصراع، فقد اكتفى البيان بالدّعوة إلى إجراء مفاوضات مباشرة بين الأطراف المعنية، وإلى الاعتراف المتبادل بحق كلّ منهما في الوجود (إسرائيل، و"منظمة التحرير الفلسطينية"). وقد جاء هذا التراجع في الموقف الأوروبي، بعد انشقاق "فتح"،

و"منظمة التحرير"، واندلاع الاقتتال بين الطرفيْن الفلسطينييْن، على النحو المعروف، في طرابلس بشمال لبنان (١٩٨٣)، وهرولة القيادة الفلسطينية المتنفذة في اتجاه التسوية المستحيلة للصراع العربي الإسرائيلي.

عادت الحيوية إلى الدور الأوروبي، في ١٩٨٧/١١/٢٣، وعلى إثر افتضاح صفقة الأسلحة الأميركية لإيران (إيران غيت)، من خلال "بيان بروكسل" لوزراء خارجية المجموعة الأوروبية، حيث دعى البيان إلى عقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط، تحت إشراف الأمم المتحدة، وضرورة اشتراك كافة الأطراف المعنية في هذا المؤتمر(٣٠). وقد تأثر الموقف الأوروبي بالحوار الأميركي- الفلسطيني، حيث ألقى الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات خطابًا في المجموعة الاشتراكية، في البرلمان الأوروبي، ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨، وبدأ الحوار الرسمي بين منظمة التحرير الفلسطينية والولايات المتحدة، في تونس(١٤كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٨، كما خطب عرفات في الجمعية العامة للأمم المتحدة في جنيف(١٣كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٨)(٣١).

استمر تأييد "الجماعة الأوروبية" لمنظمة التحرير الفلسطينية، في بيان حزيران/ يونيو١٩٨٩، الذي أكّد، صراحة، على ضرورة اشتراك المنظمة في عملية السلام، في "الشرق الأوسط". وكان قد سبق هذا البيان مواقف شجاعة وإيجابية لبعض الدول الأوروبية، مثل فرنسا، واليونان، وإيطاليا؛ فقد قررت فرنسا، في ١٩٨٩/١/٦، رفع مستوى تمثيل "منظمة التحرير الفلسطينية" في باريس، من مكتب إلى مفوضية عامة، وكذلك فعلت إيطاليا، في ١٩٨٩/٥/٢. أمّا اليونان، فهي الدولة الوحيدة العضو في الجماعة الأوروبية، التي ترفض الاعتراف بإسرائيل؛ ما لم تنسحب من جميع الأراضي المحتلة، العام ١٩٦٧.

لابدّ من الإشارة إلى أنّ "منظمة التحرير الفلسطينية"، باعتبارها دولة كاملة العضوية في جامعة الدول العربية، قد شاركت في أول مؤتمر وزاري عربي – أوروبي شامل، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٩، وذلك بمبادرة من الرئيس الفرنسي، آنذاك، فرنسوا ميتران، لبدء حوار شامل "بين الدول الاثنتي عشر الأوروبية، في ذاك الوقت، والاثنتين والعشرين دولة، أو منظمة عربية". وعكست هذه المبادرة التفعيل الكبير للدور الأوروبي في عملية السلام(٣٢). وتلى ذلك رفض أوروبي، واسع النطاق، لدور المنظمة في حرب الخليج الثانية، حيث نتج عن تركيز وسائل الإعلام الغربية على دور منظمة التحرير الفلسطينية، المتعاطف مع غزو العراق للكويت، انعكاسات سلبية على الفلسطينيين، من قبل الحكومات العربية، والأوروبية، حيث طُرد الفلسطينيون من دول الخليج العربي(٣٣)، وتراجعت مساندة "الجماعة الأوروبية" لمنظمة التحرير الفلسطينية. وقد أدى ذلك إلى تراجع المنظمة عن موقفها المساند للعراق، وأعقب هذه الحرب البحث عن تسوية سياسية للصراع العربي – الإسرائيلي، التي بدأت بانعقاد مؤتمر مدريد للسلام، في تشرين الأول/ أكتوبر١٩٩١ (٣٤).

المبحث الثالث: من الاعتراف إلى التعاون

هي الفترة (١٩٩١- ١٩٩٧)، وتزامن مع هذه الفترة، التي بدأت بانتهاء الحرب الباردة، في العام ١٩٩١، ومعاهدة ماستريخت، في العام ١٩٩٢، بداية مختلفة لسياسة الاتحاد الأوروبي تجاه القضية الفلسطينية، حيث أصبح الاتحاد الأوروبي قوة اقتصادية كبيرة، وانعكست هذه القوة، أكثر فأكثر، على الحياة السياسية، حيث بدأت أوروبا تطالب بدورأكبر، على الساحة العالمية؛ سياسيًا واقتصاديًا، بهدف الوصول إلى القوى الدولية المناوئة للسياسة الأميركية، وإعادة التوازن إلى واقع العلاقات الدولية(٣٥).

عبَّر الاتحاد الأوروبي، آنذاك، عن استيائه من تهميش دوره في العملية السلمية، بالرغم من أنه المموِّل الرئيسي للسلطة الفلسطينية، والعملية السلمية، في ذلك الوقت، حيث أُعطيت المجموعة الأوروبية دورًا هامشيًا، للغاية في فعاليات المؤتمر، بل إنّ هذا الدور غاب، تمامًا، في المباحثات الثنائية، وأثبتت حضورًا في المفاوضات متعددة الأطراف(٣٦). وقد ضاعف الاتحاد الأوروبي، عقب إعلان المبادئ، في أوسلو، من مساعداته للسلطة الفلسطينية، من أجل التكيُّف مع مسؤوليات الحكم الذاتى المتزايدة، وإيجاد الظروف الملائمة، لإنجاح عملية السلام. ومن أجل ذلك، طلبت المفوضية الأوروبية من المجلس والبرلمان الأوروبيين، وضع خطة تعاون مع السلطة الفلسطينية، لتقديم المساعدات الاقتصادية لها، ولبناء الدولة الفلسطينية.والهدف من الخطة، وضع استراتيجية متوسطة المدى، لمساعدة الجانب الفلسطيني، بعد الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة(٣٧).

قدم الاتحاد الأوروبي نصف العون المقدم من المجتمع الدولى. الذي بلغ ما يزيد عن ٢ مليار يورو، في الفترة من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٨(٣٨). ومن الجدير بالذكر، في هذا المقام، أن الاتحاد الأوروبي يسهم بما يقرب من ٨٥٪، من المصاريف الدورية للسلطة الفلسطينية؛ بوزاراتها، ومؤسساتها المختلفة. وتلقت المؤسسات الأهلية في مناطق السلطة الفلسطينية ٨٪، والأونروا ١٠٪ من المساعدات (٣٩).

يتضح من ذلك، أن الدور الأوروبي غلب عليه طابع الدور الاقتصادي، على حساب الدور السياسي، والأمني. وقد حاول الاتحاد الأوروبي، من خلال هذه السياسة، أن يظهر قوة مؤثرة على التوازنات الدولية، ويضع سياسة خارجية، تعكس رؤيته للمشكلات الإقليمية، والدولية، ليتميَّز بهذا الجانب عن الدور الأميركي(٤٠). وحاول، من خلال هذه السياسة، تأسيس دور مستقبلي، له في الوطن العربي(٤١).

لقد جاء "إعلان برشلونة"، ١٩٩٥، والذي نادى ببناء فضاء أوروبي- متوسطي، ليعترف بالسلطة الفلسطينية شريكاً كاملاً، ومساوياً. وتم افتتاح مكتب المساعدة التقني للمفوضية الأوروبية في الضفة الغربية وقطاع غزة، "لإبقاء السلطة الفلسطينية على اطلاع بآخر التطورات في عملية برشلونة، بحيث يمكن سماع صوتها، بخصوص الشؤون الأوروبية - المتوسطية"(٤٢).. وفي إطار مشروع الشراكة الأورو- متوسطية، التي أطلقها "إعلان برشلونة"، العام ١٩٩٥، دخل الاتحاد الأوروبي مفاوضات مع "منظمة التحرير الفلسطينية"، بالإنابة،

مع السلطة الفلسطينية، لعقد اتفاقية مشاركة انتقالية، للتجارة والتعاون. بدأت المفاوضات، في كانون الثانى/ ديسمبر ١٩٩٦، وانتهت، في شباط / فبراير ١٩٩٧، مما يؤكد الرعاية والاهتمام الأوروبيين لتثبيت شرعية السلطة الفلسطينية، بعد أن فقدت "المنظمة" هويتها، وأدارت ظهرها للتحرير.

يمكن أن نطلق على السياسة الأوروبية، تجاه القضية الفلسطينية، ومنظمة التحرير الفلسطينية، دبلوماسية الصراع، أما ما بعد مدريد، فيمكن أن نسميها دبلوماسية التسوية، ثم تحولت إلى التسوية المتأزمة، وشتان ما بين الدبلوماسيتين؛ ففي الأولى اتسم الموقف الأوروبي بالإيحاءات، والوعود بالقيام بدور فعال، في فترة ما قبل مدريد. أما ما بعد مدريد، فإن الدور في دبلوماسية التسوية، يسهِّل هذا الدور، حيث كان، في الحالة الأولى، على أوروبا أن تُنشئ مشروعًا، يحارب الأقوياء؛ أما في الحالة الثانية؛ فالمطلوب من أوروبا، هو الحفاظ على مشروع صنعه الأقوياء، وانضم إليه الجميع(٤٣).

عجزت الجماعة الأوروبية عن تشكيل سياسة أوروبية موحَّدة عن السياسة الأميركية، تجاه الصراع العربي - الإسرائيلي، في بداية فترة الدراسة. كما اتسمت سياسات الدول الأوروبية بتضارب المواقف، في بعض الأحيان، تجاه بعض الأزمات، التي مرت بها القضية الفلسطينية، والمنظمة. ونجحت الجماعة أن تصل بسياستها تجاه المنظمة إلى الاستقلال النسبي عن السياسة الأميركية، حيث طرحت مشروعًا مناوئًا للشرق أوسطية، التي تطرحها الولايات المتحدة الأميركية، بقوة، على الوطن العربي، تحت مسمى "الشرق الأوسط الجديد"، في بداية التسعينات. و"الشرق الاوسط الكبير"، منذ العام ٢٠٠٣ وحتى الآن.

الهوامش

* هو مشروع اقتصادي، لإعادة تعمير أوروبا، بعد انتهاءالحرب العالمية الثانية، الذي وضعه الجنرال جورج مارشال، رئيس هيئة أركان الجيش الأميركي، أثناء الحرب العالمية الثانية، ووزير الخارجية الأميركي، منذ كانون الثاني/يناير١٩٤٧، والذي أعلنه بنفسه، في ٥ حزيران/يونيو ١٩٤٧، في خطاب أمام، جامعة هارفارد، كانت الهيئة التي أقامتها حكومات غرب أوروبا، للإشراف على إنفاق ١٢,٩٩٢٥ مليار دولار أميركي، قد سميت، " منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي". وقد ساهمت هذه الأموال في إعادة إعمار، وتشغيل الاقتصاد، والمصانع الأوروبية، وكان الباعث وراء قيام الولايات المتحدة الأميركية بهذا المشروع، خوفها من انتشار الشيوعية في أوروبا.

لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى: موقع الوكيبيديا 85%D8%B4%%http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9
84%85%D8%A7%D8%B1%D8%B4%D8%A7%D9%88%D8%B9_%D9%D8%B1%D9

١. لمزيد من التفاصيل؛ يمكن الرجوع إلى: عبد المنعم سعيد، الجماعة الأوروبية تجربة التكامل والوحدة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، حزيران/ يونيو ١٩٨٦، صفحات متفرقة. - أنس المرزوقي، مراحل بناء الاتحاد الأوروبي، الحوار المتمدن، العدد (٤٣٣٣)، ٢٠١٤/١/١٣، http://www.ahewar.org/debat/show.art. asp?aid=395593

٢. د. كمال رزيق؛ و بن مكلوف خالد ، فرص وتحديات التكامل الاقتصادي لدول المغرب العربي بين الواقع والأفاق ، في مؤتمر بعنوان " الوضع الاقتصادي العربي وخيارات المستقبل" المؤتمر العلمي الدولي التاسع لكلية الاقتصاد والعلوم الإدارية لجامعة الزرقاء (الأردن)، في الفترة من ٢-٢٤ نيسان/إبريل ٢٠١٣. ص ٤- ٦.

٣. أنظر: كمال محمد عبد القادر عثمان، موقف دول السوق الأوروبية المشتركة تجاه الصراع العربي – الاسرائيلي من عام ١٩٦٧– ١٩٨٧ : دراسة تاريخية، غزة، الجامعة الإسلامية ، كلية الأداب، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦. ص١٠-٣٣.

٤. منظمة سياسية شبه عسكرية، معترف بها من: الأمم المتحدة، والجامعة العربية، كممثل شرعى، وحيد للشعب الفلسطينى، داخل وخارج فلسطين. تأسست العام ١٩٦٤، بعد انعقاد المؤتمر العربى الفلسطينى الأول، في القدس، نتيجة لقرار مؤتمر القمة العربية، في العام ١٩٦٤، في (القاهرة)، لتمثيل الشعب الفلسطينى، في المحافل الدولية. و تضم المنظمة معظم الفصائل، والأحزاب الفلسطينية، تحت لوائها، ويعتبر رئيس اللجنة التنفيذية فيها رئيسًا الشعب الفلسطيني، في الأراضي التي تسيطر عليها السلطة الفلسطينية، في الضفة الغربية، وقطاع غزة .

٥. عدوان ١٩٥٦، الذي ترجع أسبابه إلى تأميم مصر لقناة السويس، ومساعدتها للثورة الجزائرية . إلا أن هذا العدوان قد أدى إلى ردود فعل عكسية، حيث اضطرت بريطانيا، وفرنسا، ومن ورائهما "إسرائيل"، للانسحاب من مصر، وقطاع غزة. واستمرت مصر في دورها، المساند للثورة الجزائرية، حتى الاستقلال.

٦. ماعدا فرنسا، التى أطلقت سياستها المسماة "السياسة العربية"، وفور فشل مشروعها المسمى بـ "مشاورات الأربعة الكبار"، إثر نكسة ١٩٦٧، فقد اتجهت الدبلوماسية الفرنسية نحو دول أوروبا الغربية، لتوحيد موقفها من الصراع في "الشرق الاوسط". لمزيد من التفاصيل عن دور فرنسا، في تلك الفترة ،يمكن الرجوع إلى : عبد العال الباقوري، فرنسا والعرب وإسرائيل وأمن البحر المتوسط، شؤون فلسطسنية، (بيروت) العدد (٤٣)، آذار/ مارس ١٩٧٥، ص٧٩،٨٠.

٧. لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع الى: عصام حمدان محمد بني فضل، دور الاتحاد الأوروبي في التنمية السياسية تجاه الأراضي الفلسطينية المحتلة (١٩٩١ – ٢٠٠٧)، نابلس، جامعة النجاح ، كلية الدراسات العليا، ٢٠٠٩، ص١٥.

٨. عثمان، مرجع سبق ذكره، ص٧٠.

٩. نسبة إلى موريس شومان، وزير خارجية فرنسا، في الفترة من ، ١٩٦٩- ١٩٧٤.

١٠. أنظر: هشام زهير طافش، موقف الاتحاد الأوروبي تجاه القضية الفلسطينية ١٩٩٣ – ٢٠٠٣، غزة، جامعة الازهر ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠١٠. ص١؛ - والباقورى، مرجع سبق ذكره، ٨١، ٨٢.

١١. هي عملية احتجاز رهائن إسرائيليين، حدثت أثناء دورة الاولمبياد الصيفية، المقامة في ميونخ، بألمانيا الغربية، من ٥ إلى ٦ أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٧٢، نفذتها منظمة "أيلول الأسود"، وكان مطلبها الإفراج عن ٢٣٦ معتقلاً، في السجون الإسرائيلية. معظمهم من العرب. انتهت العملية بمقتل ١١ رياضياً إسرائيلياً ، و٥ من منفذي العملية الفلسطينيين، وشرطي وطيار مروحية ألمانيين. وكان الباعث وراء القيام بهذه العملية الرد على عمليات الاغتيال، وعلى القصف الإسرائيلي المتزايد لقواعد الفدائيين، في لبنان، وللفت انتباه العالم للقضية الفلسطينية. لمزيد من التفاصيل، أنظر: A٩%AA%D٨%D٩%٨٤%D٩%٨٥%D٩%B٩%http://ar.wikipedia.org/wiki/%D٨ AE%D٨%٨٦%D٩%٨٨%AA%D٩%D٩%٨٥%D٩%_

١٢. عثمان، مرجع سبق ذكره، ص٧٦، ٧٧.

١٣. مالك حربا، سياسة الاتحاد الأوروبي تجاه القضية الفلسطينية ٢٠٠٠ – ٢٠٠٨، جامعة الدول العربية، معهد البحوث الدراسات العربية، رسالة ماجستير، ٢٠٠٩، ص١١.

١٤. لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى: د.أحمد صدقي الدجاني، الحوار العربي الأوروبي وجهة نظر عربية ووثائق، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٦، صفحات متفرقة.

١٥. عثمان، مرجع سبق ذكره، ص٨٨، ١٠١، ١٠٢.

١٦. طافش، مرجع سبق ذكره، ص٣٢.

١٧. لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى: حسين أبو النمل، على هامش الحوار العربى – الاوروبى، شؤون فلسطينية، (بيروت)، العدد (٤٨)، آب/أغسطس ١٩٧٥، ص٦١، ٦٢.

١٨. لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى ؛أحمد صدقى الدجاني، منظمة التحرير الفلسطينية والحوار العربى الأوروبي، شؤون فلسطينية، (بيروت)، العدد ٨٦، كانون الثانى/ يناير ١٩٧٩، ص١٢٨-١٣٠؛ ومحمد خالد الأزعر، الجماعة الأوروبية و القضية الفلسطينية، عمان، دار الجليل للنشر والدراسات الفلسطينية، ١٩٩١، ١٧٤-١٨٣؛ د. حامد عبد الله ربيع (اشراف)، المضمون السياسي للحوار العربي الأوروبي، ندوة علمية، عقدت في الفترة من ٢٨-٢٩ آيار/مايو ١٩٧٧، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، صفحات متفرقة.

١٩. عثمان، مرجع سبق ذكره، ص١٠٦، ١٠٨.

٢٠. د. أحمد البرصان، موقف الاتحاد الأوروبي من الصراع العربي - الإسرائيلي وتداعياته، ، في ٢٧-٩-٢٠١٤. www.mesc.com.jo/final%sim٢٠seminer/sim٠٥-٢٠١١=htm.

٢١. لمزيد من التفاصيل، أنظر: د. نصر عبد الكريم، العلاقات الأوروبية الفلسطينية: الدور الاقتصادى الأوروبي، في مؤتمر السياسة تحت عنوان "الخارجية الأوروبية تجاه القضية الفلسطينية"، بيروت، في ٣—٤ تشرين الثانى / نوفمبر ٢٠١٠ ص٨.

٢٢. حربا، مرجع سبق ذكره، ص١٢.

٢٣. أنظر: طافش، مرجع سبق ذكره، ص٣٣؛ ولمزيد من التفاصيل: عوض خليل، الصراع العربي-الإسرائيلي في إطار الحوار العربي-الأوروبي الخلفيات ..المسار..المستقبل، قبرص، شرق برس، ،سلسلة دفاتر عربية"، العدد(٩)، العام، صفحات متفرقة.

٢٤. البرصان، مرجع سبق ذكره.

٢٥. قسم الارشيف والمعلومات بمركز الزيتونة للدراسات والاستشارات (إعداد)، تقرير حول الموقف الأوروبي من مبادرات التسوية السلمية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧-٢٠١٢، بيروت، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات ، ٢٠١٢، ص١٠.

٢٦. هي العملة الأوروبية الموحدة، السابقة على اليورو ، عملة الاتحاد الأوروبي، الآن.

٢٧. وبعد اندلاع الانتفاضة الاولى (١٩٨٧)، حلت الجهات الأوروبية المانحة محل نظيراتها من العرب في تقديم المساعدات للشعب الفلسطينى. لمزيد من التفاصيل: عبد الكريم، مرجع سبق ذكره، ص ٤، ٨.

٢٨. هي المبادرة التي أعلنها الرئيس الأميركي ،آنذاك، رونالد ريغان، في ١٩٨٢/٩/١ ، عقب خروج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، في الفترة من ٢١-١٩٨٢/٨/٣٠. وكان أهم ما فيها هو؛ الدعوة إلى إقامة حكم ذاتي كامل

للفلسطينيين، في الضفة الغربية، وقطاع غزة، وتجميد إقامة المستوطنات الإسرائيلية، في الضفة والقطاع، طوال خمس سنوات، وأن يكون الحكم الذاتي مرتبطًا بالأردن؛ ليوفر أفضل فرصة لسلام دائم، وعادل، وثابت. كما تبقى مدينة القدس، غير مجزأة، إلا أن وضعها النهائي يجب أن يتقرر بالتفاوض. د. زكريا إبراهيم السنوار، مشروع ريغان (للسلام)، غزة، المركز الفلسطيني للإعلام، في ٢٠٠٩/٩/٦. https://www.palinfo.com/site/pic/newsdetails.aspx?itemid=٨٥٠٩٧

٢٩. اصدرها الملك فهد، في ١٩٨١/٩/١٥، من ثماني نقاط، تضمنت اعترافًا، ضمنيًا، بوجود اسرائيل، كما اعتمدت، بشكل كبير، على قرار مجلس الامن ٢٤٢، وإقامة دولة فلسطينية، عاصمتها القدس الشرقية. الجزيرة نت، بين فاس وبيروت مبادرتان سعوديتان للسلام، في ٢٠٠٢/٣/٢٥.

٣٠. حربا، مرجع سبق ذكره، ص١٢.

٣١. البرصان، مرجع سبق ذكره.

٣٢. حربا، مرجع سبق ذكره، ص١٢.

٣٣. عبد الكريم، مرجع سبق ذكره، ص٤.

٣٤. حربا، مرجع سبق ذكره، ص١٢

٣٥. طافش، مرجع سبق ذكره، ص٨

٣٦. حربا، مرجع سبق ذكره، ص١٢؛ الين جريش، خلفيات السياسة الاوروبية تجاة القضية الفلسطينية، مؤتمر "السياسة الاوروبية تجاة القضية الفلسطينية"، المنعقد في بيروت، مركز الزيتونة للدراسات والأبحاث، في الفترة من ٣-٢٠١٠/١١/٤، ص ٣، ٤.

٣٧. البرصان، مرجع سبق ذكره،

٣٨. طافش، مرجع سبق ذكره، ٦٠.

٣٩. عبد الكريم، مرجع سبق ذكره، ص٧.

٤٠. لمزيد من التفاصيل، عن دور أوروبى، أكثر استقلالية عن الموقف الأميركي، يمكن الرجوع إلى: د. كوثر عباس الربيعى، و م. مروان سالم العلي، مستقبل النظام العالمى الجديد في ظل بروز القوى الصاعدة وأثرة على المنطقة العربية –الاتحاد الاوربى أنموذجًاً- ، قضايا سياسية(بغداد)، كلية العلوم السياسية، جامعة النهرين، العدد ٢٦ لسنة ٢٠١٢، ص من ١٠-١٣.

٤١. طافش، مرجع سبق ذكره، ٦٠.

٤٢. حربا، مرجع سبق ذكره، ص١٣. و البرصان، مرجع سبق ذكره.

٤٣. طافش، مرجع سبق ذكره، ٦٢،٦٤.

مؤسسات المنظمة

رضوى عبد القادر

حرصت «منظمة التحرير الفلسطينية»، منذ إنشائها، على تكوين مؤسسات دولة، تأرجحت بين القوة والضعف؛ ونفوذ السلطة، والشفافية؛ والنفع، وعدم الجدية؛ ومجملاً، كانت تلك المؤسسات ما بين التنظيم الثوري، ودولة المؤسسات.

مرت المنظمة بمرحلتين رئيسيتين: أولاهما مرحلة التأسيس، منذ تولي أحمد الشقيري رئاسة المنظمة، وانتهت باستقالته، أواخر العام ١٩٦٧؛ وثانيهما مرحلة الفصائل الفدائية، وبدأت بانتخاب ياسر عرفات، رئيسًا للجنة التنفيذية للمنظمة (شباط /فبراير ١٩٦٩)، وامتدت حتى «اتفاق أوسلو»، ما أنهى الدور الفعلي للمنظمة (١).

تحكَّمت في م. ت. ف. سلطات رئيسية ثلاث: أولاها السلطة التشريعية، وشملت المجلس الوطني الفلسطيني، والمجلس المركزي؛ وثانيتها السلطة التنفيذية، وضمت اللجنة التنفيذية للمنظمة (بمثابة مجالس الوزراء في الدول)؛ وتحت سلطتها دوائر مختلفة (الوزارات في الدول)؛ وثالثتها السلطة القضائية، التي تكوَّنت مؤسساتها في سياق تشكُّل مختلف بُنى م. ت. ف.؛ وقد تأخر نموها عن سواها، من السلطات، حيث أن الفلسطينيين المقيمين في الدول العربية خضعوا للنظم القضائية، المطبَّقة في تلك الدول. واعتمدت آلية العملية السياسية في المنظمة على قاعدتين أساسيتين، هما: نظام تعددي، قام على قوى متعددة (فصائل المقاومة)؛ ولجنة تنفيذية إئتلافية (٢).

غني عن الذكر بأن المؤسستين (المجلس الوطني، واللجنة التنفيذية) متشابهتان، من حيث توزيع القوى، والأدوار؛ فاللجنة التنفيذية بمثابة «جماعة نيابية « للمجلس الوطني، الذي مثَّل «الهيئة البرلمانية «(٣).

المجلس الوطني

أقر المؤسسون المجتمعون في «المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول»، وثيقتين رئيسيتين: «الميثاق القومي الفلسطيني»؛ و»النظام الأساسي ل م.ت. ف.»، وهما بمثابة وثائق الدستور للمنظمة. ومن المبادىء الهامة، التي وضعتها الوثيقتان: التأكيد على مبادىء الديمقراطية؛ وتعدد الأحزاب؛ والمشاركة السياسية، من قِبل أوسع قطاعات ممكنة من المجتمع الفلسطيني؛والقيادة الجماعية، على أعلى مستويات المنظمة؛... الخ (٤). ونصَت المادة (٧ أ) من نظام المنظمة الأساسي، على أن المجلس الوطني (البرلمان في المنفى):» يشكّل أعلى سلطة في م. ت. ف.، ويمثّل الشعب الفلسطيني، داخل فلسطين المحتلة وخارجها، وقد ضمَّت عضوية المجلس ممثلين عن الفلسطينيين في مختلف مجالات الحياة. كما نصَّ النظام الأساسي،في مادته الخامسة، على أن «يتم انتخاب أعضاء (المجلس الوطني)، في انتخابات مباشرة، من قبل الشعب الفلسطيني. ومدة كل مجلس وطني هي ثلاث سنوات، يجتمع كل سنة، بناء على دعوة، أو طلب من رئيسه، ويستطيع الرئيس أن يدعو المجلس إلى عقد جلسة استثنائية،بناء على طلب من اللجنة التنفيذية، أو ربع أعضائه» (٥)، « ويكتمل النصاب القانوني، بحضور ثلثيْ أعضاء المجلس، ويتم اتخاذ القرارات بالأغلبية البسيطة « (٦). ولصعوبة إجراء انتخابات عامة، لاختيار أعضاء المجلس الوطني، فقد تم اللجوء إلى نظام الحصص (الكوتا). وقد أشار نائب رئيس المجلس الوطني، سليم الزعنون (أبو الأديب)، بأن هيكلة المجلس الوطني مستقرَّة،منذ العام ١٩٦٨، وهي أربعة أقسام، لكل منها نسبة ٢٥٪ وهي:الفصائل المقاتلة؛ الاتحادات الشعبية؛ المستقلون؛ ممثلو الجاليات الفلسطينية في الخارج. وأي تغيير في ذلك يتطلب أغلبية الثلثين في المجلس الوطني (٧).

فيما شكَّل «نظام الحصص»_الذي توزَّعت، بموجبه، المقاعد، والأموال_ الأساس الذي قام عليه الهيكل المؤسساتي. كما أنه كان السبب في نشوء خلافات،ومنازعات،ومزاحمات. وقد أفرز نظام «الكوتا» طرازًا خاصًا من المستقلين، هم، في الحقيقة، منتمين للفصائل والتنظيمات الشعبية؛ وهيمن الفصيل الأقوى (فتح) على المجلس، واستأثر بالسلطتين: التشريعية، والتنفيذية (٨).

انقسمت اللجان في «المجلس الوطني» إلى نوعين: لجان المناقشة؛ واللجان الدائمة المتخصصة. ولأن مواضيع المناقشة أصبحت ثابتة، فقد تكررت في كل دورة للمجلس، فتحوَّلت لجان المناقشة، بدورها،إلى لجان ثابتة؛ أما اللجان الدائمة المتخصِّصة، فلتصحيح النقص الخطير في الوضع البنيوي، حيث تُركت المسائل التي احتاجت إلى متابعة،ومناقشة مفتوحة، في الفترات بين الجلسات، حيث تقرر في الدورة ١٧ عمان، (تشرين الثاني/نوفمبر١٩٨٤) تشكيل تلك اللجان. التي لم تتمكن من عقد

اجتماعات لها،بعد العام ١٩٩٠،واستأثرت بأعمالها»هيئة مكتب المجلس» (٩).

تشكل»المجلس الوطني الأول» من الأعضاء الذين اختارهم الشقيري،وأجهزة الأمن في بعض الدول العربية، لعقد»المؤتمر الفلسطيني الأول». وفي عهد رئاسة الشقيري، عقد المجلس كل دوراته، دون أن يتم انتخاب أعضائه، بالاقتراع المباشر؛وظلت آلية الاقتراع تلك معطَّلة،في عهد رئاسة عرفات، الذي تمتع، هو والشقيري، بصلاحيات قانونية واسعة (١٠).

المجلس المركزي

اتخذ «المجلس الوطني الفلسطيني» قرارًا، في دورته الحادية عشرة (القاهرة،٦-١٩٧٣/١/١٢)، قضى بإقامة مجلس مركزي، من بين أعضاء (الوطني)، كهمزة وصل بين دورتيْ (الوطني)؛وذلك لمتابعة قرارات الأخير.وتم إعادة تشكيل «المركزي»، برئاسة رئيس المجلس الوطني، في دورته السادسة عشرة (خريف العام ١٩٨٤)، بمدة صلاحية، امتدت بين دورتين عاديتين؛ وتوسعت صلاحيته، فأصبح له حق: اتخاذ قرارات؛ ومتابعة تنفيذ «اللجنة» لقرارات «الوطني»؛ والاطلاع على حسن سير عمل دوائر المنظمة؛ وتقديم التوصيات اللازمة للجنة المذكورة. وأصبح للمجلس المركزي، بذلك،دور تشريعي ، وأكثر من استشاري (١١).

اللجنة التنفيذية (١٢)

نص «الميثاق» و «النظام الأساسي» للمنظمة، على ضرورة فصل الصلاحيات، بين سلطتيْ المنظمة: التشريعية، والتنفيذية، إلا أن الأمر لم يكن، دائمًا،كذلك. وقد انتُخب أعضاء «اللجنة التنفيذية»، في الدورة ال١٧ للمجلس الوطني، واستحوذ رئيسها على دور رئيس الجمهورية، و رئيس الوزراء،في آن؛ وهذا ما فعله كل من الشقيري، وعرفات. وطبقًا للنظام الأساسي، فإن «اللجنة التنفيذية « هي: «أعلى سلطة تنفيذية للمنظمة، تكون دائمة الانعقاد، وأعضاؤها متفرغون للعمل، وتتولى تنفيذ السياسة، والبرامج، والمخططات، التي يقررها المجلس الوطني، وتكون مسؤولة أمامه،مسؤولية تضامنية، وفردية «. وتمثلت اختصاصات اللجنة، أيضًا، في: تمثيل الشعب الفلسطيني؛ الإشراف على تشكيلات المنظمة ومؤسساتها؛ إصدار اللوائح،والتعليمات، والقرارات الخاصة؛ وتنفيذ السياسة المالية،وإعداد الميزانية. ونجحت «اللجنة التنفيذية» في إنشاء الدوائر، وافتتاح مكاتب للمنظمة في الدول العربية، وغيرها، وتأسيس مكتب دائم في الأمم المتحدة، وإنشاء محطة إذاعة بالقاهرة.... الخ.

قامت «اللجنة التنفيذية» بإنشاء دوائر أربعة للمنظمة، وهي: الدائرة التحريرية (العسكرية)؛

دائرة الشؤون السياسية و الإعلامية؛ دائرة الصندوق القومي الفلسطيني؛ دائرة الشؤون العامة والتوجيه القومي. فيما بلغ عدد الدوائر، التي شكّلتها المنظمة، عبر دورتها العشرين، ١٧دائرة، اختلفت في أسمائها،و وظائفها. وقد تعرَّضت المنظمة _ إثر حرب الخليج الثانية (١٩٩٠/١٩٩١) _ إلى ظروف مالية صعبة، اضطرت معها، العام ١٩٩٣، في إطار سياسة التقشف المالية،التي اتبعتها المنظمة، إلى «إغلاق ثلاثة من الدوائر التابعة للمنظمة «، وهي دوائر الإعلام؛ والثقافة؛ والشؤون الاجتماعية، دون أن تُلغي مناصب رؤسائها!

بعض دوائر اللجنة التنفيذية(١٣):

١- الدائرة السياسية (١٤): أدت مهام وزارة الشؤون الخارجية للمنظمة؛

٢- دائرة العلاقات القومية والدولية: استحدثتها الدورة الثالثة عشرة (آذار /مارس ١٩٧٧)؛ لتنظيم العلاقات بالمنظمات، و الأحزاب العربية القومية، والمنظمات العالمية غير الحكومية؛

٣- دائرة شؤون الوطن المحتل: اختصت بدراسة الأوضاع الاقتصادية، والاجتماعية، والنضالية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، ودعم التطور في تلك المجالات؛

٤- دائرة شؤون العائدين: استُحدثت، العام ١٩٨٧؛

٥- دائرة المنظمات الشعبية: تولت مسؤولية التنسيق بين المنظمة، ومختلف الاتحادات، والتنظيمات الشعبية الفلسطينية؛ وشيئًا فشيئًاخفت دورها.

٦- دائرة الشؤون الاجتماعية: اتخذت الدورة الثامنة للمجلس الوطني الفلسطيني، قرارًا، قضى بإنشاء»دائرة رعاية أسر الشهداء، والجرحى، والأسرى»؛

٧- دائرة التربية والتعليم: قرر المجلس الوطني، في دورته الثالثة عشرة، ربيع العام ١٩٧٧، تشكيل «المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم» _ من قبل «اللجنة التنفيذية» _ ومسؤولية هذه الدائرة هي صياغة السياسات،والمواد التربوية، في المدارس التي تديرها المنظمة؛ وإرشاد المؤسسات المسؤولة عن تنسيق السياسات التعليمية؛ وتوفير المنح الدراسية؛ وإقامة الجامعات المفتوحة، الموجَّهة؛ لتلبية احتياجات الشعب الفلسطيني، بيد؛ أن هذا المشروع لم يتحقق،بسبب عدة صعوبات؛

٨- الدائرة الاقتصادية (١٥): أُعيد تنظيمها، في العام ١٩٨٤، بعد الدورة ال ١٧ للوطني، وعُهد إليها بجهازين، كانا قائمين، من قبل: المكتب المركزي للإحصاء الفلسطيني، ومقره دمشق؛وجمعية معامل أبناء شهداء فلسطين «صامد» التابعة لفتح؛

أما أهم المصادر المالية للمنظمة،فتمثلت في تأسيس»الصندوق القومي الفلسطيني»، في أول اجتماع للمجلس الوطني؛ لتمويل كل أنشطة م.ت.ف.، وكان أول رئيس للصندوق، هو عبد المجيد شومان. وهناك أربعة مصادر لتمويل الصندوق (١٦): التبرعات؛ الضرائب على الفلسطينيين؛ الهبات من الحكومات المتعاطفة؛ دخل الصندوق من استثماراته. وفي أيلول/سبتمبر ١٩٨٢، بعد خروج المنظمة من بيروت، اجتمع ثلاثة من كبار أثرياء رجال الأعمال الفلسطينيين في العالم، بمقر «منظمة الرعاية الفلسطينية»، بجنيف، والثلاثة هم: رئيس شركة المقاولات المتحدة، ومقرها الرئيسي في أثينا، حسيب صبَّاغ، ومقاول عاش في لندن، منيب المصري، وشومان. وبمبلغ ابتدائي، قدره ثلاثين مليون دولار، أخذ الثلاثة،كأعضاء ومدراء، في حصر أهم مئة رجل أعمال فلسطيني ثري. ومثلها مثل «الصندوق القومي الفلسطيني»فإن «منظمة الرعاية الفلسطينية» (تأسست رسميًا، في ١٩٨٣/١٠/٢٢)، حصرت مهمتها،في: «حماية وتقويم طموحات الشعب الفلسطيني، وبخاصة في المجالات الاجتماعية، والثقافية، والإنسانية، والرعاية الصحية، والتعليمية «.

اعتُبر»الصندوق»، و»منظمة الرعاية «مصدريْن من مصادر قوة منظمة التحرير،وعرفات المالية، على أن أهم من هذا كله، ما سُمي بـ «الصندوق السري للرئيس»؛

٩- دائرة الشؤون الإدارية: عنيت بالأمور الإدارية المتعلقة بالمنظمة، والعاملين فيها؛

١٠- الدائرة العسكرية (١٧): قرر المجلس الوطني،في دورته الأولى، أن تقيم المنظمة قوة عسكرية ونظامية، باسم»جيش التحرير الفلسطيني*؛

١١- الصندوق القومي الفلسطيني (١٨): وفقًا للمادة (٢٤) من النظام الأساسي، تم إنشاء «صندوق قومي فلسطيني»، لتمويل نشاطات م.ت.ف.، أداره مجلس إدارة، عينَّت أعضاءه "اللجنة التنفيذية"، وأقره "المجلس الوطني".وتسلَّم الصندوق ك الإيرادات، لتمويل م.ت.ف.، طبقًا لميزانية سنوية، تُعدَّها «اللجنة التنفيذية»، وتقدمها إلى «المجلس الوطني «،للحصول على موافقته عليها. وعُهد إلى الصندوق،أيضًا،

بمهمة تطوير أموال المنظمة،والإشراف على إنفاقها، ومراقبة أجهزتها، على الصعيد المالي. وبلغت مدة مجلس الإدارة في الصندوق، ثلاث سنوات، قابلة للتجديد، بعد موافقة اللجنة التنفيذية، بينما انتخب « المجلس الوطني» رئيس مجلس الإدارة، منذ الدورة الأولى، من بين أعضاء «المجلس الوطني»، واعتُبر بهذه الصفة عضوًا «باللجنة التنفيذية».

خُصص ٩٠٪ من ميزانية المنظمة لـ «جيش التحرير الفلسطيني»، رغم تعرُّض موارد الصندوق للتذبذب،بسبب إخلال بعض الدول العربية بالتزاماتها المالية، كما أن دولًا عربية لم تسن

تشريعات،أو إقرارات إدارية، تُلزم الفلسطينيين لديها بأداء «ضريبة التحرير»، عوضًا عن غياب سياسة خلق موارد مالية ذاتية للمنظمة.

عاشت المنظمة حالة إسراف مالي، في السنوات السابقة على الدورة الحادية عشرة للمجلس الوطني (١٩٧٣)، حتى طالب أعضاء المجلس، في تلك الدورة، بوضع حد لذلك الإسراف، وأوصوا «اللجنة التنفيذية» بممارسة التقشف، وضبط النفقات، والابتعاد عن الأجواء البيروقراطية. كما تضخَّمت نفقات المنظمة، بتضخُّم حجم العمالة في مؤسساتها، ما دعا «المجلس الوطني»، في دورتيه ١٨،١٧ (عامي ١٩٨٤،١٩٨٧) إلى تأكيد ضرورة إعادة النظر في حجم العمالة، في المنظمة،بناءً على الاحتياجات الفعلية لمؤسساتها. عقب حرب

الخليج الثانية (١٩٩٠-١٩٩١)، واجهت المنظمة ظروفًا مالية صعبة، إذ انقطع دعم دول عربية، رفضت موقف قيادة المنظمة من الغزو العراقي للكويت؛ وزادت الظروف صعوبة، بانقطاع تبرعات، ومساهمات الفلسطينيين، الذين تركوا أعمالهم؛ بسبب الحرب. وقد اتخذت اللجنة التنفيذية إجراءات تقشُّف،لخفض الإنفاق، اعتبارًا من تشرين الأول /أكتوبر ١٩٩٠، فيما عانت المنظمة عجزًا ماليًا سنويًا، في الفترة من آب/أغسطس١٩٨٩، وحتى العام ١٩٩٣، بلغ مئة مليون دولار.

١٢- دائرة الإعلام والثقافة والإرشاد القومي (١٩): أقامتها المنظمة، في وقت مبكِّر (العام١٩٦٥)، حيث اعتبرت الإبداع والنشاط الثقافي، لأي شعب، هما الانعكاس الحقيقي لحضارته، وتفاعله مع تراثه. وعلى الصعيد الإعلامي، فإن للمنظمة مجلس إعلام، وظيفته الإشراف على الخطوط العامة للسياسات الإعلامية، التي قررت المنظمة اتباعها؛ وترأس هذه الهيئة،رئيس اللجنة التنفيذية، كما ترأس الهيئتين الرئيسيتين الأخريين للثقافة والسياسة؛ وهما مركز التخطيط (تأسس أوائل السبعينات، لتقديم دراسات إلى اللجنة التنفيذية،بناء على طلبها)؛ومركز الأبحاث،الذي تأسس، في بيروت، العام ١٩٦٥، واحتوى على مكتبة كبيرة جدًا، وأرشيفًا شاملًا، وأصدر مجلة شهرية فكرية باللغة العربية،هي «شؤون فلسطينية»، كما أصدر كتبًا أخرى، معظمها بالعربية. وقد تعرَّض مركز الأبحاث لاعتداءات بالقنابل،بدءًا من العام ١٩٦٩، واقتحمته قوات الاحتلال الإسرائيلية، مع دخولها بيروت الغربية (١٩٨٢/٩/١٥)، وتم نهب، ونقل محتويات المركز كاملة إلى إسرائيل. واشترطت م.ت.ف.، عند إجراء محادثات لتبادل أسرى الحرب مع إسرائيل، بواسطة الصليب الأحمر، العام ١٩٨٣، أن تُعيد إسرائيل محتويات المركز بالكامل، وتم استلامها مع الأسرى الفلسطينيين، وكانت هذه هي المرة الأولى التي اعتُبرت فيها مكتبات، وأرشيفات، بمثابة «أسرى حرب». وفي العام نفسه، أغلقت النيابة العسكرية اللبنانية مركز الأبحاث، وتوقف عن نشاطه من بيروت، واستؤنف العمل

بالمركز،من نيقوسيا،في قبرص،صيف ١٩٨٤. أما مكتبته وأرشيفه اللذين أعادهما الإسرائيليون، فقد تُركتا في الجزائر للتلف.

اتبع «مركز الأبحاث» الأسلوب العلمي، في عمله، ودراساته؛ كما حرص على التأكيد بأنه مؤسسة بحثية مستقلة، غير ناطقة باسم المنظمة؛ إلا أن المركز رسَّخ تقاليدًا للتعاون، والتنسيق مع أجهزة المنظمة؛ ومراكز الأبحاث المعنية بالقضية الفلسطينية.

مؤسسات أخرى

أما «إذاعة صوت فلسطين»، فافتُتحت،مطلع آذار/مارس ١٩٦٥، وبثَّت برامجها، من القاهرة، لمدة ٦ساعات، يوميًا، وقد مثَّلت الإذاعة رمزًا معنويًا، أكد به الشعب الفلسطيني هويته، وكيانه، كما أسهمت الإذاعة في تعبئة الفلسطينيين خلف م.ت.ف.، وأدت دورًا ملحوظًا في زيادة وعيهم بقضيتهم الوطنية؛فيما ألقت الإذاعة عبئًا ماليًا ثقيلًا على ميزانية المنظمة (٢٠).

هناك،أيضًا، «جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني»، التي تأسست في ١٩٦٨/١٢/٣١، وحملت رسالة إنسانية، عكست اهتمام الثورة الفلسطينية بالبعد الإنساني للشعب الفلسطيني. وقد طوَّرت الجمعية شبكة من المؤسسات، لتأمين العناية،والخدمات الطبية للشعب الفلسطيني. المدنيين والمقاتلين منه، على حد سواء. وتأثرت «جمعية الهلال الأحمر»،بالمناخ، العسكري والسياسي العام، الذي عاشته المنظمة، لكون مؤسسات الأولى مكشوفة، وملموسة؛ ففي حالات كثيرة، ثم إغلاق مراكز «الهلال الأحمر»، أو نهبها؛ أو حرقها؛ فضلًا عن تعرُّض العاملين في «الهلال» للاعتداءات، والاعتقالات،والقتل،وهم الذين بذلوا جهدهم لإنقاذ أرواح الجرحى، كما في حصار بيروت، ومجازر مخيميْ صبرا وشاتيلا،خريف العام ١٩٨٢. فيما وفرت الجمعية، بجانب العناية الطبية، الضمان الإجتماعي، للمساعدة على معالجة العواقب النفسية، والشعور بالعزلة، والاغتراب، التي قد تُصيب شخصًا حديث الإعاقة. وعلى الصعيد السياسي، قامت الجمعية، لدى تأسيسها، بتوقيع اتفاقية «الصليب الأحمر الدولي «؛ والاتفاقات الدولية، بالنيابة عن م.ت.ف.، وتمتَّعت الجمعية بصفة عضو مراقب من «اللجنة الدولية للصليب الأحمر» و «الرابطة الدولية، لجمعيات الصليب الأحمر، والهلال الأحمر»، إضافة إلى تمثيلها المنظمة في «منظمة الصحة العالمية»؛ و»جمعية الصحة العالمية «، وفي جميع المؤسسات، والمؤتمرات الدولية، والإقليمية الأُخرى، المتعلقة بمهامها. فيما عانت الجمعية، وأنشطتها، من الأوضاع غير المستقرة،أمنيًا وسياسيًا؛ ونقص الكادر المتخصص؛ وعدم وجود إحصاءات سكنية؛ ونقص

الأجهزة، الطبية الحديثة، والاعتمادات المالية (٢١).

في ٦ آيار /مايو ١٩٧٠، أصدرت «القيادة الموحدة لحركة المقاومة الفلسطينية» بيانًا،دعت فيه إلى تشكيل «لجنة مركزية»،بقرار المجلس الوطني،على أن تُشكَّل من اللجنه التنفيذية للمنظمة، وممثلين من كافة المنظمات الفدائية،ورئيس المجلس الوطني، وقائد جيش التحرير الفلسطيني، وبعض المستقلين. وأُنشئت «اللجنة المركزية»، لتمارس فيها جميع الفصائل دورها القيادي، ولتحل محل «القيادة الوطنية الموحَّدة للمقاومة «، كما قرر المجلس الوطني أن تنفذ «اللجنة التنفيذية»قرارات «اللجنة المركزية «، المسؤولة عن تقديم تقريرعن أعمالها للمجلس الوطني، في دوراته. وفي دورته التاسعة (تموز/يوليو ١٩٧١)، حلَّت «اللجنة التنفيذية « محل «المركزية»، بجميع مسؤولياتها، وصلاحياتها، وقامت الأولى بإلغاء الثانية، وعادت إلى ممارسة المسؤوليات،والصلاحيات، المنوطة بها،كلجنة تنفيذية (٢٢).

أما «المجلس المركزي»،فلا يُعتبر تطويرًا « للجنة المركزية»، باعتبار الأول أقرب ما يكون إلى « مجلس تشريعي»،بينما الثانية «جهاز للسلطة التنفيذية» (٢٣).

السلطة القضائية (٢٤)

بالرغم من خصوصية الأوضاع الفلسطينية، فإن م..ت. ف. بدأت نظامها القضائي،مبكرًا، في العام ١٩٦٨، بإقامتها «محكمة الثورة العليا»،وتم تشكيل محكمة خاصة لجيش التحرير، عقب الخروج من الأردن،صيف العام ١٩٧١؛ كما شكَّلت «فتح» جهازًا خاصًا بها للقضاء الثوري، في نيسان /إبريل ١٩٧٣؛ وتم إدخال عدة تعديلات عليه،بعد ذلك. كما أصدر عرفات، أول آيار / مايو ١٩٨٠، قرارًا بإنشاء جهاز للقضاء الفلسطيني، سُمي «هيئة القضاء الفلسطيني». وقد تأخر إضفاء الصفة الرسمية على النظام القضائي، حتى أواخر السبعينات. وفي ١٩٧٩/٧/١١، وقّع عرفات على مرسوم، أقر بموجبه أربعة قوانين، بينما تأثرت عملية تنظيم هذه القوانين، بفعل جملة من الظروف.

استحدثت المنظمة، خلال مرحلة بيروت (السبعينات)، «اجتماعات الأمناء العاملين» للفصائل؛ وحل محلها،في الثمانينات، «اجتماع القيادة الفلسطينية»، وهو مستوى غير رسمي، وتخلو وثائق المنظمة من النصِّ عليه، لذا فهو غير مخوَّل باتخاذ قرارات في أي شأن، وهو يجمع كل أعضاء مركزية «فتح»، وكل أعضاء تنفيذية «المنظمة»، وجميع الأمناء العامين لنحو ١٥ فصيلًا، على صغر حجم بعضها فضلًا عن عدد لا بأس به من الشخصيات المستقلة.

الهوامش

(١)محمود عبده،المؤسسات المدنية لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٤-١٩٩٣،شؤون فلسطينية (رام الله)،العدد ٢٥٨،خريف٢٠١٤،ص١٠٣.

(٢) للمزيد،أنظر:

_د.سامي مسلَّم، البنية التحتية والهيكل المؤسساتي لمنظمة التحرير الفلسطينية،شؤون فلسطينية(نيقوسيا)، العدد١٦٦-١٦٧، كانون الثاني/شباط(يناير/فبراير١٩٨٧)، ص١٨؛

_د.عصام الدين فرج،منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٤-١٩٩٣،ط١، القاهرة،مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر،يناير ١٩٩٨،ص٦٣.

(٣)المرجع نفسه،ص٩٥.

(٤) للمزيد، انظر:

- مسلَّم، مرجع سبق ذكره،ص١٨-٢٠.

٥) المرجع نفسه،ص٢١-٢٣.

(٦)تشربل رونبيرغ، منظمة التحرير الفلسطينية، المؤسسات المدنية، ط١،عمان، دار الكرمل للدراسات والنشر والتوزيع، سلسلة»صامد الاقتصادي»(٥)،١٩٨٥، ص١٤-١٥.

(٧)للمزيد،انظر:

_محمد خالد الأزعر،التعددية السياسية: نحو البعد الديموقراطي:مجلة الدراسات الفلسطينية (بيروت)،عدد ٢٠خريف ١٩٩٤،ص٢٨؛

_ خالد الحروب أحمد رمضان، "القناعات الداخلية ومنطق السياسة"،فلسطين المسلمة (لندن)،تشرين الأول/ أكتوبر١٩٩١،ص٨-١١.

(٨)للمزيد،انظر:

_فرج،مرجع سبق ذكره،ص٦٨-٦٩؛

_موسى البديري، الديموقراطية وتجربة التحرر الوطني،الحالة الفلسطينية، في برهان غليون وآخرين،حول الخيار الديموقراطي،دراسات نقدية، بيروت،مركز دراسات الوحدة العربية، حزيران/يونيو١٩٩٤،ص٢١٩،٢١٤-٢٢٠؛

رغيد الصلح، "الحلو والمر في التجربة السياسية الفلسطينية"،الحياة (لندن)،١٩٩٤/٣/١؛

_زكريا محمد، الانتفاضة والإصلاح التنظيمي في م.ت.ف.،الفكر الديموقراطي(نيقوسيا)،العدد٥، شتاء ١٩٨٩،ص٢٤-٢٥؛

_السيد عوض محمدعثمان، دور منظمة التحرير الفلسطينية في تنمية الشعب الفلسطيني، رسالة دكتوراة غير منشورة،القاهرة،كلية الاقتصاد والعلوم السياسية،١٩٩٣،ص٨١٧.

(٩)للمزيد، انظر:

_مسلَّم،مرجع سبق ذكره، ص٢٣-٢٥؛

_ فرج،مرجع سبق ذكره،ص٧٠،أيضًا،مقابلة فرج مع محمد صبيح،أمين سر المجلس الوطني الفلسطيني ص٧١.

(١٠) للمزيد، انظر:

_أسعد عبد الرحمن(مشرفًا)،منظمة التحرير الفلسطينية، جذورها،تأسيسها،مساراتها،نيقوسيا،منظمة التحرير الفلسطينية،مركز الأبحاث،١٩٨٧،ص٩٠-٩١؛

_ الموسوعة الفلسطينية،ط١،القسم الثاني،المجلد الخامس، بيروت، ١٩٩٠(انظر: أسعد عبد الرحمن،النضال الوطني الفلسطيني في إطار منظمة التحرير،ص١٨٥)؛

_محمد كريشان، منظمة التحرير الفلسطينية، التاريخ والهياكل،الفصائل والأيديولوجيا،بيروت، دار البراق،١٩٨٦، ص٢٤-٣٤.

١١)للمزيد، انظر:

_ مسلَّم، مرجع سبق ذكره، ص٢٦-٢٨؛

_فرج، مرجع سبق ذكره، ص٨٧-٨٩؛

_عثمان، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٢-١٥٣؛

_الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الرابع، دمشق، ١٩٨٤،ص٣٢٢.

(١٢) للمزيد، انظر:

_ المرجع نفسه، ص ٣١٥؛

_ مسلَّم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨-٣١؛

_فرج، مرجع سبق ذكره، ص٩١-٩٨.

(١٣) للمزيد عن الدوائر، انظر:

_ المرجع نفسه، ص ٩٨-١١٩؛

_عثمان، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٩-٦٠٨،٢٠٢-٦٥٨،٦١٠-٦٥٩؛

_مسلَّم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥-٤١،٣٦-٤٧.

(١٤) للمزيد، انظر:

_ المرجع نفسه،ص ٣٥؛

_محمد خالد الأزعر، السياسة الفلسطينية والاهتمام الدولي بالقضية الفلسطينية في المجتمع الدولي والقضية الفلسطينية، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٣،ص١٢٩-٣٠.

(١٥)للمزيد، انظر:

_مسلَّم،مرجع سبق ذكره، ص٤٦-٤٧؛

_خطاب ياسر عرفات الافتتاحي في مؤتمر صامد الثالث، صامد الاقتصادي (عمان)، العدد ٥٧،تشرين الأول /أكتوبر-تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥،ص٥.

(١٦)للمزيديمكن العودة إلى:

_نبيل.س. لفنجستون؛دافيد هاليفي،القصة الحقيقية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ط١،مراجعة وتقديم أحمد رائف، القاهرة،الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٢،ص١٧٩-٢٠٠،١٨٨-٢١٥.

(١٧) للمزيد، ننصح بالعودة إلى:

_راشد حميد،مقررات المجلس الوطني الفلسطيني ١٩٦٤-١٩٧٤، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث،

١٩٧٥،ص١٢٦،١٢١،٥٣؛

_ مسلَّم، مرجع سبق ذكره،ص٣٣-٣٤؛

_فرج، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٥-١٠٦؛

_الموسوعة...، مرجع سبق ذكره،ص ٣٢٥؛

_بهجت قرني؛وعلي الدين هلال، السياسات الخارجية للدول العربية،ترجمة جابر سعيد عوض، القاهرة مركز البحوث والدراسات السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٩٤(انظر: محمد السيد سليم، السياسة الخارجية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ص ٤٣٢).

(١٨) للمزيد:

_مسلَّم،مرجع سبق ذكره، ص٣١-٣٣؛

_فرج، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٦ -١٠٩، ١١٤،١١٦؛

_عبد الرحمن، منظمة التحرير...، مرجع سبق ذكره، ص٣٣، ٨٥،٨٨؛

_حميد، مرجع سبق ذكره، ص ٦٤؛

_رونبيرغ،مرجع سبق ذكره، ص٢٢؛

_عبده،مرجع سبق ذكره،ص١١٢-١١٣.

(١٩) للمزيد، انظر:

_مسلَّم، مرجع سبق ذكره، ص٤٤-٤٥؛

_فرج، مرجع سبق ذكره، ص ١١٨-١١٩؛

_ الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الأول، دمشق، ١٩٨٤،ص٤٢؛

_النهب الإسرائيلي لمركز الأبحاث: إبادة الجنس وإبادة الذاكرة، شؤون فلسطينية (بيروت)،الأعداد ١٢٩-١٣١، آب(أغسطس)-تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٢،ص٣٩؛

_ بعد النهب والتدمير والوقف القسري هذا العدد من شؤون فلسطينية،شؤون فلسطينية (نيقوسيا)، العدد ١٣٨-١٣٩،أيلول (سبتمبر) _ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٤،ص ٦؛

_ أنيس صايغ، مركز الأبحاث: عشرة أعوام من التجربة،شؤون فلسطينية (بيروت)،العدد ٤١-٤٢،شباط /فبراير ١٩٧٥، ص ١٨٧.

(٢٠) للمزيد:

_عبده، مرجع سبق ذكره، ص١٠٧-١٠٨؛

_عبد الرحمن، منظمة...،مرجع سبق ذكره،ص٨٨.

(٢١)للمزيد، انظر:

_ مسلَّم، مرجع سبق ذكره، ص٣٦-٤١؛

_فرج، مرجع سبق ذكره، ص ١١٨؛

_حميد، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٦-١٤٧؛

_عبد العزيز اللبدي، الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني ١٩٢٢_١٩٨٢،عمان، دار الكرمل، ١٩٨٦،ص

١٠٧-١٤٦؛

_عثمان، مرجع سبق ذكره، ص٤٠٧.

(٢٢) للمزيد، يمكن الرجوع إلى:

_ فرج، مرجع سبق ذكره، ص٩٠-٩١؛

_غازي خورشيد، دليل حركة المقاومة الفلسطينية، سلسلة «كتب فلسطينية» (٣٢)،بيروت،منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧١، ص٣٣؛

_الموسوعة الفلسطينية،المجلد الرابع، مرجع سبق ذكره، ص٣٢٠.

(٢٣)عثمان، مرجع سبق ذكره،ص١٦٤-١٦٥.

(٢٤)للمزيد:

_المرجع نفسه، ص٢٠٨-٢١١؛

_مسلَّم، مرجع سبق ذكره، ص٣٠-٣١،٥١-٥٣؛

_فرج،مرجع سبق ذكره، ص١١٧-١٢٠

الاتحاد العام لطلبة فلسطين درع م.ت.ف، فرع مصر نموذجاً للتأسيس، (١ من ٢)

أ.حسام أبو النصر

تأسست في عام ١٩٤٤ رابطة الطلبة الفلسطينيين بلبنة أولى ضمت ١٥٠٠ طالبا، إلا أن نشاطها اقتصر في بادئ الأمر على النواحي الثقافية والاجتماعية والرياضية، دون أن تبرز بشكل رسمي، خاصة وأنها كانت تتعرض لمضايقات إبان العهد الملكي في مصر، وكانت الرابطة في الجامعات المصرية وجامعة القاهرة على وجه الخصوص من أبرز هذه الروابط وأقدمها وأنشطها.

بعد وقوع النكبة ١٩٤٨ شهدت الحركة الطلابية الفلسطينية تطورات متسارعة، نظراً لوجود عدد كبير من الطلاب في القاهرة، وكانت الانطلاقة الأولى بإتجاه تنظيم قوى الشعب، فبدأت الأطر الطلابية تسعى إلى خلق أشكال نضالية طلابية موحدة ومنظمة، حيث تشكلت بشكل رسمي في القاهرة رابطة الطلبة الفلسطينيين في جامعة الملك فؤاد (القاهرة حالياً) التي كانت تقوم بالتعريف بظروف الشعب الفلسطيني والمخاطر التي تهدد الأمة، وأوجدت مكاناً يتجمع فيه الطلبة لممارسة النشاطات الثقافية١والاجتماعية، وشملت عضوية الرابطة لاحقاً طلبة الأزهر، وكان الطالب موسى أبو غوش من أوائل من ترأس الرابطة التي أصدرت مجلة (صوت فلسطين) وكان يحررها عبد المحسن ابو ميزر٢، نادرة السراج، وعبد المجيد التايه(رئيس اللجنة الاعلامية في الرابطة) وعيسى يوسف، وصهباء البربري، كما لعب فتحي البلعاوي٣ زعيم الطلبة الأزهريين دوراً بارزاً في الحركة الطلابية حيث شغل موقع سكرتير الرابطة لأربع دورات متتالية وكان محور ارتكازها، ومعه كل من سليمان أبو ستة، عصام الناظر(شيوعي)، موسى ابو غوش، عبد الفتاح حمود وياسرعرفات، وقد تناوبوا جميعاً على رئاسة الرابطة، يذكر من الأسماء المؤسسة خاصة في القاهرة: هاني بسيسو، سليم الزعنون، ماجد المزيني، كمال عدوان، زهير العلمي، سعيد المسحال، صلاح

خلف، محمد الحصري، فيما كان فيصل الحسيني٤ ضمن اتحاد الطلبة الثانويين في القاهرة عن حركة القومين العرب، حيث تعرف على أبو عمار هناك، قبل أن يغادر لبغداد، ومعهم أيضاً صلاح خلف، وفاروق قدومي (ابو اللطف) وسليم الزعنون (أبو الأديب) وعبد الكريم العكلوك (أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٥٦، ثم غادر إلى جامعة عين شمس وتخرج منها عام ١٩٦٢ في علم الاجتماع، نشط منذ بداياته في اتحاد طلبة فلسطين في القاهرة) وزهير الخطيب، وناهض الريس (غادر إلى القاهرة لإتمام دراسته الجامعية والتحق بكلية الحقوق وكان من مؤسسي الاتحاد العام لطلبة فلسطين في القاهرة عام ١٩٥٨)، ولمعي القمبرجي (ترأس الفرع لفترة)، الذين اصبحوا فيما بعد قيادات في حركة فتح.

في ذلك الوقت كان علي شعث يتحمل مسؤولية رعاية الفلسطينيين في الإسكندرية منذ بداية تدفق اللاجئين من البحر على ميناء الإسكندرية عام ١٩٤٨، ولكنه كان مستعداً دائماً لمساعدة الطلاب الفلسطينيين في كل مكان فهو لم ينس أبداً أنه قضى الجزء الأكبر من حياته معلماً ومديراً لأهم مدارس فلسطين.

وفي عام ١٩٥٢ تسلمت الرابطة عناصر ثورية وانتخب ياسر عرفات فيما بعد رئيساً لها (وظل كذلك حتى تخرجه عام ١٩٥٦)، حيث تسلمت هذه العناصر التوجه من خارج اطار الأحزاب والمنظمات القومية، وكان أبرز قياداتها عرفات وخلف اللذين شكلا مع آخرين أول منظمة سياسية فلسطينية مارست فيما بعد الكفاح المسلح وهي حركة فتح.

لم يكن النشاط الطلابي الفلسطيني عملاً نقابياً صرفاً، بل كان إلى جانب ذلك يشكل إطاراً للعمل السياسي الذي يتعدى النطاق الطلابي ليصل إلى جموع الفلسطينيين، بمعنى أن العمل الطلابي لم ينحصر في مساعدة الطلبة وتأمين شروط أفضل في شؤونهم التعليمية فحسب، بل كان يعمل على تنظيم الطلاب وتوعيتهم وتجنيدهم في العمل الوطني، ومد هذا النشاط إلى أوساط الفلسطينيين في أماكن تجمعاتهم منطلقين من ايمانهم أنهم في ذلك يسيرون على الطريق الصحيح المؤدي إلى التحرير والعودة، ويبدو هذا جلياً إذا نظرنا إلى الأهداف التي أعلنتها الحركة الطلابية وهي تحدد عملها وغاياتها وسبل تحقيقها، ففي القانون الأساسي «لرابطة الطلاب العرب الفلسطينيين» في دمشق، نجد أغراض الجمعية محددة كما يلي: «رفع المستوى الثقافي لعرب فلسطين، والاهتمام بأعضاء الرابطة من الناحية الاجتماعية والمساهمة بالأعمال الخيرية، والسعي لتوفير سبل العلم للطالب الفلسطيني ودراسة مشاكل الطلبة الفلسطينيين والمساهمة في حلها، وتنمية الوعي لدى النازحين والاتصال بهم ورفع روحهم المعنوية وتنمية وعي شعبنا لقضية فلسطين وشرحها بشكل قومي صحيح، والاشتراك بالمؤتمرات الطلابية العالمية وشرح قضية فلسطين للرأي العام العالمي، وإعداد الشباب العربي الفلسطيني لمعركة العودة.

في تلك الفترة اتصل الطلاب الفلسطينيون من جامعات القاهرة بـ علي شعث يطلبون دعمه للرابطة في

القاهرة وتوفير منح دراسية لهم وتقديم الدعم المالي للطلاب المحتاجين منهم، ثم أرسلوا وفداً لمقابلته في الإسكندرية في مكتبه بالبنك العربي، كان الوفد برئاسة عرفات وعضوية فاروق قدومي وصلاح خلف، واستقبلهم شعث ورحب بهم واستجاب لما طلبوه من مساعدات، وقد زاروا منزل علي شعث وهناك تعرف نبيل شعث على عرفات أول مرة، وقد شعر نبيل وقتها أن شخصيته تعبر عن رئيس للفلسطينيين وليس لرابطة الطلبة، المهم أن شعث قدم معونات مالية للطلاب الفلسطينيين في مصر كما ساهم في تمويل الرابطة ونشاطها، وشكل ناد للجالية الفلسطينية في الإسكندرية تولى من خلاله رعاية الطلبة، وكانت الجالية الفلسطينية في الاسكندرية مكونة من الطلاب الجامعيين الذين يعيشون فيها أثناء العام الدراسي، ويغادرونها إلى غزة أو الضفة الغربية أو اقطار الشتات في الصيف، وكانت أعدادهم تتزايد سنوياً ويرجع السبب في ذلك إلى زيادة عدد المقاعد المخصصة للفلسطينيين في الجامعات المصرية ومن بينها جامعة الإسكندرية بعد الثورة، كانت اعدادهم تزيد عن الثلاثين ألفاً في معاهد مصر وجامعاتها بعد سنوات النكبة والتهجير، وشعر أقطاب الجالية من التجار ورجال الأعمال وكبار الموظفين ان عليهم مسؤولية رعاية هؤلاء الطلاب حتى يتخرجوا ويعودوا إلى بلادهم، إضافة إلى مسؤوليتهم تجاه الفقراء الفلسطينيين في الإسكندرية.

تحسنت أوضاع الفلسطينيين في مصر بعد انطلاق ثورة يوليو ١٩٥٢، حيث شارك عدد من الطلبة الفلسطينيين في احتفالات انتصار ثورة ٢٣ يوليو، منهم الشهيد عبد القادر محمد أحمد أبو ريا*٥ خلال المرحلة الثانوية، وذلك خلال العرض العسكري الذي أقيم في مدينة الإسكندرية كطلاب الفتوة، والتقى وفد الطلبة الفلسطينيين برئاسة عرفات قائد الثورة محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر بعد الثورة، وسلموه رسالة مكتوبة بالدم «لا تنسوا فلسطين»، ومعه أعضاء هيئة الرابطة، حيث كان عرفات قد تعرف على القادة الثوريين المصريين كمال الدين حسين وخالد محي الدين وعبد الحكيم عامر ومجدي حسنين وعبد المنعم عبد الرؤوف، في مؤتمر طلابي كبير عقد في جامعة الملك فؤاد في ايار مايو ١٩٥١ وهم من الضباط الأحرار، وفي هذا المؤتمر القى عرفات كلمة، بعد أن اقنع منظمي المؤتمر بإدراج كلمة باسم فلسطين ضمن جدول الأعمال، وفيها قال «أيها الزملاء لا وقت للكلام ولندع الرصاص يتكلم»، إلا ان هذه العلاقات لم تمنع قادة ثورة ٢٣ يوليو من اعتقاله في سنة ١٩٥٤ بعد حادثة المنشية التي أطلق فيها الرصاص على جمال عبد الناصر الذي تدفق في عهده الطلبة الفلسطينيون إلى مختلف الجامعات المصرية وتمت مساواتهم بإخوانهم المصريين، من حيث معادلات المجموع للقبول في الكليات المختلفة والاعفاء من الرسوم، وهذا أدى إلى صحوة ثقافية وسياسية بين أوساط الشباب الفلسطيني، واندفاع خريجي الجامعات الفلسطينيين إلى التوجه نحو دول الخليج العربي للعمل ما انعكس ايجابا على أوضاع الأسر الفلسطينية.

منذ العام ١٩٥٢ توسعت قاعدة رابطة القاهرة لتشمل أعداداً كبيرة من الجامعيين الفلسطينيين، وأخذت دورها في طرح القضية الفلسطينية والمشكلات الطلابية محلياً وعربياً وعالمياً، وحصلت على اعتراف

الجامعة العربية بها، كل ذلك بعد تولي ياسر عرفات رئاسة الرابطة، ومع تراجع دور الهيئة العربية العليا في خمسينات القرن العشرين ظهرت الرابطة كممثل حقيقي للكيانية الفلسطينية ونهضت بالعبء القومي، حيث حثت أعضاءها على تلقي الدورات العسكرية والقيام بأعمال فدائية مستفيدة من مناخ التعبئة المصرية أثناء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦.

ويذكر هنا أن زهير العلمي٦،كان نشطاً في رابطة طلاب فلسطين في القاهرة، وكان نائباً لرئيس الرابطة عرفات ومعهم خلف (الطالب بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة)، وقد نظموا رحلة للطلاب من أعضاء الرابطة إلى حدائق القناطر الخيرية وكان معهم نبيل شعث الذي تعرف عليهم عن قرب، وحدثه زهير عن تحول الرابطة لإتحاد وان عرفات يقود هذا التحرك، وأُلفت النظر هنا أن نشاط الرابطة في الإسكندرية كان ضعيفاً، وتمركز في القاهرة.

في تلك الفترة غادر عرفات مع مجموعة من أعضاء الرابطة إلى غزة بعد التشاور مع جمال عبد الناصر للاطلاع على الأوضاع عن كثب، ولطمأنة الشباب ومعرفة مطالبهم والتنسيق معهم، وتعرف هناك على رفيق دربه خليل الوزير، كل ذلك بعد سلسلة غارات استهدفت غزة عام ١٩٥٥، واستطاع عرفات أن يشكل حالة توجه وطني فلسطيني لإنشاء كيان وطني يجمع كل أطياف الشعب الفلسطيني للتوجه نحوالتحرير، وشجعه وجود الرابطة والتفاف مجموعة من الطلبة٧ من حوله، واستقطاب عدد كبير من الذين التحقوا مع بداية الخمسينات بجامعات مصر المختلفة من خلال رئاسته للرابطة، فيما بعد توزع الرفاق الذين جمعتهم أفكار ونضالات رابطة الطلبة الفلسطينيين في مصر وغادروا إلى دول مختلفة.

لقد جاء تشكيل أول اتحاد لطلبة فلسطين في ظروف قيام أول تجربة عربية وحدوية بين مصر وسورية عام ١٩٥٨، وما رافق قيام هذه الوحدة من ابتهاج عم الوطن العربي، حيث جاءت الوحدة في إطار الجمهورية العربية المتحدة في أعقاب معركة تأميم قناة السويس وهزيمة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ وما تلا ذلك من مد قومي عربي عارم لتفتح المجال واسعاً أمام تسلم عناصر فلسطينية قومية الاتجاه، دفة قيادة الاتحاد(البعثيين والقوميين العرب) التي بادرت إلى تأسيس الاتحاد وظلت تقوده لسنوات عديدة.

*ولادة الاتحاد العام لطلبة فلسطين القاهرة:

استطاعت الرابطة تحقيق إنجازات هامة على صعيد الحركة الطلابية الفلسطينية، فإعترفت بها جامعة الدول العربية والهيئات الرسمية كرابطة معنوية لها كيانها، وذلك بسبب كونها أكبر هيئة شعبية فلسطينية منتخبة، حيث مثلت فلسطين لأول مرة على مستوى عالمي، واستطاعت بإمكاناتها المحدودة أن تقف في وجه النفوذ الصهيوني وتصبح عضواً في اتحاد الطلاب العالمي، ففي العام ١٩٥٥ اشتركت الرابطة بمهرجان

الشباب العالمي في وارسو ومؤتمر صوفيا، وفي عام ١٩٥٦ دعيت الرابطة لحضور مؤتمر اتحاد الطلاب العالمي كعضو مراقب، (ضم الوفد عرفات، خلف، العلمي)، وبرغم محاولات وفد إسرائيل إحراج وفد فلسطين وإخراجه من المؤتمر، استطاع وفد الرابطة في النهاية أن يحصل على العضوية الكاملة في الاتحاد، وفي عام ١٩٥٧ اشتركت الرابطة باسم فلسطين في مهرجانات الشباب في موسكو، وفي المؤتمر الخاص لاتحاد الطلاب العالمي الذي عقد في بكين ١٩٥٨م، اعتبرت الرابطة عضواً عاملاً في هذا الاتحاد، وبقيام الاتحاد العام لطلبة فلسطين، تحولت العضوية من الرابطة إليه وانتخب في المؤتمر السادس لاتحاد الطلاب العالمي عضواً عاملاً في لجنته التنفيذية، وهنا يذكر أن عرفات استقبل وفد الاتحاد العالمي للطلبة (مقره براغ)، في مكتب رئيس حكومة عموم فلسطين، أحمد حلمي عبد الباقي، الكائن في القاهرة، وقدم عرفات تقريراً هاماً، وطلب الانضمام للاتحاد العالمي باسم روابط القاهرة والاسكندرية، وبيروت ودمشق.

في نهاية الخمسينات كانت الجماهير العربية والفلسطينية في ذروة حماسها واندفاعها، وقد علقت كل آمالها على الجمهورية العربية المتحدة، حيث تعززالاعتقاد أن مسالة التحرير والعودة أصبحت حقيقة واقعة لن يحتاج انجازها إلى وقت طويل، وفي هذا الوقت تنادى طلبة فلسطين لتأسيس اتحاد لهم ليكون بمثابة انجاز جديد في الساحة الفلسطينية منسجماً مع ما يجري في المنطقة العربية من تغيرات.

وبعد أن كانت تعرف تلك الفترة من تاريخ الحركة الطلابية الفلسطينية»بمرحلة الروابط» في نهاية الخمسينات، بادرت رابطة القاهرة بالاتصال برابطة الإسكندرية، وتشكلت لجنة تحضيرية عام ١٩٥٨م، وقد قامت اللجنة التحضيرية بالاتصال مع حكومة الجمهورية العربية المتحدة والمسؤولين المحليين في الاقليم الشمالي في ذلك الوقت، رحبت حكومة الجمهورية بالفكرة وافسحت المجال ليبدأ هذا التنظيم في عاصمتها خاصة وان أكبر نسبة من طلاب فلسطين الجامعيين يتلقون العلم في جامعاتها.

وجهت الدعوة لعقد أول مؤتمر للطلاب الفلسطينيين في القاهرة، وقد انعقد المؤتمر فعلاً في ١٩٥٩/١/٢٩، أي في ذكرى تقسيم فلسطين، تأكيداً على إبراز الشخصية الفلسطينية المستقلة، ووضع المؤتمر دستور الاتحاد ولائحته التنظيمية. واعتبر مهمته الأساسية خلق الإنسان الثوري القادر على المشاركة في معركة التحرير والإعداد للمعركة وتوعية الشباب الفلسطيني، وقد شاركت في المؤتمر وفود من القاهرة والاسكندرية والتقوا مع رابطة بيروت ودمشق، بالإضافة إلى مراقبين عن طلبة فلسطين في أسيوط، والطلبة الثانويين من لبنان، وحضرت المؤتمر وفود عن الندوة الطلابية العالمية واتحاد الطلاب العالمي وممثلون عن الاتحادات الطلابية العربية والأجنبية، برعاية اتحاد طلاب الجمهورية فى مصر واتحاد الطلبة العرب الذي أنهى الصراعات الحزبية بعد ذلك، وبعد الاتصالات التي أجرتها اللجنة التحضيرية لتوحيد الجهود تمت الدعوة لعقد مؤتمر ليكون نواة لتنظيم قطاع الطلاب من أجل تهيئتهم لخوض معركة استرداد فلسطين عن طريق توطيد علاقات طلبة فلسطين مع كافة المنظمات الطلابية العالمية، وبالذات لتنسيق الجهود مع أطراف

الحركة الطلابية العربية من أجل فلسطين ومعركة المصير المشترك.

بعد تشكيل الهيئة التنفيذية الأولى برئاسة زهير الخطيب باشرت عملها بإنشاء الفروع، حيث لعب فرع (كونفدرالية) ألمانيا الغربية دوراً بارزاً في تاريخ الاتحاد، واستطاعت الهيئة التنفيذية أن تبلور اللوائح والدستور٨ بشكل واضح، كما نشط الاتحاد على الصعيد الخارجي، حيث شاركت وفود عدة في مؤتمرات مختلفة أبرزها مؤتمر اتحاد الطلاب العالمي ومؤتمر بغداد ومؤتمر بكين.

وشهدت مرحلة ما بعد ولادة الاتحاد حالة متميزة من المد الوطني لدور القطاع الطلابي الفلسطيني، فقد مثل الاتحاد عملياً الشعب الفلسطيني على الصعيد الدولي في مناسبات عدة، وأخذ على عاتقه مهمة إبراز شخصيته المستقلة، ما ساعد على توسيع إطاراته في مناطق متعددة، حيث نص دستور الاتحاد العام لطلبة فلسطين في مقدمته على أن التنظيم الشعبي الديمقراطي هو الطريق السليم للعودة وبأن الاعتراف بشخصية فلسطينية مستقلة يشكل دعامة أساسية لنضال الشعب الفلسطيني في سبيل العودة .

لم يكن الاتحاد منظمة نقابية صرفة بالرغم من الطابع العام لتكوينه واهتماماته المطلبية العديدة، إذ كان شأنه شأن المؤسسات النقابية التي ظهرت فيما بعد، وفضلاً عن صفته النقابية كإطار شرعي لعمل سياسي يعبر عن حركة سياسية زاوجت عملها على الصعيدين، وان كان طابعها السياسي يغلب على النقابي.

لقد كان لقيام الاتحاد العام لطلبة فلسطين الذي جاء حصيلة تراكمات نضالية لعدة سنوات، الأثر الأكبر في خلق المناخ لتطور الكيانية الفلسطينية وابرازها، ومحطة بارزة في بعث الهوية الفلسطينية، مستمدا أهميته ليس فقط من خلال افرازه لعدد من القادة السياسيين الفلسطينيين الذين تصدروا الحركة الوطنية الفلسطينية فيما بعد، بل كذلك من اعتباره أحد مقومات الشخصية الفلسطينية المستقلة ودعامة من دعامات بنائها واعادة تكوينها وصقلها في وقت مبكر من عملية البناء الوطني، تقوم على مبدأ الانتخاب المباشر الذي حرم منه الفلسطينيون لاختيار قياداتهم وممثليهم، وقد حاز الاتحاد بصفته هذه على اعتراف جامعة الدول العربية والهيئات الرسمية الأخرى عبر تمثيله في مؤسسات طلابية عالمية عديدة وفي طليعتها اتحاد الطلبة العالمي، وقد مهد نجاح هذه التجربة في تأسيس اتحادات للعمال، والمرأة والكتاب والصاحفيين وغيرها لاحقاً.

*أهم المفاصل التي تعرضت لها مؤتمرات الاتحاد:

كان الطابع الغالب لأعمال المؤتمر الأول هو البحث في القضايا التنظيمية أو الدستورية، وخرج المؤتمرون بإعلان عن تأسيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين «كمنظمة طلابية تسعى لضم جميع الطلبة الفلسطينيين في الوطن العربي»، وبدستور حدد قواعد سير العمل في الاتحاد مثل الانتخابات وشروط العضوية ونسب التمثيل وهيئات الاتحاد والعلاقات فيما بينها وصلاحياتها ومدتها.

وقد تعرضت مسيرة المؤتمرات إلى تذبذبات تأثرت بالمناخ السياسي العام، وطبيعة القوى السياسية وتحالفاتها، فانتقل الاتحاد من أيدي القوميين والبعثيين إلى أيدي فصائل المقاومة الفلسطينية وعلى رأسها حركة (فتح)، وخاصة في ظل الانطلاقة المسلحة والانضمام لمنظمة التحرير الفلسطينية.

كانت الصراعات في الجسم الطلابي ممثلاً بالاتحاد ومؤتمرات الفروع والمؤتمر الوطني (العام) تعكس حيوية وديمقراطية الفعل الفلسطيني، واندفاع وحماسة وجذرية الطلاب.

فبعد أن مارس طلبة فلسطين في البداية نشاطهم من خلال تشكيل روابط طلابية في العواصم العربية، جاء الاتحاد العام لطلبة فلسطين ليوحد هذا النشاط وينقل الحركة الطلابية الفلسطينية إلى مرحلة جديدة.

كان من المفترض أن يعقد المؤتمر الثاني في صيف عام ١٩٦٠ أي بعد عام على انتهاء جلسات المؤتمر الوطني الأول، إلا أن المسؤولين عن الاتحاد في ذلك الوقت تلكأوا في عقد المؤتمر، وأعقب ذلك تأزم في العلاقات بين الهيئة التنفيذية وفروع الاتحاد التي كانت تطالب بإلحاح بعقد المؤتمر، وبعد اتصالات عديدة بين الفروع فيما بينها وبين الهيئة التنفيذية عقد في شهر أيار/ مايو ١٩٦١ اجتماع في القاهرة بين رؤساء فروع الوطن العربي والهيئة التنفيذية وصدر بيان مشترك في نهايته حدد موعد عقد المؤتمر الثاني، وكان من المقرر عقده في غزة أو دمشق ١٩٦١/٩/٢٨م، وتم إيقافه لحصول الانفصال في الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا، وبذلك استمرت الهيئة التنفيذية في الإشراف على الاتحاد، خاصة أن المجلس الإداري كان مشلولاً منذ فترة بسبب تخرج عدد من أعضائه والخلافات بين الأعضاء الباقين وأصدرت قراراً في وقت لاحق بتأجيل المؤتمر إلى أجل غير مسمى، وألغت عضوية أعضائه وعادت العلاقات بين الهيئة التنفيذية والفروع إلى التأزم وتنادى رؤساء فروع الوطن العربي للاجتماع، وتم اجتماعهم في الإسكندرية وحضر رؤساء فروع كل من لبنان والإسكندرية وأسيوط والقاهرة، وحاول رؤساء الفروع الاجتماع بالهيئة التنفيذية في القاهرة إلا أن السكرتير العام رفض ذلك واتهمت الهيئة التنفيذية فرعي لبنان والإسكندرية بالتخريب، ثم أصدرت قراراً بتجميد فرع لبنان، وأخيراً عقد في مدينة غزة في ١٩٦٢/١٠/٢٨م، (قد يكون في سينما السامر)، وقد تم حرمان وفد لبنان من المشاركة فيه بسبب قرار التجميد الصادر عن الهيئة التنفيذية، كما رافقت المؤتمر بعض الأعمال غير الدستورية، مثل عدم إرسال تذكرة سفر لممثل فرع أخن بألمانيا وإدخال عضو في المؤتمر عن أسيوط دون أن يكون منتخباً.

استمرت العلاقات الداخلية في الاتحاد متسمة بالتأزم لأسباب عدة أولها الأوضاع السياسية في مصر، التي انعكست سلباً على الاتحاد٩حيث بلغت حد الانفجار في أواسط أغسطس ١٩٦٣ حين قرر أعضاء المجلس الإداري، الذين تواجدوا في القاهرة آنذاك، إقصاء عدد من أعضاء الهيئة التنفيذية من البعثيين، واختيار هيئة تنفيذية مؤقتة من بينهم أعضاء المجلس، وباشرت الهيئة عملها في الإشراف على الاتحاد وسافرت إلى دمشق حيث اجتمعت بعدد من الأعضاء الذين أقصوا عن الاتحاد منذ آب ١٩٦٣، واجتمعت بعدد من

أعضاء المجلس الإداري واعتبرت نفسها الممثل الشرعي للاتحاد، كما أصدرت قراراً إدارياً بنقل مركز عمل الهيئة التنفيذية إلى دمشق، وبذلك عاش الاتحاد حالة انشقاق وانقسام على نفسه وأزمة شرعية بالنسبة للاتحادات الطلابية، غير أن الفروع (كان عددها ٢٦ فرعاً) حسمت الموقف بإعلان تأييدها للهيئة التنفيذية المؤقتة في القاهرة، ثم حسم الموضوع نهائياً في المؤتمر الوطني الثالث الذي عقد في مدينة غزة في ١٩٦٣.

يذكر أن الهيئة التنفيذية قامت بتجميد نشاطها في اتحاد الطلبة العرب الذي مركزه القاهرة كموقف حزبي مؤيد للبعث، كذلك لجأت الهيئة التنفيذية الأولى للاتحاد إلى سلسة ممارسات على الصعيد الداخلي كانت تؤكد في مجملها الدوافع والعمل بقصد السيطرة الحزبية. وأدى ذلك إلى حدوث فجوة وتوترات في العلاقة بين الفروع والهيئة التنفيذية، خاصة وان الأطراف الأخرى كانت تتخذ من خلال الفروع موقفاً مضاداً للهيئة التنفيذية في محاولة لإحراجها وازاحتها عن قيادة الاتحاد.

لجأت الهيئة التنفيذية بعد انعقاد المؤتمر الثاني إلى اجراءات خاصة بهدف الاستمرار في قيادة الاتحاد، وفعلاً انتهى المؤتمر والعناصر البعثية أكثرية في المجلس الإداري والهيئة التنفيذية، وانفجر الصراع بين الأطراف المختلفة في اواسط شهر آب ١٩٦٣ حيث تم اقصاء العناصرالبعثية عن الهيئة التنفيذية واختيار هيئة تنفيذية مؤقتة من بين أعضاء المجلس الإداري الذين تواجدوا في القاهرة انذاك.

انعكس الخلاف بين الأطراف على عمل الاتحاد، خاصة وأن الجميع أعطى أولوية للخلاف والشأن السياسي، على حساب الاتحاد والشأن المطلبي.

كان هايل عبد الحميد قد وصل إلى القاهرة عام١٩٦٣م بعد أن كلف بمهمة بناء تنظيم حركة فتح في مصر، إلى جانب كونه نائب رئيس الهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين ومسؤول شؤون الإعلام، وخلال سنوات وجوده تشكلت هيئة تنفيذية فيها عبد القادر ياسر، حمد حجاوي، غازي فخري، أبو سويرح، و٣ من القوميين العرب منهم تيسير قبعة وسعيد كمال، ويذكر أنه تم رفض القوميين العرب تسليم المالية والرئاسة، فتدخل فتحي الديب مسؤول الشؤون العربية في المخابرات العامة المصرية، وفي نفس الوقت كان مسؤول الطليعة العربية لمحاولة فكفكة الأزمة، المهم انه بعدها تم ترشيح محمد صبيح رئيساً للاتحاد، كان أغلب هيئة الاتحاد من الطليعة العربية في ذلك الوقت، فيما شغل ممدوح صيدم موقع رئيس فرع اتحاد الطلبة الفلسطينيين في الاسكندرية أثناء دراسته الجامعية (١٩٥٩-١٩٦٣)، وقد أنهى درجة البكالوريوس في الجغرافيا من كلية الآداب في جامعة الاسكندرية، ومنها بدأ نشاطه الوطني في مرحلة مبكرة من حياته، والتحق بصفوف حركة فتح عن طريق خليل الوزير أثناء وجوده في غزة.

في عام ١٩٦٤ انشق الاتحاد العام لطلاب فلسطين اذ أطاح تحالف بين حركة القوميين العرب وحركة فتح بالقيادة البعثية للاتحاد (مقرها دمشق في ذلك الوقت) وكان لطف غنطوس البعثي الفلسطيني رئيساً

للاتحاد، توافق الجميع على عقد مؤتمر الاتحاد في غزة شريطة موافقة مصر، وانتخب المؤتمر لجنة جديدة قامت على التحالف بين فتح والقوميين العرب وبعض المستقلين، وكان في المؤتمر أيضاً، تيسير قبعة١٠ (الذي أصبح رئيساً للهيئة التنفيذية)، وشريف الحسيني، وسعيد كمال، من قادة الطلاب القوميين العرب، وكان هايل عبد الحميد، وهاني الحسن، وأمين الهندي، ومحمد صبيح، ونبيل شعث، من قادة الطلاب الفتحاويين.

دخل الاتحاد المرحلة اللاحقة التي تسلم فيها القوميون العرب قيادته، ولكن هذه العملية لم تكن، برغم المظاهر الدستورية التي أبقتها الهيئة الجديدة بعيدة عن التأثيرات العربية الرسمية والحزبية، ففي ذلك الوقت قامت سلطات الجمهورية العربية المتحدة بإبعاد عدد من الطلبة البعثيين كان من بينهم السكرتير العام للاتحاد بالاضافة الى منع بعض اعضاء المجلس الإداري من دخول القاهرة١١.

عاد المجلس في دورته المنعقدة في ١١ تموز/ يوليو ١٩٦٥ لتأكيد قراره السابق وموافقته على أن تكون علاقة الاتحاد المباشرة مع المنظمة من خلال دائرة التنظيم الشعبي، على أن تضع المنظمة والاتحاد لائحة تحدد هذه العلاقة، إلا أن خلافات المنظمة مع بعض التنظيمات الفلسطينية عكست نفسها على الاتحاد، ومع مجيء المؤتمر الرابع كانت علاقة الأخير مع المنظمة تحمل طابع التأزم أو الخلاف.

إنعقد المؤتمر الرابع أيضاً في القاهرة سنة ١٩٦٥ وقد برز الخلاف حول انتخاب الهيئة التنفيذية الجديدة، ما أدى إلى تشكيل هيئتين تنفيذيتين للاتحاد. ثم انتهى هذا الخلاف بعد شهر من انعقاد المؤتمر، وتشكلت هيئة تنفيذية واحدة، وكانت من م.ت.ف، وحركة (فتح) التي أخذت موقعها في الحركة النضالية والسياسية فضعف ثقل القوميين لصالح التنظيمات الملتفة حول (م.ت.ف).

عقد المؤتمر الرابع في القاهرة بتاريخ ١٩٦٥/١٢/٦ الذي رأسه هاني الحسن ونوابه سعيد المدلل ومهدي بسيسو، وكانت الخلافات الشديدة قد أفرزت هيئة تنفيذية برئاسة تيسير قبعة وأخرى برئاسة إياد السراج وانتهى هذا الخلاف بعد شهر وتشكلت هيئة تنفيذية جديدة. وخلال هذه الفترة حدثت تطورات هامة في الساحة الفلسطينية تركت انعكاساتها المباشرة على الاتحاد، خاصة بعد تشكل منظمة التحرير الفلسطينية وكان مطلوباً تحديد العلاقة بين الاتحاد والمنظمة، ووقف المجلس الإداري في دورته السادسة أمام الموضوع, وشارك مندوب من المنظمة في بعض جلساته وخرج المجلس بقرار يعتبر الاتحاد «قاعدة من قواعد المنظمة بعيداً عن جميع المؤثرات والتيارات الحزبية والمنظمات والجبهات المختلفة، ولا يدين بالولاء إلا لها».

ومن جهة أخرى باشرت فتح عملياتها العسكرية مع بداية عام ١٩٦٥، وكان لا بد لهذا الحدث أن يترك آثاره أيضاً على الاتحاد، فترددت الهيئة التنفيذية في اتخاذ موقف محدد في حين أعلنت فروع ألمانيا من خلال سكرتارية التنسيق تأييدها لعمليات العاصفة واعتبرت الهيئة التنفيذية متخاذلة في موقفها. وقف المجلس الإداري في دورته السابعة أمام الموضوع واعتبر أن القرار بشأن ذلك هو من اختصاصات المؤتمر

ولذلك قراراته لا تؤيد ولا تشجب أعمال العاصفة بانتظار قرار المؤتمر الوطني الرابع. وهكذا أضيف عامل سلبي جديد إلى علاقات الاتحاد الداخلية.

عاش الاتحاد من جديد فترة عصيبة كادت تؤدي إلى انقسامه، وقد انفجر الخلاف بعد أن أقر المؤتمر التقرير الأدبي والمالي المقدم من الهيئة التنفيذية كأعضاء عاملين في المؤتمر، ومن المتعارف عليه أن إقرار التقريرين المذكورين يعني منح الثقة للهيئة التنفيذية، لكن شباب المنظمة أصروا على ذلك مستندين إلى أن أصواتهم في المؤتمر لا تمكن الهيئة التنفيذية من الحصول على ثلثي أصوات المؤتمر، وتعطلت أعمال المؤتمر عند ذلك وسط أزمة حادة، ونتيجة لهذا الوضع الحرج جرت تدخلات من قبل عدة أطراف ومن المنظمات الطلابية بهدف إخراج الاتحاد من المأزق أسفرت في النهاية عن اتفاق لتشكيل هيئة تنفيذية، وإصدار «ميثاق العمل الوطني للاتحاد» يكون بمثابة منهج تسير عليه الهيئة التنفيذية الجديدة في مختلف نشاطاتها وعلاقاتها حتى انعقاد المؤتمر الوطني الخامس، ونص الميثاق على أن ينعقد المؤتمر الخامس وتشارك فيه كافة الفروع التي حضرت المؤتمر الرابع بأي صفة كانت، مضافاً إليها أي فرع جديد يتم تأسيسه في تلك الفترة، وبعد هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧م، عادت العناصر الفلسطينية غير المنتمية للأحزاب القومية لتقود الاتحاد.

الهوامش

١. وكان من أهم النشاطات مسرحية صلاح الدين الايوبي التي كتبها ومثل فيها عبد الفتاح حمود

٢. ولد عبد المحسن حسني أبو ميزر في مدينة الخليل عام ١٩٢٩، نشط منذ شبابه المبكر في العمل الوطني؛ فانضم إلى حزب البعث العربي الاشتراكي أثناء دراسته الثانوية، وغادر غزة برفقة الجيش المصري إلى مصر أثناء انسحابه عام ١٩٤٩، ونشط في صفوف الطلبة الفلسطينيين في الجامعات المصرية، وساهم في تأسيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين.

٣. ولد المربي فتحي البلعاوي في قرية بلعا بطولكرم في ٢٢ أغسطس ١٩٢٦، وأتم دراسته الإبتدائية في بلعا وعنبتا وأنهى الثانوية العامة في يافا، وفي عام ١٩٤٦ التحق بكلية اللغة العربية في الأزهر الشريف، وانضم أثناء دراسته الجامعية إلى جماعة الإخوان المسلمين، وتطوع مع بعض إخوانه في الأزهر للجهاد في فلسطين وكان نائب رئيس إتحاد الطلاب المسلمين في الأزهر، ساهم في تأسيس أول تنظيم طلابي فلسطيني عام ١٩٥١ عرف باسم: رابطة طلبة فلسطين، وكان أول سكرتير لها، وأسس مجلة (نداء فلسطين) وكان رئيس تحريرها. كما كان كتلة من النشاط والحماس ، وإشتهر كخطيب جماهيري ناري الكلمات... وكان عنيفاً وجريئًا لا يهاب عاقبة الإندفاع الثوري الذي تميز به، ومن مواقفه الجريئة التي إشتهر بها موقفه أثناء إحتفال كان على رأسه اللواء محمد نجيب في القاهرة عام ١٩٥٣ حيث إندفع إلى الميكروفون وراح يخاطب الرئيس محمد نجيب بنبرة حادة، وتدخل مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، وكاد حارسه أن يطلق الرصاص على البلعاوي؛ لولا أن ياسر عرفات أمسك يده، وقرأ فتحي على الإحتفال الجماهيري أية قرآنية تسببت في إعتقاله وسجنه، ثم ترحيله إلى غزة عام ١٩٥٣ قبل شهرين من حصوله على الليسانس.

٤. ولد فيصل الحسيني في ١٧ تموز/ يوليو ١٩٤٠ في مدينة بغداد لعائلة وطنية فلسطينية عريقة.انتقل والده إلى بغداد مضطراً عقب القضاء على الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩، وشارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني التي اندلعت في

سنة ١٩٤١ ضد الاستعمار البريطاني للعراق، ثم انتقل، بعد إجهاض تلك الثورة، إلى السعودية حيث التحقت أسرته به في سنة ١٩٤٤. وفي سنة ١٩٤٦، استقرت العائلة في مصر والتحق فيصل الحسيني بالمدرسة حيث أنهى في القاهرة دراسته الابتدائية والثانوية. وفي خريف سنة ١٩٥٦، تطوع مع شقيقيه في قوات المقاومة الشعبية التي شاركت في التصدي للعدوان الثلاثي على مصر، وانضم في سنة ١٩٥٨ إلى حركة القوميين العرب، وسافر إلى بغداد للالتحاق بكلية العلوم، لكنه اضطر إلى مغادرة العراق في السنة التالية، بسبب النزاع الذي نشب بين القوميين العرب والشيوعيين، وعاد إلى القاهرة حيث التحق بكلية العلوم وانتسب إلى رابطة الطلبة الفلسطينيين، ثم شارك في سنة ١٩٥٩ في تأسيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين، وتعرّف في العاصمة المصرية على ياسر عرفات. وفي سنة ١٩٦٣، شارك في دورة عسكرية تدريبية نُظمت في مصر لأعضاء منظمة شباب الثأر، وهي المنظمة الفدائية التي أسستها حركة القوميين العرب.

٥. والذي التحق بجامعة الأزهر في القاهرة عام ١٩٦٥م، وحصل على ليسانس تاريخ وتخرج فيها عام ١٩٧١م، وخلال دراسته الجامعية في القاهرة كان عضواً فاعلاً في الاتحاد العام لطلبة فلسطين وكذلك في تنظيم حركة فتح.

٦. انتمى العلمي في شبابه المبكر للحركة الكشفية، ونشط أثناء دراسته الجامعية داخل اتحاد طلبة فلسطين في القاهرة، وأصبح أحد أعضاء لجنته التنفيذية ونائبًا لرئيسه عام ١٩٥٥، ولعب دورًا في جمع التبرعات لصالح الطلبة الفلسطينيين في مصر خصوصًا أثناء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، وشارك مع ياسر عرفات وصلاح خلف في تمثيل الطلبة الفلسطينين في مؤتمر الطلاب العالمي في براغ بتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٦، وفي مهرجان الشباب العالمي في موسكو عام ١٩٥٧، وشهد مرحلة تأسيس حركة فتح، وكان أحد كوادرها الأوائل، ونشط في استقطاب المزيد من العناصر لحركة فتح من بين الطلبة الفلسطينيين والعرب إبان دراسته في الولايات المتحدة من خلال جمعية الطلبة العرب التي كان رئيسًا لفرعها في تكساس عام ١٩٥٩، وعضوًا في لجنتها التنفيذية عام ١٩٦٠، ثم نائبًا لرئيسها عام ١٩٦١، وحضر المؤتمر الفلسطيني الأول في القدس عام ١٩٦٤ الذي انبثقت عنه منظمة التحرير، وانتخب عضوًا في المجلس الثوري لفتح، وعضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٧٠.

٧. من الطلبة الذين شاركوا في الاتحاد في مراحل مختلفة واماكن مختلفة، وشكلوا قيادة ثورية من اغلب الفصائل: ياسر عرفات، هايل عبد الحميد، فتحي البلعاوي، أمين الهندي، روحي فتوح، زهير الخطيب، تيسير قبعة، عزام الأحمد، ناصر القدوة، توفيق الطيراوي، حسن عصفور، نعمان العويني، واصل أبو يوسف.تيسير قبعة، شريف الحسينى، سعيد كمال، فيصل الحسيني، عنان قدومي، عبد العزيز ابو شمالة، هاني الحسن، حمدان عاشور، علي حسن سلامة، ممدوح صيدم، اياد السراج، فتحي عدوان، علي ابو العدل، عبد الجبار الاشقر، اسد صباح، عصام سرطاوي، محمد الوحيدي، حاتم ابو السعود، زهدى القدرة، عصام القاضي، بسام عطاري، ابراهيم خليل الطريفي أسعد عبد الرحمن، حسن الجعبي، إبراهيم المصري، وآخرون وفي مرحلة لاحقة،

٨. لقد نص دستور الاتحاد لدى تأسيسه على أن طلبة فلسطين إيماناً منهم بأن التنظيم الشعبي الديمقراطي هو الطريق السليم للعودة المظفرة وبأن الاعتراف بشخصية فلسطينية مستقلة دعامة اساسية لنضال شعبنا في سبيل العودة وايمانا منهم بقوة الترابط بين الوحدة العربية الشاملة وتحرير فلسطين التي تمثل قلب الامة العربية وبالدور الطليعي الذي يجب على الطالب الفلسطيني أن يقوم به في قيادة شعبه، ويعلنون عن تأسيس اتحاد وطني لطلبة فلسطين يكون نواة لتنظيم شعبي فلسطيني، ويعمل من اجل العودة للوطن السليب بكافة الوسائل التي تخولها له مواد الدستور. ولقد احتوى دستور الاتحاد على صياغة أهدافه النقابية، والوطنية، والقومية لاحقاً، التي تضمنت على الصعيدين النقابي

والثقافي ما يلي: الدفاع عن المصالح المادية والادبية والثقافية لاعضائه، تحسين الظروف المعيشية والمادية لاعضائه، ضمان مختلف الوسائل لتشجيع الطلبة في دراستهم، توفير سبل العلم للطالب الفلسطيني بمختلف مراحله الابتدائية والاعدادية والثانوية والجامعية.

٩. بسبب الخلاف بين جمال عبد الناصر والبعثيين بعد فشل انقلاب جاسم علوان، والانقلاب على الانفصال في ٨ اذار وهذا اجج الخلاف بين البعثيين والقوميين في الاتحاد.

١٠. نائب رئيس المجلس الوطني الفلسطيني، ولد المناضل تيسير قبعة في قلقيلية في ٢٠ آب عام ١٩٣٨، وتخرج من مدرستها الثانوية عام ١٩٥٨، التحق بعدها بجامعة دمشق للدراسة في كلية الحقوق، وأثناء ذلك انتخب رئيساً لرابطة الطلبة الفلسطينيين في سوريا، حيث كان عضوا في حركة القوميين العرب.اعتقل في دمشق بعد الانفصال عن مصر عام ١٩٦١، وابعد إلى القاهرة حيث التحق بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وانتخب رئيسا للاتحاد العام لطلبة فلسطين، وبقي رئيسا له حتى عام ١٩٦٧. وأصبح الاتحاد في عهده يضم اكثر من أربعين فرعاً في جميع انحاء العالم، وأثناء ترأسه للاتحاد قام بالعديد من الزيارات للدول العربية والأوروبية، والدول الاشتراكية لتنظيم الطلبة الفلسطينيين وشرح عدالة القضية الفلسطينية. وأثناء توليه قيادة الاتحاد العام لطلبة فلسطين، حضر تيسير قبعة العديد من المؤتمرات الطلابية في أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية وإفريقيا، وانتخب عضوا في اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلاب العالمي، وعضوا في اللجنة التنفيذية لاتحاد الشباب الديمقراطي العالمي، وكان عضوا في مجلس السلم العالمي، وعضوا في منظمة التضامن الآفرو-آسيوي .شارك في المؤتمر الأول للمجلس الوطني الفلسطيني في القدس عام ١٩٦٤، ممثلاً عن الاتحاد العام لطلبة فلسطين.ونال قبعة درجة البكالوريوس ثم الماجستير في التاريخ، وفي شهر حزيران عام ١٩٦٧ ترك الجامعة والاتحاد، ودخل مع العديد من الطلبة الفلسطينيين إلى الضفة الغربية لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي. اعتقل قبعة في القدس بتاريخ ١٩٦٧/١٢/٢٠، وبقي في السجن أكثر من ثلاث سنوات، حيث شُنَّت حملة عالمية لإطلاق سراحه. وزاره في السجن العديد من قادة الاتحادات الطلابية العالمية. وترأس الوفد الفلسطيني لمؤتمر الشباب العالمي في برلين وكوبا في عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٨، وكان عضوا في المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. خلال مسيرته النضالية والسياسية، وحضر قبعة عدداً من مؤتمرات القمة العربية والقمة الافريقية ودورات الجمعية العامة للأمم المتحدة، كما حضر العديد من المؤتمرات البرلمانية للاتحاد البرلماني الدولي والعربي، وزار الصين لأول مرة عام ١٩٦٤ على رأس وفد من الاتحاد العام لطلبة فلسطين، كما زار الصين ثلاث مرات على رأس وفد من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

١١. ويصعب في هذه الحالة ان تحدث عملية اقصاء العناصر البعثية عن الهيئة التنفيذية وحدث بعد ذلك ان ذهب القائم بأعمال رئيس الاتحاد (والذي أبعد بدوره عن القاهرة إلى دمشق) واجتمع هناك مع الاعضاء البعثيين في المجلس الاداري والهيئة التنفيذية واعتبروا انفسهم الممثلين الشرعيين للاتحاد واصدروا قراراً اداريا بنقل مركز عمل الهيئة التنفيذية إلى دمشق كما اصدروا نشرات تتهجم على سلطات الجمهورية المتحدة وعلى اعضاء الهيئة التنفيذية المؤقتة في القاهرة وتتهمهم بالتعاون مع سلطات خارجة عن كيان الاتحاد والتآمر عليه، وكان لهذه الأزمة الداخلية المهددة بإنقسام الاتحاد آثارها السلبية على وضع الاتحاد أمام الهيئات الطلابية الدولية وخاصة فيما يتعلق بشرعية التمثيل وخاصة فيما يتعلق بشرعية الهيئة التنفيذية إلى ان حسم الأمر في المؤتمر الوطني الثالث في آواخر شباط ١٩٦٤، وعكست الهيئة التنفيذية المؤقتة في مواقفها الاتجاه السائد في الأوساط الفلسطينية يومها أي الاتجاه الناصري.

أوراق دولية

الحرب الروسية الأوكرانية والشرق الأوسط
"صراع العرق والإيمان والغاز "

شذى يحيى

"هناك غمامة عاصفة مريعة تسري في سماء روسيا، أرى كارثة، ظلاماً, حزناً، ولاضياء إنه بحر من الدموع والدماء. ماذا أقول؟ لاأجد كلمات تصف ذلك الرعب جميعهم يريدون منك الإندفاع نحو الحرب، لكنهم لايعلمون أن الدمار ينتظر".

جريجوري راسبوتين عندما نصح القيصر نيكولاي الثاني بأن لايدخل الحرب ضد الدولة العثمانية

"إن القمة التي جمعت وزراء الخارجية العرب مع وزير الخارجية الإسرائيلي يائير لابيد هي حدث تاريخي مهم ... قبل بضع سنوات كان هذا الأمر بمثابة سيناريو لخيال علمي".

تامير فيرتسبرغر خبير العلاقات الدولية الإسرائيلي

"اللاجئون الأوكرانيون ليسوا من اللاجئين الذين اعتدنا عليهم، لذلك سنرحب بهم ، هؤلاء أوربيون أذكياء ومتعلمون ولا يملكون ماضياً غامضاً، كأن يكونوا إرهابيين"

كيريل بيتكوف رئيس وزراء بلغاريا

"العملية العسكرية الروسية في أوكرانيا لاتمثل مأساة لأوكرانيا فقط، بل ليهود العالم أجمع، أوكرانيا ستصير أشبه بإسرائيل كبيرة".

فولوديمير زيلنسكي الرئيس الأوكراني

"قبل خمس سنوات لم يكن شرق المتوسط يعتبر منطقة غنية بالموارد مثلما يراه أغلب الناس اليوم. وهذا تحول جوهري".

مايكل ويرث الرئيس التنفيذي لشركة شيفرون

"نسعى لخلق مستقبل مختلف والبناء على أمل أفضل بالنسبة لأولادنا وأبنائهم، ونأسف لـ٤٣ عاماً مرت منذ توقيع مصر وإسرائيل على اتفاقية السلام ... حان الوقت لتغيير السرد والديناميكية"

وزير الخارجية الإماراتي عبدالله بن زايد

"نقول للأمة إن هذا الوحش هو وهم من غبار"

محمد العارضة أسير نفق الحرية عن الإحتلال

في خطابه المسجل إلى الكنيست الإسرائيلي يوم الأحد ٢٠مارس٢٠٢٢م حث الرئيس الأوكراني فولوديمير زيلنسكي إسرائيل على إتخاذ الخيار ونبذ الحياد ودعم بلاده أمام الغزو الروسي كما شدد زيلنسكي اليهودي الديانة على أن بلاده اتخذت قرارها منذ ٨٠عاماً بإنقاذ اليهود من المحرقة، ووجه تحذيراً شديد اللهجة لأعضاء الكنيست بأن (اللامبالاة تقتل) وصعد زيلنسكي إدعاءاته مشبهاً ما يحدث لمواطني بلاده بأنه يشبه ما حدث لليهود على يد ألمانيا النازية وأن بلاده تجد نفسها في موقف يشبه موقف إسرائيل والإعتداءات التي تتعرض إليها. في الحقيقة فإن الرئيس الأوكراني المفتون بالنموذج الإسرائيلي والذي يبدوأنه كان يحلم بأن تقوم أوكرانيا لروسيا بنفس الدور الذي فعله قيام دولة إسرائيل في تفتيت الدولة العثمانية، زيلنسكي لايكل ولايمل من استخدام مقاربة تشبيه الوضع الأوكراني بالوضع الإسرائيلي، بعد هذا الخطاب بأيام في ٥أبريل صرح بأن بلاده ستصبح أشبه بإسرائيل كبيرة مع تصدر الأمن قائمة الأولويات في العشر سنوات القادمة، ولكن يبدو أن الغرام غير متبادل فالحقيقة أن أعضاء الكنيست الذي كان قد تهرب مرة من قبل من تحديد موعد جلسة لسماع زيلنسكي بدعوى الأجازات رأوا خطابه فظاً وشائناً وتحريضاً عليهم وفيه الكثير من نكران الجميل! حيث أن رئيس الوزراء بينيت حاول أن يقوم بدور الوسيط بين الطرفين المتحاربين لتهدئة الأوضاع حتى من قبل إندلاع الحرب، ومنذ بداية نشوب الأزمة وإسرائيل على حد تعبير بينيت تتعامل مع أوكرانيا وروسيا بطريقة حساسة وسخية تراعي (اعتبارات معقدة) فلكلتا الدولتين دور كبير في قيام الكيان الصهيوني كما أن الكتلتين الروسية والأوكرانية من المهاجرين اليهود تشكلان العصب الثقافي والإقتصادي والعسكري للكيان، بل إن معظم حزب بينيت نفسه من المتطرفين اليهود ذوي أصول روسية إضافة إلى الجذور التاريخية فالأوكران هم من أسسوا حركة بيلو التي شكلت نواة هجرة العاليا الأولى إلى إسرائيل من جامعة خاركيف في العام١٨٨٢م بعد إغتيال القيصر ألكسندر الثاني، أما الروس فالاتحاد السوفيتي هو أول دولة اعترفت بقيام الكيان

العام١٩٤٨م وقد كانت روسيا مخزناً لمده بالمهاجرين منذ نشأت فكرته الأولى ولذلك فإن كلا الطرفين لم يرضه السلوك الإسرائيلي.

أوكرانيا كانت تتطلع إلى أكثر من الجسر الجوي الذي أنشأته تل أبيب ليمدها بالمساعدات الإنسانية، الأوكرانيون كانوا يريدون مساعدات عسكرية وإنحيازاً صريحاً إلى جانبهم من منطلق رؤيتهم لأنفسهم أنهم يعيشون نفس الموقف الإسرائيلي أو كما صرح السفير الأوكراني لدى إسرائيل يفجيني كورنيتشوك "لقد عاش الإسرائيليون محاطين بالأعداء طوال تاريخهم وستفعل أوكرانيا الشيء نفسه" ،وكما قال زيلنسكي نفسه محاولاً استيحاء الجانب التوراتي للنزاع "رئيس وزراء إسرائيل السيد بينيت يحاول إيجاد طريقة لإجراء محادثات، نحن ممتنون لذلك حتى نبدأ عاجلاً أو آجلاً في إجراء محادثات مع روسيا، ربما في القدس".

بالطبع لم تكن إسرائيل على استعداد للقيام بهذا الدور مادفع زيلنسكي فيما بعد للقول بنبرة لائمة "إسرائيل لها مصالحها، واستراتيجية لحماية مواطنيها" مايعكس خيبة أمل كبيرة في الموقف الإسرائيلي المشغول بمشاكله مع الفلسطينيين ومحاولة منع قيام معركة معهم في القدس بعد تجدد العمليات الفدائية ومحاولات المتطرفين اليهود اقتحام الأقصى والمشغول أكثر بجني الأرباح من الأزمة وأهمها تحسين علاقاته مع جيرانه ليغير تاريخه، في نفس الوقت وفي خضم إندلاع المعارك أرسل الرئيس الروسي لرئيس الوزراء الإسرائيلي خطاباً يطالبه فيه بسرعة نقل مجمع كنيسة ألكسندر نفسكي في البلدة القديمة بالقدس إلى ملكية روسيا وهو بهذا يؤكد أنه وريث الإمبراطورية الروسية القيصرية وراعي مصالحها ومصالح المسيحيين الأرثوذكس في العالم، فالمجمع يحتوي على "عتبة بوابة الحكم" حيث قرئ على يسوع حكم الصلب إضافة إلى عين الإبرة المذكورة في الكتاب المقدس، وكان البريطانيون قد سلموا الموقع لهيكلية أجنبية هي الجمعية الفلسطينية الأرثوذكسية الأمبراطورية منذ قيام الثورة البلشفية في ١٩١٧م واليوم يطالب به بوتين بصفته كقيصر وفارس صليبي، لم يكتفي بوتين بإثارة هذه المسألة لكن في أعقاب تصويت إسرائيل مع قرار تعليق عضوية روسيا في مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة أصدرت الخارجية الروسية بياناً يشجب فيه التأييد واصفة اياه بأنه محاولة مبطنة للإستفادة من الوضع الأوكراني لصرف انتباه المجتمع الدولي عن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي واستطرد البيان "كما تعلمون أن هناك انتهاك للعديد من قرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة، حيث تواصل الحكومة الإسرائيلية الإحتلال غير القانوني وضم الأراضي الفلسطينية ما أدى إلى مقتل آلاف الفلسطينيين".

كما ذكر البيان أيضاً بأن غزة بملايينها هي سجن في الهواء الطلق منذ ١٤عاماً واختتم بجملة "من الجدير بالذكر أيضاً أن مسار إسرائيل في الحفاظ على أطول إحتلال في تاريخ العالم بعد الحرب

العالمية الثانية يتم بتواطؤ ضمني مع الدول الغربية وبدعم مباشر من الولايات المتحدة".

قوة البيان وشدة لهجته ومصداقيته لم تصدر عن أي من جيران إسرائيل العرب الذين اكتفوا بتجاهله ومجرد نقله على محطات الأخبار والمواقع والصحف دون أي تعقيب كأنه لايعنيهم في شيء والسبب بل الأسباب التي تبرر صمتهم هذا كثيرة من وجهة نظرهم ولكن تتلخص في جملة واحدة "المصالح تتصالح".

الموقف الروسي الغاضب من الموقف الاسرائيلي المتراخي تبعه ايضاً تصعيد بسبب المحاولة المستمرة لوسائل الاعلام الغربية لربط مايحدث في أوكرانيا بمأساة اليهود في الحرب العالمية الثانية ومحاولة وسائل الإعلام الروسية المستمرة لتأكيد أن هذه الحرب مشروعة للقضاء على نزعة عنصرية نازية مادفع وزير الخارجية الروسية للدفاع عن بلاده في سؤال وجه له في حديث لمحطة تلفزيونية إيطالية عن كيف تتهم موسكو كييف بالنازية رغم أن زيلنسكي الرئيس الأوكراني يهودي بقوله أن هتلر أيضاً كانت له جذور يهودية وأن أكبر معاد للسامية هم اليهود أنفسهم، هذا التصريح أثار غضباً شديداً جداً في الغرب وفي إسرائيل وصل إلى حد إستدعاء وزير الخارجية الإسرائيلي يائير لابيد للسفير الروسي لتسليمه احتجاجاً رسمياًووصف التصريحات بأنها "مشينة ولا تغتفر وخطأ تاريخي فادح"، بينما وصفها داني ديان مدير يادفاشيم بأنها "إهانة وضربة قاسية لضحاياالنازية الحقيقية ... ونظرية مؤامرة معادية للسامية لا أساس لها من الواقع"، بينما وصفت وزارة الخارجية الأميركية التصريحات بأنها "تصريحات دنيئة وعنصرية وأكاذيب خبيثة ".

مجرد التصريح بما يخدش الأسطورة التي يقوم عليها الكيان هو شيء لا يحتمله الصهاينة والغرب على الأخص عندما يأتي من قبل من يمثل احدى القوى التي ساهمت في إنشائه وبينما تستعد إسرائيل لجني مكاسب قبولها كأمر واقع بل الأكثر كحليف من قبل جيرانها الذين أصبحوا يرونها طوق نجاة ضد التوسع الإيراني وحليفاً في حرب مذهبية ضد الشيعة فهي غير مستعدة لقطع صلتها مع الأسطورة التي تبرر مشروعيتها ولو بتصريح بلامعنى.

"علينا الدخول في مرحلة جديدة مع الدول التي نتقاسم معها نفس المعتقدات والأفكار، إنها مرحلة كسب الأصدقاء وليس خلق أعداء" هذا تصريح أدلى به الرئيس التركي رجب طيب أردوغان في أعقاب زيارته للملكة العربية السعودية في الثلاثين من أبريل ٢٠٢٢م، أردوغان كان ولأعوام منذ إنهيار حكم الإخوان المسلمين في مصر عدواً لدوداً لمحور القاهرة الرياض أبوظبي وصاحب طموحات كبيرة في فرض وصاية روحية على الدول العربية كوريث لحكم العثمانيين السني، ولكن بعد الحرب الروسية الأوكرانية وأيضاً بسبب المتاعب الإقتصادية الجمة التي تمر

بها بلاده اصطف أردوغان في صف رواد مرحلة السلام الجديدة وكلمة السر في هذا التغير في الموقف هي الغاز الذي كان على رأس الموضوعات التي ناقشها أردوغان مع الرئيس الإسرائيلي إسحاق هرتزوج في زيارته لأنقرة في فبراير والتي تعد الزيارة الأولى لرئيس إسرائيلي لتركيا منذ العام٢٠٠٣م.

نعم الغاز هو السر في كل الأزمات التي تدور على الساحة وأيضاً في كل التصالحات وتغيرات المواقف، فأوكرانيا وروسيا اللتان تبدوان على الخريطة بعيدتين عن الشرق الأوسط هما أقرب مما يتصور والتأثير الإقتصادي للأزمة القائمة بينهما لايقتصر على مجرد غلاء شحنات القمح والدجاج واللحوم وزيت الطعام وغيرها من السلع الاستراتيجية مايشكل أزمات لدول العالم الثالث بل كلمة السر الأساسية هي التضخم وانقطاع موارد الطاقة عن الدول الصناعية الكبرى هذه الدول مازالت تناضل مع خسائرها جراء وباء كورونا.

الأزمة الأوكرانية الروسية منذ البداية كانت بمثابة صدى واقعي جداً لعدم الانتهاء الفعلي للحرب الباردة، جميع المتورطين فيها كانوا أطرافاً أساسية في هذه الحرب، الولايات المتحدة المتراجعة أمام الصين تبحث عن مجد مفقود وإثبات إستمراريتها كقطب واحد في الهيمنة على العالم وفي إطار هذا سعت لضم أوكرانيا وبعض جمهوريات الإتحاد السوفييتي السابق الأكثر ترداداً للسوق الأوروبية المشتركة ولحلف الأطلسي ليكون ذلك بمثابة إعلان النصر النهائي على الإمبراطورية السوفيتية وأن قيصرية بوتين الروسية ليست خليفة لها والأهم بالنسبة للولايات المتحدة كان القضاء على خط غاز "نورد ستريم٢" الذي كان سيمد أوروبا وعلى الأخص ألمانيا بالغاز الروسي ويجعلها أكثر ترابطاً واعتماداً على روسيا، ذلك الخط الذي تكلف ١١مليار دولار ويمتد على مسافة ١٢٣٠كم كان مثار خلاف كبير بين بريطانيا والولايات المتحدة وأوكرانيا من جهة وبين روسيا وألمانيا من جهة أخرى، فمن وجهة النظر الأميركية كان هذا الخط سيزيد النفوذ الروسي في أوروبا. ولذلك وفي مؤتمر صحافي قبل الغزو الروسي لأوكرانيا صرح المستشار الألماني أولاف شولتز في زيارة للبيت الأبيض أنه إذا غزت روسيا أوكرانيا ... فلن يكون هناك "نورد ستريم٢" وعقب الرئيس الأميركي "سننهي ذلك" مضيفاً "أعدكم بأننا سنكون قادرين على ذلك".

منذ٢٠١٧م وحتى قبل تولي بايدن وفي٢٠١٩م و ٢٠٢٠م استهدفت الولايات المتحدة خط الأنابيب "نورد ستريم" بالعقوبات بل وصل الأمر في يناير٢٠٢١م أن إدارة ترامب فرضت عقوبات على بارجة مد أنابيب استخدمتها شركة غاز بروم الروسية لبناء "نورد ستريم٢" ومع ذلك فقد اكتمل خط الأنابيب الذي يعتبر عملاق الغاز الروسي غاز بروم هو المساهم الوحيد فيه لكن ٥٠٪ من تكلفة الخط وفرتها شركات طاقة أوروبية اثنتان من ألمانيا إلى جانب شركة شل البريطانية وإنجي

الفرنسية وأومغي النمساوية، إضافة لخط الغاز فإن حجم الاستثمارات الألمانية هائل في روسيا ولذلك فإنه من الأكيد أن بوتين يرغب في خط الأنابيب لكنه يرغب في أمنه وفي كرسيه كدولة عظمى أكثر بكثير والولايات المتحدة وصناع القرار فيها يعلمون ذلك ولهذا كانت التضحية بأوكرانيا أمراً مفروغاً منه.

الحقيقة أن بوتين وضع بين خيارين إما أن يقبل بوجود الناتو حلف شمال الأطلسي في أوكرانيا كشوكة في بطنه الناعم ومياهه الدافئة, أو أن يحافظ على الخط الذي كان قد اكتمل وفي انتظار شهادة الصلاحية من ألمانيا التي كانت ستعتمد عليه في سد ٥٠٪ من احتياجاتها ولهذا قلب بوتين لعبة الشطرنج بينه وبين الإدارة الأميركية التي تجري على مائدة أوكرانيا إلى لعبة الروليت الروسي على الأخص وأن أغلب الغاز الذي تؤمنه روسيا لأوروبا يمر عبر الأراضي الأوكرانية التي كان حلف الأطلسي يريد التمركز فيها.

أوروبا أكبر الخاسرين في هذه الحرب فهي تعتمد على روسيا في توفير الطاقة بسعر معقول ومخاطر بيئية مقبولة ومع ذلك فهي أيضاً رأت أن أمنها والحفاظ على مظلة حلف الأطلسي التي تحمي قواها العسكرية الهشة أمام روسيا وذلك باعتراف حكوماتها أهم من المصالح الإقتصادية، لذلك بالغت في فرض العقوبات على روسيا التي ردت هي الأخرى بقطع الغاز عن من رفض دفع قيمته بالروبل أو الذهب وأجبرت الآخرين على الانصياع لها والدفع كما أرادت مؤقتاً حتى يتمكنوا من الحصول على بدائل أخرى للغاز الروسي الذي فتحت له روسيا أسواقاً موازية في الصين والهند وغيرها من دول العالم الثالث التي اضطرت الولايات المتحدة لإلغاء عقود توريد الغاز لها وتحويله لأوروبا للتقليل من آثار الأزمة، وذكر البيت الأبيض في بيان له "أنه يتحدث مع دول وشركات حول زيادة الإنتاج، كما أنهم يحاولون تحديد مصادر بديله للغاز الطبيعي يمكن إعادة توجيهها إلى أوروبا".

بالفعل حاولت الولايات المتحدة أن تسد فجوة احتياج الغاز الطبيعي لأوروبا عبر قطر ومنحتها وضعية متميزة كحليف للأطلسي من خارجه وهي وضعية لم تمنح حتى لأوكرانيا، لكن يبدو أن القطريين لم يكونوا بهذا الاهتمام فاعتذروا بارتباطهم بعقود طويلة الأجل مع عملاء آسيويين مما يعوق قدرتهم على سد الفجوة، لذلك لجأت الولايات المتحدة إلى تزويد أوروبا بشحنات الغاز المسال من أراضيها وبالطبع حقق لها هذا مكاسب هائلة إضافة إلى مكاسب شركات السلاح الذي تعهدت أكثر من دولة أوروبية بدفع ثمنه بالطبع شكل هذا دفعة قوية للإقتصاد الأميركي المنهك إضافة للسيطرة على نقطة ضعف أوروبية هي الطاقة، رئيسة المفوضية الأوروبية أورسولا فان ديرلاين صرحت بأن "أوروبا تبني شراكة لأمن الطاقة مع الولايات المتحدة والتي تتعلق أساساً

بالمزيد من إمدادات الغاز الطبيعي المسال".

الحقيقة أن هذا الوضع يشكل تحدياً لوجستياً ضخماً فبالرغم أنه في الوقت الحالي أكبر المستفيدين من الأزمة هي كبرى شركات تصدير الغاز الأميركية والشركات اليابانية العاملة في تسييل الغاز في الولايات المتحدة فسعر الغاز إرتفع في بعض الأوقات لأرقام عالية تصل لحوالي ٦٠دولاراً لكل وحدة حرارية أي زيادة بمقدار عشر أضعاف سعرها منذ عام واحد فقط إضافة إلى أن هناك خطورة عالية للإرتفاع أكثر لو استمرت الحرب حتى الشتاء المقبل مما يرجح إحتمالية استمرار الارتفاع، ولكن بالرغم من ذلك ومن أن الإدارة الأميركية كسرت سياستها بخصوص الحفاظ على البيئة وسمحت بافتتاح محطات تسييل غاز جديدة وأقامت منصات تنقيب على البترول فوق الأراضي الأميركية وهادنت منتجي النفط الصخري رغم خطورته على البيئة فإنها لا تستطيع الاستمرار في سد العجز الأوروبي، على الأخص مع انخفاض الاحتياطيات لأقل معدلاتها منذ أعوام إضافة أن جزءاً كبيراً من الغاز الذاهب لأوروبا محول من مناطق أخرى في آسيا على الأخص في الدول الأكثر فقراً للجوء إلى أنواع أخرى من الوقود أكثر تلويثاً للبيئة وهو أمر مفزع نتيجة تفاقم أزمة المناخ، ويأتي الحل هنا من وجهة نظر الجميع في إعادة إحياء مشروع "إيست ميد" أو مشروع غاز شرق المتوسط هذا المشروع الذي كانت الإدارة الأميركية قد أعلنت تخليها عنه في مطلع يناير ٢٠٢٢م وأصبح الآن بمثابة طوق النجاة لأوروبا، وطريق إعلان الصلح بين المتحاربين في الشرق الأوسط لجني الأرباح.

الإدارة الأميركية كانت ترى أن هذا الخط البالغ طوله ١٨٧٢كم يواجه صعوبات كبيرة مثل عرقلة تركيا المستمرة لخطوات التنفيذ، وأيضاً ضعف الجدوى الاقتصادية مقارنة بإرتفاع تكاليف الإنشاء والانتاج وكما يرى آموس هوكستين مساعد وزير الخارجية الأميركي لشؤون الطاقة فإن الجانب السياسي للمشروع يطغى على الجانب المالي ويرى بعض المراقبين أن الولايات المتحدة أولى بها أن تركز على تصدير غازها هي إلى أوروبا بدلاً من دعم مشروع قد ينافس تطلعاتها في ذلك على الأخص بأن الخبراء يرون أن المخاطر البيئية كبيرة جداً مقارنة بتوقعات أن الخط سيؤمن مامقداره واحد ونصف في المائة من احتياجات أوروبا وعلى أفضل التوقعات ١٠٪ ، ولكن الإتجاه الآن رغم تردد الدعم الأميركي للدول التي شكلت منتدى غاز الشرق المتوسط والذي هو عبارة عن هيئة تشكلت في يناير٢٠١٩م في القاهرة بهدف إنشاء سوق غاز إقليمي في منطقة الشرق الأوسط وتأمين العرض والطلب للدول الأعضاء وهم مصر -اليونان -فلسطين -الأردن -قبرص -إسرائيل -إيطاليا وفرنسا، وأعضاء مراقبون هم الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة والإمارات العربية المتحدة، أما المرشحون الأكبر للإنضمام بعد الأزمة الأوكرانية فهم تركيا التي كانت تعرقل مشاريع هذا المنتدى والمملكة العربية السعودية التي أصبحت تجاهر بمواقف مستقلة وبعيدة

عن رغبات الإدارة الأميركية التي دأبت على انتقاد النظام السعودي فيما يختص بملفات حقوق الإنسان والشيعة وحرب اليمن. ودخلت السعودية شريكاً في مشاريع توليد الهيدروجين الأخضر مع القاهرة التي تسعى إلى تصديره لأوروبا أيضاً دخلت شريكاً في محطة جديدة لإسالة الغاز في مصر إضافة للمحطتين الموجودتين حالياً وهما الوحيدتان في الشرق الأوسط، وقد طرح أيضاً مرور أنبوب للغاز يمر من إسرائيل لتركيا وهذا يخفض تكلفة أنبوب الإيست ميد من ٧مليارات دولار إلى ٢,٥مليار دولار إذا مر الخط من الجانب التركي من قبرص ،ولكن أوروبا لا تنظر لهذا التحويل في الخط بإرتياح خوفاً من أن تخرج من الهيمنة الروسية للهيمنة التركية على سلاسل الإمداد بالطاقة ويفضلون عليه المسار الذي يمر من شمال اليونان والذي بدأ في إنشائه فعلاً إضافة إلى الخيار الآخر وهو الاعتماد على المرور عبر مصر وهو أيضاً مسار أوروبي أكثر تفضيلاً وأكثر واقعية وأقل تعقيداً خاصة مع إمتلاك مصر محطات تسييل الغاز التي ستمكن المنتجين من تحويله عبر أنابيب صغيرة ثم نقله بعد تسييله عبر الناقلات البحرية، إضافة إلى أن مصر تمتلك حقل ظهر وهو أكبر الحقول البحرية في شرق المتوسط إذ يبدوا هذا المسار أقل كلفة بكثير وأسرع وأسهل من النقل عبر الأطلنطي من الولايات المتحدة.

أضف لذلك إحتياطيات النفط والغاز في ليبيا والتي تسيطر عليها تركيا والتي من الممكن أن تدخل في المعادلة في حالة الصلح مع المنتدى والذي يبدو أن تركيا راغبة فيه بقوة وتحاول دخوله من البوابة السعودية، يبدو ان الجميع مصر على تقاسم الأرباح رغم الغياب الأميركي وإن كانت الشركات الأميركية هي الأخرى موجودة على الساحة من خلال حقوق التنقيب، فشركة شيفرون الأميركية أعلنت اعتزامها حفر البئر الاستكشافي الأول في حقل نرجس شرق المتوسط نهاية العام الحالي واستثمارات أخرى لهالبيرتون وأكسون موبيل وشركات أخرى، إضافة إلى الشركات البريطانية والإيطالية والفرنسية ويباركون صلح فرقاء الشرق الأوسط الذين يعززون بهذا التعاون الاقتصادي مايرونه ضرورة تعاون استراتيجي عن طريق ما يسمى بالناتو العربي.

الذي يبدو وأن الأهم بالنسبة للدول العربية هو المشاركة في منتدى شرق المتوسط والمراقبة له لدرجة أن أحداً من هذه الدول لم يتذكر طرح موضوع اكتشافات بريتيش بتروليوم للغاز أمام قطاع غزة التي مر عليها أكثر من عشر أعوام وتكفي لسد احتياجات غزة والضفة بدلاً من الاعتماد على إسرائيل ومصر بنسبة أُقل في سد احتياجاتها، والذي ترفض إسرائيل استغلاله بالرغم من عضوية كل من فلسطين وإسرائيل في المنتدى، بدلاً من ذلك يرى الرئيس التركي رجب طيب أردوغان "أن سبل الدفاع عن القضية الفلسطينية تمر عبر إقامة علاقة منطقية ومتوازنة مع إسرائيل"، كما يرى المدير التنفيذي لشركة شيفرون مايكل ويرث أن الشرق الأوسط بدأ يدخل عصر مصالحة يجعل

التنقيب عن الغاز الطبيعي مثالياً وهو يجزم بعد إقامة العلاقات الرسمية بين إسرائيل والإمارات العربية، "إن العلاقات التجارية والدبلوماسية في شرق المتوسط بدأت تصبح أكثر تقنيناً وقوة وهذا اتجاه يبشر بالخير للمنطقة".

في منتدى الشرق هذا تبدو إسرائيل الفاعل الأكثر ديناميكية على الأخص في البعد الجيوبوليتيكي ولذلك يبدو أن الجميع يحاول التقارب معها وهو شيء كانت محرومة منه على مدار عقود، مصر المأزومة إقتصادياً والتي تعاني من مشاكل الديون تبدو الأوفر حظاً كفاعل إقتصادي مع كبر حجم اكتشافات الغاز فيها ووجود القدرة اللوجستية لتوليد مصادر أخرى للطاقة ولذلك فهي حريصة على التقارب بين جميع الأطراف، أما تركيا التي لم تحظى بالكثير من اكتشافات الغاز فهي تحاول استغلال موقعها وسيطرتها على شمال قبرص لتصبح جزءً من المعادلة راضية بالتضحية والتقارب مع مصر- إسرائيل - اليونان ودول الخليج والتي حرصت على حضور مجموعة من مؤتمرات وزراء خارجية مايسمى بالناتو العربي التي عقدت تباعاً في النقب وشرم الشيخ والعقبة، فهي تعول أيضاً على قوة إسرائيل العسكرية في مواجهة إيران العدو المشترك من وجهة نظرهم بعد التقارب الأميركي معها واتساع احتمالية الوصول لرفع العقوبات عنها في مفاوضات فيينا.

القمم تمخضت عن لجان لمواجهة تهديدات إيران في الشرق الأوسط وشبكة للإنذار المبكر والاتفاق على الانعقاد بشكل دوري والتنسيق بين المجتمعين وهم مصر – الإمارات – البحرين – المغرب وإسرائيل بحضور الولايات المتحدة ودعم من المملكة العربية السعودية مما سيقلب موازين القوى في الشرق الأوسط وفي الخليج على الأخص لمصلحة دوله أمام إيران، على سبيل المثال في رأي أمين عام المجموعة النيابية الأطلسية فإن هذا التحالف سيمتلك ١١٥٥طائرة في مواجهة ١٤٠طائرة إيرانية مما يتيح له التفوق باكتساح على آلة الحرب الإيرانية في حالة دخول أي حرب، هذا التحالف تم في إطار الاتفاقيات الإبراهيمية وبالموازاة مع الاتفاقيات الإقتصادية لضمان ارتباط مصلحي يقلل من إمكانية حدوث أي نزاع في المنطقة، وفي ختام قمة النقب فتح وزير خارجية إسرائيل الباب أمام الفلسطينيين أيضاً للمشاركة وأعلن أن قمة النقب ستتحول إلى منتدى دائم وأن هذا صنع للتاريخ عبر بناء هيكل إقليمي جديد قائم على التقدم والتكنولوجيا والتسامح الديني والأمن والتعاون الاستخباراتي.

نائب رئيس مجلس الأمن القومي الإسرائيلي الأسبق عيران عتسيون وصف مايجري بقوله "يجري الحديث عن إنجاز مهم ينسب إلى لابيد وبينيت والحكومة بأسرها، إن التغيرات التكتونية بين القوى العظمى، وصعود الصين، والغزو الروسي لأوكرانيا، وفقدان الاهتمام الأميركي بالشرق الأوسط والإتفاق النووي الوشيك، كل ذلك دفع الدول العربية وإسرائيل للتقارب".

الخلاصة

القضية الفلسطينية في تراجع مستمر ورؤية إسرائيل في أن مشاريع الغاز تربط محور السلام ببنية تحتية إقليمية مشتركة تتحقق رويداً رويداً، وما تريده الولايات المتحدة من أوروبا وهو أن تتخلص من تبعية الطاقة لروسيا وتقويض " نورد ستريم ١ و٢ " يحدث رغماً عن أنف الأوروبيين وبخسائر قد تدفع بإقتصاداتهم للإنهيار، رئيس الوزراء الهنجاري قال "يبدو أن أوروبا تدفع ثمناً للعقوبات أكبر من الذي تدفعه روسيا بكثير"، فيما أعلنت المفوضية الأوروبية أن معدل النمو في منطقة الاقتصاد الأوروبي وصل إلى الصفر، ألمانيا في موقف إقتصادي صعب فإضافة إلى الغاز والبترول لديها أيضاً نقص في توريد خام البلاديوم المهدد لصناعة السيارات والذي تحتكره روسيا، أوروبا تبدو وكأنها تعض على لسانها على الأخص وأن حزم العقوبات التي تجاوزت العشرة آلاف عقوبة لم تفت في عضد بوتين رغم أنها الأكبر التي فرضت على دولة في التاريخ الحديث على العكس لقد تعهد بعدها بالانتصار على ماأسماه النازية وإنقاذ العالم منها كما فعل السوفيت في١٩٤٥م.

ماالذي يدفع أوروبا إلى ما يشبه الإنتحار؟؟!

يدعي معظم المحللين الغربيين بأن النصر لأوكرانيا حتى ولو اعترفوا ضمناً بميول نظامها العنصرية ضد مواطنيه ذوي الأصول الروسية هو بمثابة الأمر الحتمي للمنطقة الأوروبية بأكملها إذا أرادت العيش بسلام والعمل على النمو والرخاء ومواجهة التحديات الدولية وأن هذه الحرب هي بمثابة صراع استعماري توسعي!!! ينبغي أن يكون فيه النصر لصاحب الأرض المحتلة إيذاناً بإنتهاء عصر بوتين وعقيدته ونهاية للمطالبة الروسية الدائمة بامتيازات في جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، الأوروبيون يدعون أن دعمهم لأوكرانيا في هذه الحرب رغم خسائرهم الفادحة ستحول دون نشوب حروب أخرى في المستقبل كما يقولون أنه سوف يسهم في استعادة التوازن في الأمن الغذائي العالمي مما يجنب المجاعات في عدة دول على الأخص أن روسيا لعبت بهذه الورقة وأغلقت جميع الموانئ الأوكرانية وبذلك أوقفت أغلب شحنات القمح.

الحقيقة أنه باستثناء دول مثل بولندا وفنلندا والسويد والنرويج الذين يعانون بحكم موقعهم فوبيا عالية من وجود روسيا قوية على حدودهم فإن أسباب أوروبا في دعم حرب بالوكالة تشن في أرض أوكرانيا تبدو واهية إلا من السبب الأهم ألا وهو تجاوز بوتين الخطوط الحمراء بشن حرب في قلب القارة العجوز هي الأولى منذ انهيار الستار الحديدي، ضحاياها من الأوروبيين البيض الذين يشبهون المواطن الفرنسي أو الألماني أو البريطاني، إنه يكسر الحاجز الذي أقامته القارة حول نفسها بدعوى أنها

فوق الصراعات الدموية وحاملة المدنية للعالم (إنهم العالم المتحضر والباقي هم العالم الهمجي).

إحدى الأمور التي كشفتها الحرب الروسية الأوكرانية هي النظرة الغربية وليس الأوروبية فقط لما يعرف بالإنسانية التاريخية (النحن) والإنسانية الجغرافية (الآخرون)، فالحاجز بين الإنسان التاريخي الأبيض والإنسان الجغرافي المحصور في منطقة الظلام خارج الإمبراطورية الرومانية في أوروبا وخلفائها في الولايات المتحدة، حتى الآن لم يستطع هؤلاء الورثة تجاوز الحاجز بين المواطن الروماني المتحضر الإنسان ذو القيمة والآخر الهمجي البربري العدو المجهول الذي بلا قيمة، تصريحات المسؤولين الأوروبيين من بداية الحرب كانت تصب في هذا المنطلق لعل هذا يفسر لماذا لم ترى أوروبا مايستدعي كل هذا الغضب والعقوبات والخسائر في الحرب على سوريا ولبنان وأفغانستان ...إلخ، كما أنها تدعم وتسعى دائماً لكل سبل التعاون والدعم للإحتلال الإسرائيلي فمن حق إسرائيل الدفاع عن نفسها ومصالحها !! بالتأكيد الفلسطينيون لايشبهون الأوروبيين أيضاً، المذابح التي ارتكبتها القوات الفرنسية في مالي مؤخراً والتي دفعت السلطات المالية لمطالبة هذه القوات بالانسحاب من أراضيها مدعومة بتأييد روسي لم تلاقي أي استنكار أوروبي بل دفعت الإتحاد الأوروبي للأسف لقطع التعاون مع مالي وإنهاء أي أعمال لها على أراضيها.

روسيا أيضاً تجاوزت خطاً محظوراً آخر عندما ذكر وزير خارجيتها سيرجي لافروف بالأصول اليهودية لهتلر ماأثارعاصفة من الاستنكار الأوروبي والأميركي والإسرائيلي بالطبع، كما أثارت الرعب أكثر من الحفيظة لدى المسؤولين الإسرائيليين من ظهور تساؤل مقارنة الصهيونية بالنازية على الساحة مادفع رئيس الوزراء الإسرائيلي نفتالي بينيت لمناشدة جميع الأطراف بألا يقحموا الهولوكست والأصول اليهودية لزيلينسكي في الصراع واصفاً أي تشبيه لأي مأساة تحدث للأوكرانيين أو غيرهم بأنها إهانة لعذابات ومعاناة اليهود، وذكر أن الرئيس الروسي اعتذر له بشخصه عن تصريحات لافروف ورفض المتحدث باسم الكرملين تأكيد ذلك.

بينما يرتفع صوت العرق والأصل والوجود والتفوق فوق أي صوت في العالم اليوم في أجواء تبدو قريبة من أجواء الحروب العالمية، في الشرق الأوسط لاصوت يعلو فوق صوت الناتو العربي الإسرائيلي والمنتديات الاقتصادية المشتركة وسبل التعاون المشترك والأمني وتبدو البوصلة العدائية متجهة بكليتها لإيران والشيعة وحروب المذاهب والصراعات الدينية لتصبح إسرائيل هي الحليف الموثوق وأقصى مايمكن فعله للفلسطينيين هو تحسين ظروف أسرهم إلى حد ما، وعدم الإقتراب من الداخل الفلسطيني الذي لم يعد من أولويات الأشقاء.

ومازالت العجلة تدور، ومازالت الأحداث تتلاحق، ومازال مستقبل العالم غامضاً في هذه اللحظات.

الأزمة الدوليّة الروسية الأوكرانية: من النشأة.. حتى الحرب الطاحنة

عزيز محمود العصا

مقدمة

لا يوجد تعريف محدد للأزمة الدولية. إلا أنها حدث ما تقوم به دولة ما، بشكل مفاجئ أو بالتتابع والتدريج، تتداعى معه الأحداث سريعًا، ويصاحبه حالة من التوتر وعدم الاستقرار في منطقة ما أو على مستوى العالم أجمع. ويمكن القول بأنه: موقف يحدث فجأة؛ بأبعاد سياسية، واقتصادية، وعسكرية، ينجم عنه أن تتحول العلاقات والتحالفات بين الدول إلى صراعات.

ويمكن أن نجمل الأزمة الدولية بأنها: «ذلك التكثيف الشديد لطاقات الاختلال وعدم الاستقرار داخل النظام الدولي، وتشتمل على قدر من الخطورة المفاجئة وغير المتوقعة، وإنها بمثابة نقطة تحول أو حد فاصل بين وضعين»[١].

تولد الأزمة وتنمو وتتطور حتى تصل إلى ذروتها. وهناك من يرى بأن الأزمة تمر بالمراحل الآتية: ١) **مناورات ما قبل الأزمة**، تتضمن الحرب الباردة، والتعريض السياسي، والاقتصادي والدبلوماسي، والتصريحات الرسمية. ٢) **بداية الأزمة التقليدية**، وتتضمن تشدد المواقف وتواجه الإرادات وإظهار القوة. ٣) **بلوغ الأزمة درجة الحدة**، وتتضمن تخفيض التمثيل الدبلوماسي، وتجميد العلاقات، وربما بعض الأعمال الحربية التقليدية المحدودة. ٤) **إعلان الحرب التقليدية**، وإجلاء السكان من المناطق الحدودية، ورفع الاستعداد العسكري إلى أقصاه. ٥) **تحول الحرب التقليدية إلى صراع مسلح مركزي**، في مناطق محددة. ٦) **إعلان الحرب الشاملة**، وخلالها يكون هناك صراع مسلح، وقد وصل إلى درجة شديدة العنف. ٧) **بداية حرب المدن**، ويصبح الصراع المسلح حربًا شديدة الخطورة، تستخدم فيه الأسلحة كافة؛ تقليدية وغير تقليدية[٢].

سنناقش في هذا المقال «الأزمة الأوكرانية-الروسية» كأزمة دولية من حيث: أسبابها، وأطرافها، ومصالح كل طرف، وسلوكيات كل طرف ودوره في تأجيج هذه الأزمة، وما آلت إليه الأزمة حتى تاريخه، والجهود المبذولة للحل، وتنتهي الورقة بالنتائج المتوقعة لهذه الأزمة، التي تمر هذه الأثناء في المرحلتين السادسة والسابعة من المراحل المذكورة أعلاه، على المديين القريب والبعيد.

نبذة تاريخية:

أوكرانيا دولة أوروبية شرقية، تقع في جنوب شرق أوروبا ضمن السهل الأوروبي الشرقي، وهي أكبر الدول التي تقع أراضيها بالكامل داخل أوروبا، وتبلغ مساحتها ٦٠٣,٧٠٠ كيلومتراً مربعاً[٣]. يحدها من الشمال بلاروسيا، ومن الشرق روسيا ومن الجنوب البحر الأسود وبحر أزوف، وأما حدودها الغربية فتشترك فيها كل من المجر وسلوفاكيا وبولندا ومن الجنوب الغربي رومانيا ومولدافيا[٤].

في عام ١٦٥٤م تم توقيع معاهدة بيرياسلاف، التي هدفت إلى توحيد دولة أوكرانيا -كان يطلق عليها هتمان القوزاق- مع روسيا القيصرية، وهي الاتفاقية التي جعلت أوكرانيا جزءًا لا يتجزأ من روسيا القيصرية[٥]. وفي ١٩١٧/١٠/٢٥م حدثت في روسيا ثورة سميت بـ «ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى»[٦]، أنشئ على إثرها الاتحاد السوفياتي، الذي قام على إرث امبراطورية روسيا العظمى، عاصمته «موسكو» امتدّ من بحر البلطيق والبحر الأسود إلى المحيط الهادئ يتألف من (١٥) جمهورية، هي: أرمينيا، أذربيجان، بيلاروسيا (الآن روسيا البيضاء)، إستونيا، جورجيا، كازاخستان، قرغيزيا (الآن قيرغيزستان)، لاتفيا وليتوانيا ومولدافيا (الآن مولدوفا) وروسيا وطاجيكستان وتركمانستان وأوكرانيا وأوزبكستان[٧].

أصبح الاتحاد السوفياتي دولة عظمى، إلى جانب الولايات المتحدة، والصين، وفرنسا، وبريطانيا، وقاد ما أطلق عليه المعسكر الشرقي المناوئ للمعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، فكانت «الحرب الباردة» بين المعسكرين، ولكل من المعسكرين منظومة سياسية وعسكرية؛ تمثلت بحلف الناتو الذي أنشأته الولايات المتحدة[٨]، وحلف وارسو الذي أنشأه الاتحاد السوفياتي[٩]. وفي أواسط ثمانينات القرن العشرين وصل إلى سدة الحكم في الاتحاد السوفييتي ميخائيل غورباتشوف، الذي قاد هذه الدولة العظمى إلى التفكك والانهيار.

ففي ٨ كانون الأول/ ديسمبر» ١٩٩١ وقع عدد من القادة منهم (يلتسين) على اتفاق بإنهاء الاتحاد السوفييتي، وجاء في إعلانهم أن الاتحاد السوفييتي «لم يعد له وجود من حيث القانون الدولي وكواقع جيوسياسي»، وتوقف نشاط أجهزته[١٠]. وتبع ذلك إعلان استقلال جمهوريات الاتحاد السوفييتي الخمسة عشر التي تأسست في أعقاب تأسيس «كومنولث الدول المستقلة». وهكذا انتهت الحرب الباردة[١١].

في هذا الخضم، أعلنت أوكرانيا استقلالها وبسطت سيادتها على شبه جزيرة القرم التي كانت قد ألحقت بها قانونيا عام ١٩٥٤ وكذا سيطرتها على أسطول البحر الأسود[١٢]. علمًا بأن منطقتي أوديسا والقرم في جنوب أوكرانيا لم تكونا تاريخياً جزءًا من أوكرانيا، وإنما كنتيجة للحرب بين روسيا وتركيا، أصبحت هذه المناطق جزءًا من الإمبراطورية الروسية في نهاية القرن الثامن عشر. كما أن غرب أوكرانيا كانت تتبع بولندا وتم توحيدها مع الجزء السوفييتي من أوكرانيا عام ١٩٣٩[١٣].

الأزمة الدوليّة الروسية-الأوكرانية- النشأة والتطور:

وفقًا لما ورد أعلاه من حقائق تتعلق بالامبراطورية الروسية ودورها على المستوى الدولي، في مواجهة أميركا وأوروبا، فإنه من الطبيعي أن تستمر روسيا الاتحادية بدور سياسي كدولة عظمى ورثت مكان الاتحاد السوفياتي المنحل. وقد وجدت الباحثة فيرونيكا فرنسيس أن الحقائق الجيوسياسية الروسية تنبع بصفة أساسية من ثلاثة محاور، هي[١٤]:

أولًا: مقومات الجغرافيا السياسية: ١) المنافذ إلى المياه؛ فليس لها منافذ بحرية مفتوحة. ٢) **المناخ والديمغرافيا والموارد**؛ إذ أن ٧٥٪ من الروس يتكثفون في روسيا الأوروبية التي تمثل ٢٥٪ من مساحة روسيا، مما جعلها تعتبر الدول المحيطة -دول أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى- مجالًا جيوسياسيًّا لا يمكن التفريط فيه، واستغلالها كإطار دفاعي لها على مر عصورها المختلفة. ٣) **تغير الخريطة الروسية على مر التاريخ.**

ثانيًا: التهديدات الأمنية التي يكون مصدرها الدول المجاورة لروسيا؛ إذ يظهر من الخريطة رقم (١) أن حلف الناتو ينشر قواعده وأسلحته، لا سيما الدروع الصاروخية على مساحة واسعة جدًّا مقارنة مع روسيا التي تنحصر في حدود ضيقة[١٥].

ويرى الفكر الجيوسياسي الروسي بـ «**نظرية الأوراسية**»؛ إذ يرتبط مفهوم أوراسيا بتقدير واقع روسيا كونها ليست غربًا، لا تنتمي إلى أوروبا، وليست شرقًا، لا تنتمي إلى آسيا. وإنما **هي واقع جغرافي وإثني وثقافي متميز يربط بين الشرق والغرب. ووفقا لذلك، فإنه مقدر لروسيا أن تكون إمبراطورية أوراسية انطلاقًا من جغرافيتها وثقافتها**. أي أن الشعب الروسي شعب إمبراطوري بالطبع والتاريخ، ولا يمكن أن يُحبس في حدود دولة قومية. **ووضع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين النظرية الأوراسية قيد التنفيذ بشكل تدريجي منذ توليه السلطة عام ٢٠٠٠**، حيث تم إدماج الأوراسية في مبادئ السياسة الخارجية الروسية، وتكرارها في الخطابات السياسية. وكان للأيديولوجية الأوراسية تأثير واضح في أنماط التحالفات الإقليمية بين روسيا ودول الجوار انعكس في تأسيس الاتحاد الاقتصادي الأوراسي بين روسيا وبيلاروسيا وكازاخستان وأرمينيا وقرغيزستان عام ٢٠١٥[١٦].

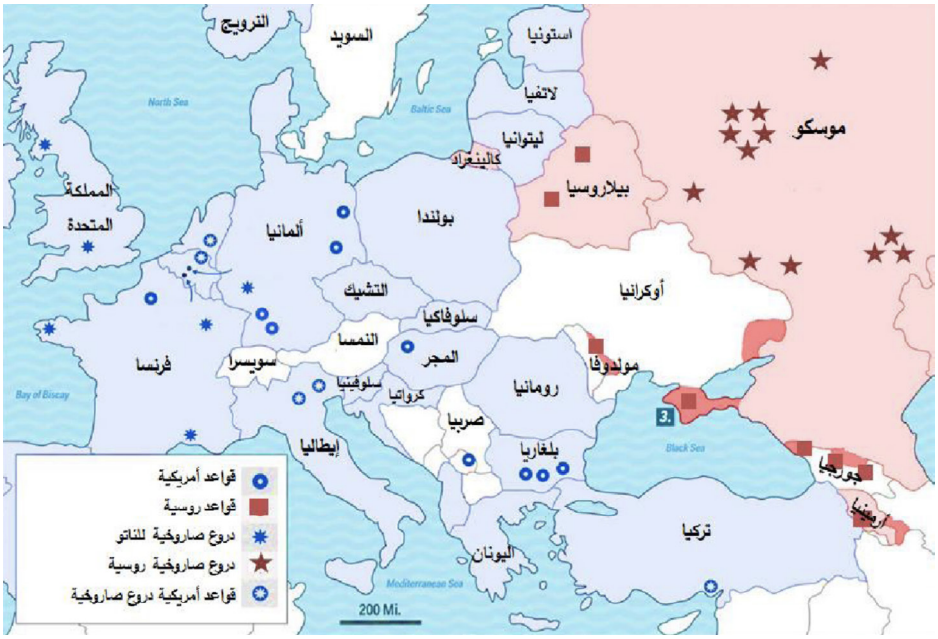

خريطة (١): توزيع القواعد والدروع الصاروخية الروسية والغربية على الحدود الغربية[١٧]

يمكن فهم موقف روسيا الاتحادية باعتبارها أن الغرب، تحديدًا حلف شمال الأطلسي، **أبرز التهديدات على أمنها القومي من المنظور الجيوسياسي**. كما يمكن تحديد المحددات الجيوسياسية المحورية لروسيا الاتحادية في: **أولًا:** ضمان الوصول إلى المياه الدافئة .**ثانيًا:** استغلال الموارد المعدنية في صالح الاقتصاد الروسي. **ثالثًا:** تقوية رباط الصلة بين روسيا والقوميات الروسية المنتشرة خارج حدودها. **رابعًا:** تأمين حدودها الجغرافية، خاصة الغربية، من التهديدات. وتعد قضية أمن الطاقة إحدى القضايا الجيوسياسية المحددة للعلاقات الطاقوية الروسية الأوروبية؛ ترتبط روسيا وأوكرانيا بعلاقات اقتصادية تتسم بالاعتماد المتبادل، قائمة على أساس الطاقة، والغاز الطبيعي بصفة خاصة[١٨].

يتضح من الخريطة (٢) الأهمية القصوى للأراضي الأوكرانية في مجال نقل الغاز الطبيعي إلى أوروبا. إذ تضخ روسيا ما يزيد عن ٨٠٪ من إجمالي صادراتها من الغاز الطبيعي المصدر إلى أوروبا في أنابيب تمر عبر أوكرانيا[١٩].

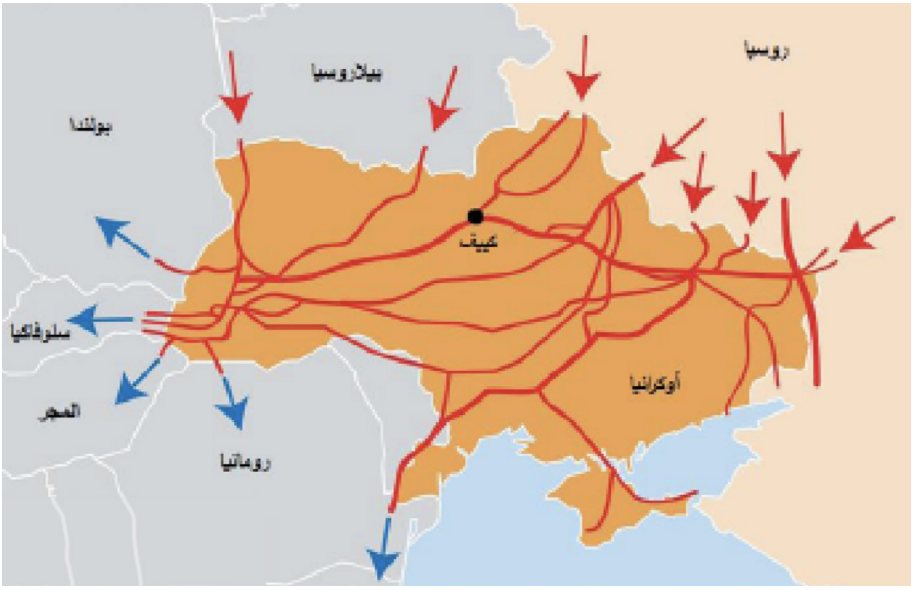

خريطة (٢): شبكة أنابيب نقل الغاز الطبيعي من روسيا إلى أوروبا عبر أوكرانيا[٢٠]

وهذه المحددات هي التي توجه ترتيب روسيا لأولوية دول الجوار بما يتناسب مع مصالحها الحيوية. ومن حيث أوكرانيا كدولة جوار لروسيا، **تعتبر بيلاروسيا وأوكرانيا الدولتين الوحيدتين على الحدود الغربية الشمالية لروسيا اللتين ليستا عضوين في حلف الناتو، وتشكلان مساحة عازلة بين روسيا والغرب.** وبينما تعد بيلاروسيا دولة حليفة لروسيا في الأساس، **تزداد أهمية أوكرانيا كونها تجمع بين كل المحددات الجيوسياسية الروسية**؛ فلا تستضيف قواعد عسكرية أميركية، كما تسكنها نسبة معقولة من الروس، وتطل على البحر الأسود، الذي يحتضن الميناء الأهم لروسيا، وتتمركز شبكة الغاز الأكبر لروسيا على الحدود الروسية-الأوكرانية، وبالتالي أي تغيير في هذه المحددات يهدد روسيا أمنيًا[٢١].

يرى الغرب في أوكرانيا أنها الأرض التي من خلالها يمكن نقل النموذج الغربي إلى روسيا ومن ورائها القوقاز وآسيا الوسطى، ومن أجل التمهيد الفعلي للسيطرة على الخيرات العظيمة التي تحويها أراضي ما يعرف في الغرب بـ «**أوراسيا الأطلسية**» حيث تتوفر مناطق آسيا الوسطى لوحدها على أكثر من٣٤ ٪ من احتياطي الطاقة العالمية. كما يرى الغرب أن أوكرانيا هي مفتاح السيطرة على طريق

الحرير الذي يعتبر مؤشر السيطرة الحقيقية على العالم، أي أن السيطرة على الأراضي الواقعة ما بين أوروبا الغربية وأوروبا الشرقية مرورًا بالقوقاز وآسيا الوسطى وصولا إلى الهند والصين، إنما يمر عبر السيطرة على أوكرانيا ومنافذها البحرية[٢٢].

لذلك، واستنادًا إلى الحقائق الجيوسياسية الروسية الموصوفة أعلاه، ووفقًا **لنظرية الأوراسية التي يؤمن بها الرئيس الروسي**، أخذت روسيا تراقب تطورات علاقة أوكرانيا مع الغرب بكثير من الحذر والتمحيص، لا سيما فيما يتعلق باحتمالية انضمامها إلى حلف الناتو، وعلاقاتها العسكرية والاقتصادية مع أوروبا الغربية، المنضوية تحت إمرة هذا الحلف. فأخذ الصراع يتأجج بين البلدين الجارين:

(١حرصت روسيا، منذ تفكك الاتحاد السوفييتي في ديسمبر١٩٩١، على إبقاء أسطولها في البحر الأسود هناك، وذلك عن طريق إبرام اتفاقيات مع الحكومات الأوكرانية المتعاقبة، كان آخرها تلك الموقعة في **أبريل ٢٠١٠** بين الرئيسين الروسي والأوكراني، والتي تقضي ببقاء الأسطول البحري الروسي في القرم لغاية عام ٢٠٤٢ مقابل دفع روسيا مبلغ ١٠٠ مليون دولار سنويا وتنزيل سعر الغاز المصدر إلى أوكرانيا بنسبة ٣٠٪[٢٣].

(٢بدأت وقائع الأزمة الأوكرانية الراهنة في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٣ على شكل احتجاجات شعبية واسعة ضد رفض حكومة الرئيس الأوكراني فيكتور يانكوفيتش، القريب من موسكو، توقيع اتفاقية للتجارة الحرة والشراكة معّ الاتحاد الأوروبي، وذلك لمصلحة الدخول ضمن الاتحاد الجمركي الروسي[٢٤].

(٣في ٢٠١٤/٠٢/٢٢، وأمام ضغط الشارع، قام البرلمان الأوكراني بتنحية الرئيس فيكتور إيانوكوفيتش الذي فرّ من البلاد[٢٥]. وتبع ذلك في نفس الشهر عام ٢٠١٤ احتلال الاتحاد الروسي شبه جزيرة القرم المتمتعة بالحكم الذاتي ومدينة سيفاستوبول. علمًا بأنهما، جزء لا يتجزأ من الإقليم السيادي لأوكرانيا. وفي تلك الأجواء جرى التوقيع على اتفاق الشراكة بين أوكرانيا والاتحاد الأوروبي، بشقين: سياسي واقتصادي[٢٦].

(٤وفي مطلع عام ٢٠١٥ اعتمد البرلمان الأوكراني «نداءً إلى الأمم المتحدة، والبرلمان الأوروبي، والجمعية البرلمانية لمجلس أوروبا، والجمعية البرلمانية لمنظمة حلف شمال الأطلسي... الخ فيما يتعلق بالإقرار بأن الاتحاد الروسي دولة معتدية[٢٧].

(٥وفي ٨ حزيران/ يونيه ٢٠١٧ اعتمد البرلمان الأوكراني قانونًا يقضي بالاندماج في الفضاء الأمني الأوروبي الأطلسي بغية الانضمام إلى منظمة حلف شمال الأطلسي أحد الأولويات في سبيل تحقيق المصلحة الوطنية لأوكرانيا[٢٨].

(٦في ٢٠٢٢/٠٢/٢١ اعترف الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، باستقلال جمهوريتَي دونتسك ولوغانسك

المعلنتين من جانب واحد في منطقة دونباس الواقعة شرقي أوكرانيا بمحاذاة حدود روسيا، كما أصدر الرئيس الروسي تعليمات إلى قيادة جيشه كي ترسل وحدات عسكرية إلى الجمهوريتين في مهمة «الحفاظ على السلام"[٢٩].

(٧في ٢٠٢٢/٠٢/٢٤ انطلقت العمليات العسكرية الروسية.

الأزمة الدوليّة الروسية-الأوكرانية- تصل ذروتها:

بهذا، نجد أن الحرب الحالية بين روسيا وأوكرانيا ليست مفاجئة للمراقب، وإنما هي مشتعلة -بشكل أو بآخر- منذ عام ٢٠١٤. وأما انطلاقتها على مستوى العمليات العسكرية فقد جاء في ٢٠٢٢/٠٢/٢٤؛ إذ وصلت الأزمة إلى ذروتها بعد التدرّج الموصوف أعلاه، عندما أعلن الرئيس الروسي انطلاق هذه الحرب بقوله:

«**تتطلب الظروف منا إجراءات حازمة وفورية (...) فقررت القيام بعملية عسكرية خاصة، هدفها حماية الأشخاص الذين عانوا خلال الثماني سنوات من سوء المعاملة والإبادة الجماعية من قبل نظام كييف**»[٣٠].

منذ تلك اللحظة بدأ تحليق الطيران الحربي في الأجواء الأوكرانية، تبعها انفجارات في عدد من المدن الأوكرانية الكبرى، لا سيما في شرق البلاد، مستهدفة مطاراتها والقواعد العسكرية فيها، وتوجه الأوكرانيون إلى الملاجئ[٣١].

تبع ذلك الغزو العسكري على الأرض، الذي يستهدف احتلال العاصمة الأوكرانية كييف؛ لإحكام السيطرة على الأراضي الأوكرانية. ونجم عن ذلك أعداد من القتلى من الأوكرانيين -لا يوجد إحصائيات موثوقة لأعدادهم- كما شرع الأوكرانيون بالهرب ومغادرة بلادهم إلى دول الجوار، ثم توزعوا في أقطار العالم المختلفة. ففي ٢٠٢٢/٥/٥م أعلنت بولندا عن استقبال ما يزيد عن (٣) ملايين لاجئ فارين من أوكرانيا منذ بداية العملية العسكرية الروسية في ٢٠٢٢/٠٢/٢٤[٣٢].

الأزمة الدوليّة الروسية-الأوكرانية- أطراف النزاع:

يتضح مما سبق أن أطراف هذه الأزمة الدولية هي مجموع الدول العظمى التي تشكل عصب الأمم المتحدة. وإذا ما وزعنا تبعية الدول الصغرى على الدول العظمى، نجد أن العالم بأجمعه هو طرف في هذه الأزمة؛ بشكل مباشر أو غير مباشر. وأما اللاعبيْن الرئيسيْن فهما روسيا الاتحادية -التي تسعى إلى توفير أمن الطاقة وتأمين حدودها وانتزاع دور رئيس في المنطقة وعلى مستوى العالم، من خلال السيطرة على أوكرانيا، وحلف الناتو بقيادة الولايات المتحدة، الذي يطمح، بل يخطط، للسيطرة على

العالم، من خلال «امتلاك» الأرض الأوكرانية. وبين هذين اللاعبيْن تطورت الأحداث، في غياب وسطاء أقوياء قادرين على إلزام أي طرف بالتهدئة، أو التراجع عن خططه.

أما الأدوار التي يقوم بها أطراف النزاع، فهي: روسيا الاتحادية تقاتل على الأرض الأوكرانية، وتحتل المدن –الواحدة تلو الأخرى- والناتو لا يتدخل عسكريًّا، وإنما يدعو الأوكرانيين إلى الصمود وأنه سيزوّدهم بوسائل حماية من الأسلحة الكيماوية. وأطراف حلف الناتو يقررون حزمًا من العقوبات الاقتصادية على روسيا -على بلاروسيا أيضًا- التي تفرض على روسيا عزلة ماليَّة. ومساعٍ لعقد قممٍ لبحث تداعيات الحرب الروسية على أوكرانيا، بدعوة أوكرانيا كعضو مراقب في اجتماعات الناتو، في حين أن الرئيس الأوكراني يستجدي «الناتو» الدعم والسلاح مدعيًا أنه «يدافع عنهم»...[٣٣].

هذه آخر الأخبار، وأما الخاسر الوحيد من هذا كله فهم الأوكرانيون الذي توزعوا بين قتيل ومشرّد ومن ينتظر الموت في بيته أو في ملجئه في أي لحظة، والروس الذين دخلوا أتون حرب، ستكون طويلة الأمد، قد تتطور إلى حرب شوارع تحصد المزيد من الأرواح.

وأما الصين، التي تتقاسم مع روسيا حدودا برية تتجاوز أربعة آلاف كيلومترًا، فقد أيدت المطلب الروسي في عدم انضمام أوكرانيا إلى صفوف فلاح لماش سيلطلأ (وتانلا). ذإ يتكامل الاقتصادين الصيني والروسي حيث تذهب مصادر الطاقة والمواد الخام إلى الصين فيما تنتقل المنتجات الصناعية الصينية إلى روسيا. ومن الناحية السياسية، فإن نظامي الحكم في البلدين يعارضان الولايات المتحدة[٣٤]. وأما بالنسبة إلى أوروبا، التي تتزود بالغاز من روسيا، فلا تزال متماسكة مع الموقف الأميركي..

في حين أن المواقف الرسمية للدول العربية عموما، جاءت ضمن ثلاث مجموعات: الأولى: سوريا، أيدت الغزو الروسي وحاولت تبريره. الثانية: انحازت على خجل الى موقف الدول الغربية المندد بالحرب على أوكرانيا مع اعتماد خطاب إعلامي متوازن. الثالثة: فضلت الظهور بموقف التزام الحياد في الصراع[٣٥].

أما "إسرائيل" فقد راوغت في البداية في حسم موقفها وحاولت "مسك العصا من المنتصف"؛ فهي لا ترغب في المجازفة بزعزعة مصداقية سرديتها القائلة بأنها جزء من العالم الغربي، و"واحة الديموقراطية» في منطقة الشرق الأوسط"[٣٦]. ورغم أن السفير الأوكراني لدى إسرائيل أعلن بأن بلاده تعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل وأنها تنوي نقل السفارة الأوكرانية إليها قريبا، إلا أن هناك اعتبارين رئيسيين لاتخاذها هذا الموقف المراوغ، هما[٣٧]:

(١هناك علاقة استراتيجية مع روسيا، تتعلق بمنحها حرية العمل العسكري والأمني على الأراضي السورية.

(٢هناك اتفاق مع روسيا بعدم بيع صواريخ (روسيَّة) إلى إيران، قد تهدد التفوق الجوي الإسرائيلي.

الأزمة الدوليّة الروسية-الأوكرانية- الأثر الاقتصادي:

من المُتوقع أن تمتد تداعيات هذا النزاع، من خلال قنوات إضافية، كالعقوبات والإجراءات المضادة لها، والتحالفات، لتضيف تعقيدات طويلة الأجل إلى منظومة التكامل الاقتصادي العالمي، تدفع نحو المزيد من التفكك الحاصل منذ الأزمة المالية العالمية قبل أكثر من عقدٍ، مروراً بالنزاع التجاري قبل أعوام، وأخيراً بأزمة كوفيد-١٩ ومآلاتها، مما يؤدي إلى المزيد من التضخم وتبعاته، من خلال زيادة أسعار السلع الأساسية بصورة إضافية، لا سيما أسعار القمح. كما أن التداعيات الاقتصادية للغزو الروسي، قد تكون أكثر حدة وخطورة على الاقتصادين الروسي والأوروبي[٣٨].

الاستنتاجات والخاتمة

لمّا كان الغرض الأساسي لإدارة الأزمات الدولية، هو تجنب وصولها إلى مرحلة الصِراع المُسلح، تطوُّرها إلى قتال، لان ذلك إيذان بفشل الإدارة في تحقيق أهدافها[٣٩]. فإن ما يجري على الأرض يؤكد أنه لم يتم التعامُل مع هذه الأزمة وإدارتها إدارة علمية رشيدة مُتكامِلة ومُترابِطة أو التدخُل للمعالجة، لا من قبل أطراف الصراع، ولا من قبل الأطراف التي تدعي الحياد، الأمر الذي دفع بها إلى ما هي عليه الآن من حالة صراع عسكريّ.

استعرض الباحث في هذه الورقة النزاع الروسي الأوكراني كأزمة دولية، فتبيّن أنها ليست مفاجئة، ولا طارئة، وإنما هي أزمة ممتدة زمنيًّا، على مدى ثماني سنوات متواصلة من التوتر والسجال (٢٠١٤-٢٠٢٢)، ومرّت في ستٍّ من مراحل الأزمة الدولية المذكورة في المقدمة، دون أن تصل المرحلة السابعة المتمثلة بحرب المدن التي تستخدم فيها الأسلحة النووية أو الكيماوية، علمًا بأننا ندخل الشهر الرابع لهذه الأزمة الدولية، نسمع تحذيرات و/أو تهديدات قد تصل بالأزمة إلى هذه المرحلة، بخاصة استخدام الأسلحة الكيماوية.

للتعمق في فهم هذه الأزمة ومركباتها وتعقيداتها، قام الباحث باستعراض العلاقة التاريخية بين البلدين الجارين –روسيا وأوكرانيا- والتي تمتد لمئات السنين، ومدى اعتماد كل منهما على الآخر، ليتوصل إلى نتيجة مفادها أنه، من المنظور الجيوسياسي، ليس بإمكان أي منهما الاستغناء عن الآخر، وأن مصلحة أوكرانيا لن تتحقق من علاقاتها مع الأوروبيين رغم الاتفاقيات السياسية والاقتصادية. وأن روسيا التي تتبنى النظرية الأوراسية، لا يمكنها تحقيق ذلك بدون أوكرانيا الواقعة في خاصرتها؛ جغرافيًّا واقتصاديًّا وديمغرافيًّا.

من جانب آخر، تبيَّن أنه يقابل الاستراتيجية الروسية استراتيجية حلف الناتو بقيادة الولايات المتحدة، التي تسعى إلى استكمال السيطرة على العالم وصولا إلى الهند والصين عبر السيطرة على أوكرانيا ومنافذها البحرية. وإن هذا التوجه لحلف الناتو أصبح يهدد السلم العالمي، من خلال تأجيجه للصراع بين روسيا وأوكرانيا، والتهديد باستخدام الأسلحة الكيماوية في مواجهة استخدام روسيا لها. وفي هذا السياق، لا يمكن تجاهل أنّ ما تقوم به أوكرانيا هو حرب بالوكالة، من حيث أن الرئيس الأوكراني يقولها لحلف الناتو بملء الفم: نحن ندافع عنكم. في حين أن الحلف لم يوفر لأوكرانيا –حتى تاريخه- ما يمكّنها من مواجهة الهجوم الروسي وصدّه واستعادة ما تم احتلاله حتى اللحظة!

بقي القول بأن الانعكاسات الاقتصادية لهذه الحرب، إذا ما استمرّت، قد تصيب العالم أجمع بوبال لن ينجو منه أحد.

الهوامش

(١) طريف، "محمد صدام" (٢٠١٧). الأزمة الدولية وطرائق ادارتها دراسة تحليلية لأزمة العلاقات العراقية الأميركية (١٩٩٠-٢٠٣). دراسة حالة. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة الشرق الأوسط. ص: ٢٢-٢٣.

(٢) موسوعة مقاتل من الصحراء الالكترونية (٢٠٢٠). الإصدار الحادي والعشرون. يُنظر الرابط:

"http://www.moqatel.com/openshare/Behoth/Ektesad8/azamat/sec05.doc_cvt.htm (accessed at 012022/05/).

(٣) الأمم المتحدة (٢٠١٨). معلومات عامة عن أوكرانيا. ينظر الرابط:

http://docstore.ohchr.org/ (accessed at 302022/04/).

(٤) دنفر، صفية (٢٠١٩). انعكاسات الأزمة الأوكرانية على العلاقات الروسية الغربية (٢٠١٣-٢٠١٨). رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة محمد خيضر- بسكرة -. ص: ١٩.

(٥) كازانوف، أولجبك (٢٠١٥). مصالح حيوية: الأبعاد التاريخية والاستراتيجية للأزمة الروسية-الأوكرانية. مجلة اتجاهات الأحداث. العدد (٧). ص: ٧٤-٧٦.

(٦) قرة-موزا، سيرغي (٢٠١٨). الاتحاد السوفييتي من النشوء إلى السقوط. ترجمة: د. شوكت يوسف. الهيئة العامة السورية للكتاب. دمشق. سوريا. ص: ٢١.

(٧) أبو القاسم، رشا (٢٠٢٠). خريطة العالم قبل تفكك الاتحاد السوفييتي. الموقع الالكتروني "المرسال". يُنظر الرابط:

https://www.almrsal.com/post/930155 (accessed at 052022/05/);

(٨) هو منظمة حلف شمال الأطلسي، تأسس بعد الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٩م؛ لردع أي تهديد توسعي من

قبل الاتحاد السوفييتي. والدول المؤسسة للحلف (عددها ١٢ دولة)، هي: الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وبلجيكا، وكندا، والدنمارك، وفرنسا، وايسلندا، وإيطاليا، ولوكسمبورغ، وهولندا، والنرويج والبرتغال. المصدر:

https://www.dw.com//ar/حلف-الناتو-لماذا-تم-تأسيسه-وكيف-توسع-في-شرق-أوروبا/a-60714078 (accessed at 012022/05/).

(٩) جاء إنشاء هذا الحلف بعد الحرب العالمية الثانية، بقيادة الاتحاد السوفييتي في ١٤ مايو/أيار لعام ١٩٥٥، وقد تألف بشكل أساسي من: الاتحاد السوفييتي، وألبانيا، وبلغاريا، وتشيكوسلوفاكيا، وألمانيا الشرقية، والمجر، وبولندا، ورومانيا. وتم تجديد المعاهدة في ٢٦ من نيسان لعام ١٩٨٥. وقد كان هذا الحلف تحت قيادة الاتحاد السوفييتي بشكل أساسي، والذي كان يهدف إلى استغلال المواقع الاستراتيجية لدول أوروبا الشرقية لغايات عسكرية خاصة أثناء الحرب الباردة. المصدر: الموسوعة السياسية:

https://political-encyclopedia.org/dictionary/حلف%20وارسو

(١٠) قرة-موزا (٢٠١٨). ص: ٤٨٠.

(١١) المعرفة، وفق الرابط الآتي:

https://www.marefa.org/حل_الاتحاد_السوفييتي/simplified#cite_ref-ReferenceC_11-

(١٢) دنفر (٢٠١٩). ص: ١٩.

(١٣) كازانوف، أولجبك (٢٠١٥). مصالح حيوية: الأبعاد التاريخية والاستراتيجية للأزمة الروسية-الأوكرانية. مجلة اتجاهات الأحداث. العدد (٧). ص: ٧٤-٧٦. يُنظر الرابط:

https://futureuae.com/media/_9291ed401-b124-cc7-b61551-e0a21dd33d.pdf (accessed at 032022/05/)

(١٤) فرنسيس، فيرونيكا (٢٠١٩). جيوبوليتيك السياسة الخارجية الروسية "دراسة في أثر الجيوبوليتيك في علاقة روسيا بدول الجوار". مجلة إيزالوكس (ESALEXU). مجلد (٤). عدد (٨). ص: ١٤٥-١٧٨.

(١٥) بعد تفكك الاتحاد السوفييتي انضم إلى حلف الناتو: جمهورية التشيك والمجر وبولندا عام١٩٩٩ ، وتم قبول بلغاريا وإستونيا ولاتفيا وليتوانيا ورومانيا وسلوفاكيا وسلوفينيا عام٢٠٠٤ ، وألبانيا وكرواتيا عام٢٠٠٩ ، ومونتينيجرو عام ٢٠١٧ ، وأخيرًا مقدونيا الشمالية عام ٢٠٢٠(المصدر: فرنسيس (٢٠١٩)).

(١٦) فرنسيس (٢٠١٩).

(١٧) فرنسيس (٢٠١٩).

(١٨) فرنسيس (٢٠١٩)

(١٩) الميمي، نردين (٢٠١١). الاستراتيجية الروسية في ظل نظام أحادي القطبية. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة بيرزيت. ص: ٨٧.

(٢٠) فرنسيس (٢٠١٩).

(٢١) فرنسيس (٢٠١٩)

(٢٢) دنفر (٢٠١٩). ص: ٢٥.

(٢٣) كازانوف (٢٠١٥).

(٢٤) أبو رشيد، أسامة (٢٠١٤). الأزمة الأوكرانية أميركيًا: إعادة بعث الحرب الباردة؟ المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات. الدوحة. قطر. ص: ١؛ الشريف، ماهر (٢٠٢٢). الأزمة الأوكرانية وتداعياتها على الشرق الأوسط. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. يُنظر الرابط الآتي:

https://www.palestine-studies.org/ar/node/1652602

(٢٥) أبو رشيد (٢٠١٤).

(٢٦) الأمم المتحدة (٢٠١٨). معلومات عامة عن أوكرانيا. ينظر الرابط:

http://docstore.ohchr.org/ (accessed at 042022/05/).

(٢٧) الأمم المتحدة (٢٠١٨).

(٢٨) الأمم المتحدة (٢٠١٨).

(٢٩) الشريف (٢٠٢٢).

(٣٠) قناة العربية (٢٠٢٢). تسجيل صوتي "مترجم" لخطاب إعلان الحرب للرئيس بوتين ليلة ٢٠٢٢/٠٢/٢٤. يُنظر الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=FZcSMnu1ckg (accessed at 012022/05/).

(٣١) قناة الجزيرة. رسالة مراسل القناة لحظة بدء الهجوم الروسي على أوكرانيا في ٢٠٢٢/٠٢/٢٤. يُنظر الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=XinlltMYSNU (accessed at 012022/05/).

(٣٢) اليوم السابع. استقبال ٣ ملايين و١٦٣ ألف لاجئ فارين من أوكرانيا منذ بداية العملية العسكرية الروسية في ٢٠٢٢/٠٥/٠٥. يُنظر الرابط:

https://www.youm7.com/story/2022/5/5/بولندا-استقبال-أكثر-من3--ملايين-لاجئ-أوكرانى-منذ-بدء/5750286 (accessed at 052022/05/).

(٣٣) قناة الجزيرة. الحصاد حرب روسيا على أوكرانيا تدخل يومها الثلاثين وقمم استثنائية في بروكسل. ٢٠٢٢/٠٣/٢٥. ينظر الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=kELzq6MJFRY

(٣٤) موقع أكاديمية DW.COM. بعد غزو أوكرانيا، هل بات التحالف مع روسيا عبئًا على الصين.

https://www.dw.com//ar/بعد-غزو-أوكرانيا-هل-بات-التحالف-مع-روسيا-عبئا-على-الصين-61128429-a (accessed at 052022/05/).

(٣٥) موقع bbc.com. لماذا انقسم العرب بشأن الغزو الروسي لأوكرانيا؟ يُنظر الرابط:

https://www.bbc.com/arabic/interactivity-60671019 (accessed at 042022/05/).

(٣٦) طالب، هاني رمضان (٢٠٢٢). الموقف الإسرائيلي من الحرب في أوكرانيا. مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات. بيروت. لبنان. ص: ١٠.

(٣٧) حباس، وليد (٢٠٢٢). ما هي العوامل المتناقضة التي تشكل موقف إسرائيل من الحرب الروسية- الأوكرانية؟ موقع المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار). يُنظر الرابط:

https://www.madarcenter.org/

(٣٨) سليمان، حسين (٢٠٢٢). التعقيدات الاقتصادية للأزمة الأوكرانية والعقوبات على روسيا. مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية. ٢٠٢٢/٣/١. يُنظر الرابط:

https://acpss.ahram.org.eg/News/17419.aspx (accessed at 052022/05/).

(٣٩) العلي، مروان سالم علي (٢٠١٨). استراتيجيات إدارة الأزمة الدولية: أزمة الصواريخ الكوبية أنموذجا. مجلة جيل الدراسات السياسية والعلاقات الدولية. العدد (١٩). ص: ٣٧-٧٠.

أوراق ثقافية

"أماكن الفكر"..
سيرة غيريّة أعادت اكتشاف إدوارد سعيد من جديد!

يوسف الشايب

يقدم تِمُثي بْرِنَن، في كتابه "إدوارد سعيد.. أماكن الفكر"، والصادر حديثاً عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، من ترجمة محمد عصفور، وفي إطار سلسلة "عالم المعرفة"، وتحديداً نسخة آذار ٢٠٢٢، سيرة غيريَّة مُغايرة، فمؤلف الكتاب كان تلميذاً من تلاميذ سعيد، وبقي صديقاً له حتى وفاته في العام ٢٠٠٣، فقدَّم، عبر كتابه هذا، سيرة وافية وشبه كاملة للمشرف على أطروحته، والذي يتبيَّن لقارئ الكتاب، أنه كان مدافعاً عن التأثير الذي يتركه الأدب في السياسة والحياة المدنية.

ويذهب برنن إلى أن سعيد كان من "المحطِّمين اللامعين للأصنام التقليدية"، و"كان مفكراً من مفكري نيويورك، ويتردد على بيروت، ويعمل على ترتيب الحفلات الموسيقية في فايمار، ويبرع في سرد الحكايات على شاشة التلفزيون القومية، ويفاوض من أجل فلسطين في وزارة الخارجية الأميركية، ويمثِّل في أفلام يؤدي فيها دوره في حياته"، لافتاً إلى أنه "كان حداثيّاً، وباحثاً غيَّرَت كتاباته وجه الحياة الجامعية إلى الأبد، بل كان واحداً من أدباء نيويورك"، فقد تمكَّن من "صياغة هذه المعارف، بحيث غدت تراثاً مغايراً من المذهب الإنساني على خلفية التفوق العلمي والتكنولوجي والحرب الدينية، وأعطى للعلوم الإنسانية، بوضوح ليس له مثيل".

واستفاد مؤلف الكتاب من شهادات حصل عليها من عائلة سعيد، ومن أصدقائه، وتلاميذه، وحتى خصومه، كما استعان بسجلات مكتب التحقيقات الفيدرالي، وبكتابات سعيد غير المنشورة، ومسوَّدات رواياته، ورسائله الشخصية، وبذا فإن الكتاب يتكئ ليس فقط على المجال الفكري الواسع لسعيد، والتأثير الذي خلفه، بل هو سيرة حميمية غير مسبوقة لصاحب واحدٍ من أعظم العقول في القرن العشرين.

وبرنن طالب مقرَّب من أستاذه إدوارد سعيد، بدأ مسيرته معه منذ العام ١٩٨٠، وحفظ سيرته بتفاصيلها، وحفظ درسه من وعن سعيد.. وكتب كثيراً عن أستاذه قبل السيرة الحاليّة.

توجه برنن في زيارات ميدانية عدَّة إلى بيروت لجمع المادة حول سيرته الذاتية، خاصة أن بيروت تشكِّل ركناً مهماً من حياة إدوارد سعيد، مثلما أن القاهرة تمثّل تجربة ثريَّة، وفق ما تشير إليه تجلياتها في "خارج المكان" سيرة سعيد التي كتبها بنفسه.

زار تِمُثي الأماكن التي كان إدوارد يتردَّد عليها ويقيم فيها، خصوصاً تلك التي كان يقيم فيها مع أسرته، كذلك لم يدخر جهداً بالاتصال بمن كانت لهم معرفة بالراحل، ومن بينهم أسعد خير الله، أستاذ الأدب العربي في الجامعة الأميركية ببيروت، ورئيس تحرير مجلة "أبحاث" الصادرة عن الجامعة.

ومن يفرغ من قراءة الكتابة، سرعان ما يفكِّر في قراءته من جديد، لكونه يستشعر أنه أمام "رواية توثيقية أو فيلم وثائقي حصل فيه المخرج سلفاً على أسرار شخصية الفيلم"، كما جاء في تقديم الكتاب، وهو هنا سعيد الذي عاش المؤلف معجباً به طوال حياته، ولا يزال، فالكتاب السيريّ هذا يجعل مؤلفه يبدو وكأنه شريكٌ سريٌّ لسيرة ومسيرة أستاذه ما بين تحدٍ وخوف وشجاعة لا نظير لها إلا نادراً.

ويُظْهِر تِمُثي كم كان سعيد يمد يد العون إلى الغير، وإلى أنه لم يواجه "الواقع المعطوب" بالانسحاب منه أو الانكماش، بل بالتحدي الذي يؤكد المؤلف أنه منهج حياة وفكر بالنسبة لأستاذه.

يقدّم تِمُثي أستاذه إدوارد سعيد في هذا الكتاب باعتباره شخصية تحمل الواقع معها على رافعة واقع جديد، لتُحدِث فيه ما يتطلب من تغيير من دون أن تدع الواقع المعيشي المصاب بالجمهور، كما يقدِّم بإيجاز سعيد باعتباره أكبر من الواقع بكثير، "فهو لم يحْضُر إلى أميركا بل أميركا هي التي حضرت إليه"، مشيراً إلى اهتمام صاحب "الاستشراق" بصيغة "الطباق"، وتعني تلاقي الأصوات المختلفة وتقاطعها لتنتج في النهاية صوتاً مشتركاً دون أن تلغي فردية تلك الأصوات.

سيرة تِمُثي عن سعيد هذه، ألقت الضوء على "خارج المكان" أيضاً، لكنها أضاءت كثيراً من الأماكن التي كانت بحاجة إلى مزيد من التفسير والتأويل، كما ملأت الفراغ الذي كان ينوي سعيد ملأه بكتابة جزءٍ ثانٍ من سيرته، وكأن تلميذه أخذ على عاتقه أن يشارك صاحب السيرة في كتابة ما حالت الظروف دون إنجازه عندما كان على قيد الحياة.

وكان لافتاً ما كُتِبَ في السيرة عن أن سعيد لم يختر الدفن في فلسطين، باعتبار أن "العواطف هناك تستمر في تهديد وجوده داخل قبره، إذ اقترح أقاربه أن يدفن في مقبرة صغيرة لجماعة الكويكر

مغطاة بالأعشاب وسرب من الأشجار تقوم على تلة منحدرة في برمانا بلبنان.. هناك يرقد شاهد بسيط من الرخام الأسود مكتوب عليه اسمه بالعربية والإنكليزية.. ومع أن قبره يطل على فلسطين من ناحية الجنوب، عبر سلسلة جبال ترسو فوق بيروت، حيث ضهور الشوير التي كان يطل على فلسطين من خلالها أيام شبابه، إلا أنه، وحسب تِمُثي برنن، فـ"حتى هذا المكان الذي يرقد فيه مرتاحاً ليس هو مكانه تماماً"، ومن هنا جاء العنوان الذي أبدع فيه بالإنكليزية: "أماكن الفكر.. حياة لإدوارد سعيد". "إدوار سعيد.. أماكن الفكر".

سعيد الفلسطيني

ولد سعيد في القدس العام ١٩٣٣ لأب يعمل في التجارة، وحُرِمَ هو وعائلته من البيت والوطن في العام ١٩٤٨، بواسطة الانتداب البريطاني والعمليات العسكرية التي تبعته، على حد تعبير المؤلف، دون الإشارة إلى العصابات الصهيونية التي باتت هي التكوين الأساس لـ"دولة إسرائيل"، مشيراً إلى أنه كان "تلميذاً لامعاً، وإن كان يفتقر إلى الانتظام، وكان مولعاً بآلة البيانو منذ الصغر، وترعرع في صباه بالقاهرة".

وصل إلى الولايات المتحدة الأميركية في العام ١٩٥١، وهناك التحق بجامعة "برنستن" في المرحلة الجامعية الأولى، ثم في جامعة هارفارد في مرحلة الدكتوراه، قبل الالتحاق بهيئة التدريس في جامعة كولومبيا في العام ١٩٦٣، حيث بقي معظم حياته. وبحلول العام ١٩٧٥ كانت سيرته المهنية في طريقها إلى الأسطورية، إذ أخذت تنهال عليه الجوائز من العالم الأكاديمي على شكل محاضرات مدعومة، وشهادات فخرية، بعد أن افتتح حقولاً للبحث غيَّرَت ملامح الحياة الجامعية.

وكشف برنن أن نشاطه السياسي لم يقتصر على تأليف الكتب، مع أن الكتابة كانت هي الجانب الأبرز في هذا المجال، غير أن سعيد كان أيضاً "ذا مهارات عالية في التخطيط السياسي"، وأخذ يدعو إلى اتخاذ مواقف سياسية لم تكن تحظى بالشعبية بدايةً، لكنها باتت تُتَّبَع فيما بعد من حركات تمارس عملها على الأرض، وأقام تحالفات غير متوقعة، وحجز أمكنة مؤسساتية جديدة، وأقلق الدبلوماسيين، وقدَّمَ المشورة لأعضاء الكونغرس، وصار ناقداً قاسياً لمؤسسات الأخبار الأميركية، وشخصية بارزة في وسائل الإعلام.

عندما عُيّنَ في أول وظيفة جامعية شغلها، كان بوسع المدافعين عن إسرائيل أن يتجاهلوا القضية الفلسطينية تجاهلاً تاماً، لكن بعد عقد من الزمان كان قد ابتكر مفردات جديدة، وقائمة جديدة بأسماء الأبطال، وبمفرده تقريباً جعل الموقف الصهيونيّ يخلو من القداسة، وصار انتقاده محترماً، بل صار موقفاً ذا شعبية لدى بعض الدوائر.

وبالرغم من كل ما كتبه عن النفي والمنفى، فإنه كان رجلاً عميق الجذور، فهو يعيش في فلسطين كما يرى في خياله، بينما هو على أرض نيويورك فيزيائياً، متيّماً على الدوام بإيقاع فلسطين المضطربة ذات الحيوية الدافقة التي لا تستقر، بل تقاوم، وتُلْهِم الآخرين.

في العام ١٩٨٣، ألقى سعيد محاضرة في جامعة أوكسفورد بعنوان "إسرائيل تجتاح لبنان"، بيَّنَ فيها ما خفي عن العالم من وراء غزوها لبنان، وهو تصدير أزمتها الداخلية المزمنة بوصفها نموذجاً يتكرّر بين الحين والآخر، ومن ثم يشتت انتباه البشرية ويُبعد عن الاعتقاد أن إسرائيل تقوم على أرض ليست أرضها. مثل هذا النموذج هو الذي جعل العديد من أفراد "الصفوة اليهودية" يغادرون إسرائيل بعد هجرتهم إليها، عندما اكتشفوا أن إسرائيل تتعدى في أجندتها "الجغرافيا الوهمية" إلى غزو جيرانها، ومن بينهم نعوم تشومسكي، الذي قال إنه هجر "الكيبوتس" في إسرائيل عندما أدرك عن قرب انزلاق إسرائيل إلى السياسة العدوانية، وهو ما فعله دانيال بارينباوم، عازف البيانو الشهير وصديق إدوارد، فهو لم يكتفِ بالهجرة من إسرائيل، بل خاطب أعضاء الكنيست منتقداً سياسة إسرائيل العدوانية والتفرقة العنصرية التي تنتهجها، وذلك كما يُظهِر فيديو بمناسبة الذكرى الأولى لرحيل سعيد، كذلك فعل توني جودت، وآفي شلايم، وغيرهما.

في هذا السياق، يستذكر الكتاب، ما قاله جودت في مقالة له، وهو أن اليهود الذين هاجروا من أوروبا إلى فلسطين، لم يهجروا أوروبا، بل جعلوها تهاجر معهم، بمعنى أن وجودهم في إسرائيل هو نوع من الهجرة الأوروبية إلى أرض الغير، أما آفي شلايم، أحد المؤرخين الإسرائيليين الجدد، وقد هجر إسرائيل إلى بريطانيا، ويقيم في أوكسفورد بوصفه أستاذاً في العلاقات الدولية، فقد علَّقَ في واحدة من المناسبات على إقدام إسرائيل على هدم بيوت الفلسطينيين بحجة أن أصحابها لم يحصلوا على رخصة بناء مسبقاً، بقوله إن إسرائيل نسيت أو تناست أن بيوتها غير مرخَّصَة أصلاً، معلقاً على تصريح لنتنياهو بأن "هذه أرضنا"، بالقول: "عليك أن تبرز الطابو".

يروي الكتاب أيضاً أن لجنة نوبل للسلام، استبعدت ترشيح شاعر إسرائيل الكبير أميكاي للحصول على جائزتها لأنه نظم شعره وألقاه على أرض الغير، وينسجم هذا الموقف مع رؤية إدوارد سعيد لأوبرا عايدة، كذلك يمكن أن ينسحب هذا على الأدب العبري، فروايات عاموس عوز، على سبيل المثال، والتي تمجِّد جهود "أبطال إسرائيل" في تحويل الأرض الجدباء إلى أرض خضراء مقارنةً بأرض الغير المجاورة، يجب ألا تتوقف قراءتها عند ما فيها من جماليّات، إن وُجِدَت أصلاً، بل لا بد أن تشمل عنصر إقامتها على أرض ليست أرضها، كما هي الحال في قراءة رواية جين أوستين.

بعد ذلك بوقت طويل، وقبل وفاة سعيد بسنوات قليلة، أخذت مقالات "لئيمة" تلعب على

الاختلاف الثقافي لديه بحكم تنقلاته وعائلته طفلاً ويافعاً ورجلاً بين جغرافيّات عدَّة، مدَّعيةً أن سعيد لم يعش في مدينة القدس قط، وأنه لم تكن له أصول عائلية فيها، وأنه كان يقيم بأمان في القاهرة البرجوازية، وبما أن المتكلم الرئيس باسم الفلسطينيين كان يكذب فيما يتعلق بأصوله فإن جميع ادّعاءات الفلسطينيين كاذبة.

لكنّ الرد على هذا الهجوم سهل بإثبات التحاق سعيد فعلاً بمدرسة القديس جورج، أو مدرسة المطران كما كان الأهالي يسمُّونها، وأن البيت المقدسي الذي ولد فيه كان مملوكاً للعائلة، ولذلك فإن والده كان يملك نصيباً من العقار المسجل باسم أخته... ويبدو، والحديث هنا للمؤلف، أن "أصحاب هذا الاتهام لم يكلفوا أنفسهم عناء مقابلة سعيد نفسه، ولم يسعوا إلى مقابلة أيٍّ من زملائه في مدرسة القديس جورج الموجودين في نيويورك".

كانت إسرائيل، في نهاية المطاف، هي التي حوَّلَت تنقل الفلسطينيين بين بلاد الإقليم إلى شتات منتشر في جميع أنحاء العالم، ومن الواضح أن آل سعيد بُعْثِروا مثلما بُعْثِرَت عائلات كثيرة نتيجةً لذلك، وسكنوا في بيروت وعمّان والمناطق المحتلة أو خارج هذه البلاد، وتطلَّب بقاؤهم على صلة أن يتحرَّكوا من مكان إلى آخر.

سعيد اللاتيني و"إف. بي. آي"

كان سعيد خليطاً يصعب التنبؤ بأفعاله، وكان أصدقاؤه يمازحونه أحياناً بوصفهم إياه بأنه مزيج من "إدواردو"، وهو مفكر إيطالي من عصر النهضة، و"أبو وديع"، وهم اسم يتَّبِعه عادةً الثوّار الفلسطينيون في اتخاذ أسماء استعارة عوضاً عن أسمائهم الحقيقية.

ويشير الكتاب إلى أنه ممّا لا يكاد يُصدّق أن سجل إدوارد سعيد لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي الأميركي (FBI) يشير إليه باسم "إدواردو سعيد"، ويُعرف أيضاً باسم "إد سعيد"، و"كأن ذلك المكتب كان تحت الانطباع السائد في العام ١٩٧٩، قبيل حرب الكونترا، بأن الإرهابي يحتمل أن يتخذ اسماً لاتينيّاً"، غير أن التهمة تبدّدت تحت المراقبة المستمرة.

"والحقيقة أن سجلات مكتب التحقيقات تكشف أن المكتب بحث مطوّلاً في كتبه ومقالاته بصحيفة نيويورك تايمز، وأن مخبري المكتب زوَّدوا رؤساءهم في واشنطن بملخصات صحيحة، وفي النهاية تركت تقاريرهم انطباعاً مؤدَّاه أن أعماله تثير الاهتمام، وأنه كاتب متمرِّس، وذو ابتسامة جذّابة وصوت ناعم، وأن أعماله ترجمت إلى ثماني لغات، وانتهى الأمر بأن أنتجوا عملاً أشبه بعمل التلاميذ المتردّدين".

يقظة سياسيّة

وممّا يشير إليه الكتاب تلك اليقظة السيّاسية المبكرة لديه، وكيف قاوم محاولات كبْتِها من والديه.. "في الزمالك، شكا سعيد من سعي والديه لإبعاده عن السياسة، لكنّ عالمه المثالي داخل العائلة مهَّدَ في الواقع لأول يقظة سياسية مرَّ بها، فهذه العلاقة العائلية الوثيقة مكَّنَتْه من مراقبة العمل التطوعي الذي قامت به عمّته نبيهة لمصلحة الفلسطينيين الذين لجأوا إلى مصر بعد العام ١٩٤٨، وكان من بينهم عدد من أفراد عائلته الممتدة، ولم تكن معرفته، حينها، بالتاريخ كبيرة، ولكن كان في وسعه أن يرى الكارثة الفلسطينية في الوجوه المرهقة لزوّار عائلته.

ووجد سعيد فيما بعد شيئاً رمزياً في توافق يوم مولده مع تاريخ إعلان وعد بلفور، ولكن مستقبله لم يتأثر بحصار أهله له بقدر ما أثّرت فيه القرقرة العائلية وسخافات الكتب الهزلية، وفق الكتاب، إلا أنه تخلَّص أولَ ما تخلَّص من هذه الرتابة في فترات مكوثه الصيفية في "ضهور الشوير".

وفي منتصف العقد الثاني من حياته، صادف الأفكار الجادة للمرَّة الأولى على يد منير نصّار، وهو جار يكبره قليلاً، وهو ابن أحد كبار المسؤولين في شركة تأمين مقرها لندن، فقد أعاره منير وإخوته، وكانوا جزءاً من الحياة الفكرية في الجامعة الأميركية ببيروت، بعض كتبهم وناقشوا كانط، وهيغل، وأفلاطون، الذين كان يسمع أسماءهم للمرّة الأولى. كان صبيّاً على أعتاب شبابٍ يتحدَّثون عن أفكار لم يسمع بها من قبل، وعن أسماء وأحداث لم يسمع بها أيضاً كمحمد علي، وإسماعيل باشا، وثورة عرابي، وغزو بونابرت، وحادثة دنشواي.

ولكن إلى جانب هذه اللقاءات، كان التحرُّر من "الحماية الشديدة التي تمارسها الأم"، يأتي عن طريق الاستمتاع بالعزف على البيانو في خلوته، وهناك كان يسمح لشقيقاته أحياناً "بكرم يليق باللوردات" باستراق النظر إلى الغرفة، وفي مرّات نادرة يعطيهن الحق في تخطّي عتبة مكانه المقدَّس هذا، ليحبسن أنفاسهن على كتبه، وخاصة على البيانو أهم ممتلكاته، وملجئه الذي يرافقه لساعات يومياً.

ويرى برنن أن البعض قد يحسب البيانو وسيلة انعزال عن بقية أفراد العائلة، لكنه كان في الواقع وسيلة للانتماء، فالأطفال الخمسة ظلوا جميعهم يعزفون مدّةً طويلةً بعد انتهاء الدروس المطلوبة في مرحلة الطفولة. أصبحت الموسيقى إلى جانب القراءة هي المصدر الرئيس لانضباطه الفكري والخيالي، وأول "نظرية" يستقصيها قبل أن تدخل الفلسفة عوالمه.

وفي موقع آخر في الكتاب القيّم يشير مؤلفه إلى أن سعيد، لم يكن، كما حسبه كثيرون، مترفعاً عن السياسة ثم أجبرته حرب العام ١٩٦٧ على الانخراط فيها، ففي قصاصة مطبوعة على ورقة ممزقة، وهي واحدة من كثير من أوراق تشبهها مدفونة في أوراقه التي تنتمي إلى المرحلة الجامعية الأولى،

نجد محاولةً لتعريف الذات: "أن يكون المرء مشرقيّاً معناه أن يعيش في عالمين أو أكثر دون الانتماء إلى أي منهما... معناه العجز عن الإبداع والاكتفاء بالمحاكاة، يكشف عن ذاته بالضياع، والتظاهر، وعدم الإيمان بشيء، واليأس".

ويقول برنن: مهما يكن ثمة تقريع للذات عندما وصف طفولته بأنها شرنقة من الحظوة والدلال، فإن الشرانق تنمو وتحتضن، وتحض الضعيف على الاستقلال، ومهما يكن من أمر فإن عهد شرنقته كان عهد نُضجٍ قبل الأوان.

كان في عهد الشباب كثيراً ما يُصغي لابنيْ عمه يوسف وجورج، وهما يهاجمان وعد بلفور، دون أن يفهم ما يتحدثان بشأنه، ولكنه كان يستشعر غضبهما بما فيه الكفاية، وتذكَّر نقاط التفتيش في القدس الواقعة تحت الانتداب البريطاني، والاحتكاكات الغامضة بين المستوطنين القدماء والجدد في حي الطالبية، وكان لا يزال يُصغي إلى إذاعة القاهرة، وهي تصبُّ جامّ غضبها على العدو الصهيوني. أما نادية، جارتهم فتتذكَّر أن إدوارد كان أكثر وعياً وأشد انتماءً: كان سعيد منذ صباه شديد الانتقاد لمظاهر الاستعمار البريطاني، ويتمرد على مراكز الإمبراطورية الجغرافية، ولكن صوته في تلك الأيام كان كصوت غريب، كان كصوت في البرية.

وعلى نحو لافت للنظر، وصف سعيد نفسه، وهو يزور تيغرمان في القاهرة، في خمسينات وستينات القرن الماضي بأنه "ناصريّ ومناهض لعنف الإمبريالية"، ولم يكن بوسع صبيٍّ ألا يتأثر بحماسة أمه في الأمور السياسية، أو يتمرد ضد عمته الحبيبة التي أدارت مركزاً لمعونة بني وطنها، أو أن يكون مغايراً لما كان عليه سعيد.

وبينما كان سعيد يُنظم معتقداته ضمن برنامج للعمل، فإنه كان يتصارع مع عبثية الثوريّين في الشرق الأوسط وتشرذمهم الذي يبعث على اليأس. وعلى رغم ما وجده في مواقفهم مما يدعو إلى الابتعاد عن المنظمات، فإن شخصيته السياسية كانت قد تبلورت في سنوات مراهقته.

سعيد وأمّه

لعبت والدة سعيد دوراً محورياً في حياته حتى رحيلها، وهو من بين ما وثَّقه كتاب برنن عنه دون غيره، حتى سيرته التي كتبها هو بنفسه، بحيث نقل عن سعيد قوله ذات مرّة: كانت والدتي من غير شك أقرب رفيق لي في السنوات الخمس والعشرين الأولى، بينما كانت صلتي بأخواتي الأصغر مني سنّاً فاترة وغير مُرضية بالنسبة لي على الأقل.

وبقي هذا القرب من الأم على حاله إلى النهاية، دون أن ينطبق ذلك على العلاقة مع الأخوات، وقد

عبَّر عن شعوره بالمرارة عندما ادَّعى أن أباه لم يكتب له "رسالة شخصية حقاً"، بل كان يُملي الرسائل على سكرتيره ويوقِّعها بعبارة "المخلص و. أ. سعيد"، لكن أوراق سعيد، حسب برنن، تحتوي في الواقع على رسائل من الأب يملؤها الشعور بالألم وعدم الشعور بالأمان، ففي العام ١٩٦٥ مثلاً توسَّل وديع إلى ابنه إدوارد أن يكون أكثر ترحيباً بالأقارب عندما يزورونه، وأن يتَّصِل بشريك له في العمل نيابةً عنه، لكنّ سعيد أجاب بأنه "ملَّ من تذكيره بأنه شخص سيئ وأنه لا يرتقي إلى الدرجة المطلوبة من الأخ الطيّب والابن البار"، ثم أضاف: "أظن أن الوقت قد حان لأن يقال لأخواتي إن عليهن أن يعاملنني بطريقة تليق بالأخ الأكبر".

تمكَّنَت أخته غريس التي تكفَّلت بالعناية بقريبتهن هيلدا أثناء علاجها من السرطان في واشنطن أواخر عمرها، من رؤية تصرُّفات سعيد نحو أمه عن كثب، وتعجَّبت كيف أن الاثنين كانا يقضيان الساعات وهما يثرثران على الهاتف كل يوم.

لا ذكر لشيء من هذا القبيل في كتاب "خارج المكان"، أي عن تأثير الاحتضان العاطفي للأم بما في ذلك من حلاوة ومرارة، ودورها الرقابي والإداري تجاه أبنائها، وهو ما يرى سعيد في جزء منه "لاستخدامها سلاح التلاعب بنا، وجعلنا نفقد توازننا، ووضعي موضع خلاف مع أخواتي والعالم، كما لم يجد برنن في "خارج المكان" ما يشير إلى حكمها القاسي بأن جميع أبنائها "خيّبوا أملها".

تتذكرها جارتها نادية الجندي، التي وجدتها "جميلة بحق، بوجنتين عاليتين، وبشرة رقيقة"، وتتزيّن دائماً "بقطع مدهشة من الحُليّ"، وعلى عكس ما كان سعيد يصفها به، فإن جارتها تتذكرها وهي "تعدد مواهب أطفالها، أما غريس فتقول بوضوح: أعتقد أننا كلنا حصلنا على ثقافتنا السياسية من أميّ التي كانت تؤمن بالقومية العربية، وكانت دائماً ما تشارك في القضايا الاجتماعية".

أثَّر الأسلوب الفكري لدى الأم في ابنها الذكر الوحيد، وكما قالت جين: كانت أمي تميل دائماً إلى خلق القصص وروايتها، حتى لو كانت الحادثة بسطية، كانت أمي تزيّنها بالتفاصيل والألوان، وتصبغ عليها هالة من الأهمية الاجتماعية والتاريخية، على غرار أصحاب الواقعية السحرية في روايات أميركا اللاتينية، بحيث وجدتْ الأم الواقع من الغرابة بحيث يحتاج إلى ابتكار القصص لاكتشاف معناه.

كذلك شكلت والدة هيلدا، تيتا منيرة، المرأة الأخرى التي تقود حياة آل سعيد، مثلاً آخر يصعب تجاهله بالنسبة لمؤلف الكتاب، فقد احتفظت بـ"قاعدة بيانات ضخمة عمَّن غادر فلسطين، ومتى، في حرب العام ١٩٤٨ التي أبعدتها هي وبنيها عن وطنهم. كانت تعرف الرجال من دائرة معارفهم الواسعة، أين كانوا وأين انتهى بهم الأمر بصفتهم لاجئين.. كانت عائلته "من رواة القصص وحفظة السجلات".

الأدب والرواية

الأدب في فكر إدوارد سعيد، حسب تلميذه، ليس مجرَّد مهنة يحبُّها، بل هو الأساس الذي تقوم عليه أفكاره السياسية، والسرّ الكامن وراء حب الناس له. وقد استلهم مصادر غير معتادة تشمل النصوص الموسيقية والمخطوطات العربية القروسطية، مثلما استلهم كتابات المحللين الصحافيين البريطانيين والشعراء الباكستانيين الاشتراكيين، فتمكن من وضع الإنسانيَّات في مركز الحياة العامة، وعمل على إحياء الاهتمام بـ"الكتب العظيمة" بالحماس الذي تأتي منه الحرب والثورة المضادة للاستعمار، وكان ذلك في رأيه هو إسهامه الأكبر، أكثر ممّا تمكن من تحقيقه حتى للقضية الفلسطينية. وليس هناك في القرن العشرين من تقدَّم بحجة أقوى ممّا قدمه هو عن أن الخلافات على معنى النصوص الدنيوية، وليس الدينية فقط، تؤثر في مصائر الحقوق والأوطان.

ويشير الكتاب نقلاً عن "الغارديان" البريطانية، إلى أن السبب الذي دعا إدوارد سعيد إلى إقصاء كتابة الرواية من أجندته، هو خشيته من أن تعجز الرواية عن الاضطلاع بالدور الإيجابي مقارنةً بالفكر النقدي في مواجهة الواقع، بينما تشير النسخة العربية للكتاب على لسان مقدِّمها د. محمد شاهين، إلى أن سعيد أخبره في آب من العام ١٩٨٣، أنه "ينوي الانسحاب من هذا العالم ليكتب رواية. تصريحه هذا جاء مباشرةً بعد غزو إسرائيل للبنان، ذلك الحصار الذي كانت والدته تعيشه أثناء الحرب، وما رافق ذلك من صعوبة حصولها على تأشيرة دخول (فيزا) تؤهلها للانضمام إلى ابنها وأسرتها في نيويورك، أما برنن فيشير إلى أن إدوارد سعيد أحجم عن كتابة الرواية لاحقاً، لأنه كان يخشى أن ينزلق إلى شكليْ الواقعية اللذين أقصاهما لوكاش، الناقد الهنغاري الشهير، بمعنى أنه كان لا يريد لنفسه أن يعيش مخاوف المجتمع مثل كافكا، ولا يريد أن ينحصر إنجازه في أسلوب تيار الشعور الذي ينتج عن تقوقع الفرد بعيداً عن هموم واقع المجتمع الذي يعيش فيه، أي أنه اختار الشكل الثالث الأخير من تصوّر لوكاش للواقع والواقعية الذي يقضي بخلق منظور اجتماعي لواقع مستقبليّ متخيّل، وقد ظلّ هذا الاختيار نبراساً لإدوارد سعيد في كتاباته بأشكالها المختلفة.

ما بين ثورتين

شهدت جامعة كولومبيا الأميركية، حيث كان إدوارد سعيد يقضي سنة التفرغ العلمي، احتجاجات غير مسبوقة اندلعت ضد الحرب في فيتنام، وتحديداً في العامين ١٩٦٨ و١٩٦٩، ووجد طلبته يواجهون عصيَّ رجال الشرطة أو ينشرون رسائل احتجاج في مجلة "نيويورك ريفيو"، وانتهى الأمر ببعضهم إلى الخروج من "الحرب الجامعية" بعيون متورمة.

عندما عاد إلى "كولومبيا" خريف العام ١٩٦٨، كانت آثار الأحداث لا تزال واضحة، وتذكر أنه "انخرط تماماً في الأنشطة التي كانت تجري في الحرم الجامعي ضد الحرب في فيتنام"، و"أن كثيراً من طلابه كانوا جزءاً من الثورة". كان سعيد، حسب الكتاب، واحداً من عدد قليل من الأساتذة الذي دعموا الإضراب الوطني للطلبة، الذي دعت إليه منظمة الطلبة من أجل مجتمع ديمقراطي، وضد إجراء الانتخابات في تلك السنة، ووافق على عدم التدريس في الحرم الجامعي تضامناً مع المضربين.

ومع ذلك كان سعيد يرى أن الطلبة لم تكن لديهم فكرة كافية عن الخطر السياسي ممّا يقومون به، ورفض موقفهم القطعي من الضوابط الاجتماعية كرفضويّين، فالهدف ليس إلغاء القانون بل تقييمه، كما كان يرى.

وعند التفكير في الاحتلال الإسرائيلي واغتيال ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية، وبعضهم كانوا أصدقاء شخصيين له، تأكد من صحة وجهة نظره، خاصة مع اقتحام عدد من منظمة الطلاب من أجل مجتمع ديمقراطي محاضرة له، بعد عودة المحاضرات إلى الانتظام، رغم رفض غالبية الطلبة في القاعة لهذا التصرف. لكنه لم ينتظر التصويت، بل انسحب من القاعة وطلب المسؤولين عن الأمن الجامعي لإخراج المتطفلين، وذلك لقناعته بأن قاعة التدريس هي آخر مكان تُشَنُّ فيه الحرب ضد الدولة، وشدَّد على هذه النقطة، في جدل لاحق، مع أحد النشطاء من طلبته على الدرج المؤدي إلى مكتبة "لوي".

وممّا يذكره الكتاب، أن سعيد، في العام ١٩٧٠، نظَّم مع صديقه سامي البنا، أستاذ مادة الصورة الحاسوبية في "كولومبيا"، مظاهرة في الجامعة، اتخذت شكل الجلوس، وكانت حول القضية الفلسطينية، وفيها تحدث إلى الجمهور، ومما قاله إن أعمال العنف الرمزية التي تجري لدعم ضحايا القصف والتعذيب والعقاب الجماعي الإسرائيلي أعمال مسوَّغة في مواجهة عسكرية لم يكن للفلسطينيين دور في البدء بها، في تعزيز لفكرة ومبدأ المقاومة الفلسطينية.

أمضى سعيد العام الأكاديمي ١٩٧٣/١٩٧٢ في بيروت، واللافت أن أول محاضرة له في الجامعة الأميركية هناك لم تكن عن المقاومة الفلسطينية بل عن "فوكو"، وكانت بيروت شهدت نشر أول مقال مطول عن أعمال هذا الفيلسوف الفرنسي، كما أنه لم يقابل أيّاً من كبار القائمين على منظمة التحرير الفلسطينية حتى العام ١٩٧٤، أي بعد سنة من مغادرة بيروت عائداً إلى الولايات المتحدة الأميركية.

كان من أقرب أصدقائه ومشاركيه في العمل شفيق الحوت، وهو شخصية، وفق الكتاب، تتصف بالاتزان والشجاعة في قيادة المنظمة، وقد وصفه سعيد بلهجة الإعجاب والمحبة بأنه "يحب المبارزة"، وإلى جانب الحوت كان هناك كل من صلاح خلف، وخليل الوزير، وياسر عرفات نفسه، الذي لم يتعرف إليه سعيد

إلا في العام ١٩٧٤، عندما وصل إلى نيويورك لإلقاء خطبته الافتتاحية أمام الأمم المتحدة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي اعتُرِفَ فيها بمنظمة التحرير الفلسطينية علناً في الساحة الدولية.

في تلك الأثناء كان سعيد قد وطَّدَ صداقته مع كمال ناصر، ووصفه الكتاب، بعضو حزب البعث الاشتراكي المناهض للإمبريالية، وبأنه كان ناصريّاً، وقابله سعيد مرّات عدة في القاهرة، خمسينات القرن الماضي، وبأنه، أيْ ناصر، من النشطاء الثوريّين، وكان إدوارد يُكِنّ له محبة خاصة، وقد اغتاله الإسرائيليون في العام ١٩٧٣، في الليلة التي كان قضى ساعات منها في حديث مع سعيد وزوجته مريم، أثناء حضوره للمراسم التي سبقت دفن العمَّة نبيهة.

التمنع والتجنب والتعرف

ومن كشوفات الكتاب المتعددة، ذلك المقال الذي كتبه سعيد بالعربية ولم يترجم للإنكليزية قط، وكان في العام ١٩٧٢ بعنوان "التمنع، التجنب، التعرف"، ونشرت في مجلة "مواقف" الأدبية، وهي فصلية يُشرف عليها أدونيس. فقد رضخ سعيد، بعد ثلاث سنوات من إلحاح أدونيس عليه ليكتب للمجلة، وتبيَّنَ أنها تخاطب شعبه مخاطبةً مباشرةً مؤلمةً، وهي المقالة الأولى من مقالاته الفلسطينية الموجَّهَة إلى الجمهور العربي فقط، وقد عالجت زوايا مختلفة، وعرضها على أدونيس نفسه وعلى صديقه الروائي إلياس خوري. أعجبت أدونيس لكنه انتقد فيها إثارتها لقضايا خلافية وتركها دون حل، ولا سيما علاقة الأدب الإنكليزي بالمعضلة العربية.

وجاءت المقالة في وقت انتشرت فيه مقالات تشريحية لنكسة العام ١٩٦٧، مع كلام قاسٍ حول ما يجب عمله منذئذٍ فصاعداً، وهو ما عبَّر عنه الروائي غسان كنفاني بوضوح، مستاءاً من موجة النقد الذاتي وواصفاً إياها بـ"حفلة ماسوشية لشتم الذات"، وقد كانت مقالة سعيد تنتمي إلى تلك الموجة، وكان هو على وعي بذلك.

وتساءل سعيد في مقالته هذه عن افتقار العرب إلى أي إحساس بالكفاية، والتقدم، والعلم، والحيوية الثقافية، وقال إن من الواضح أننا "مزيج من المؤثرات الغربية والتقليدية"، ولهذا السبب بالذات "فإنه ليس هناك من يستطيع القول بصراحة ما الذي ينبغي للعربي أن يكونه".

وفسَّر سعيد سبب كتابة المقالة بأنه نتيجةً للواقع العربي المهزوم والمأزوم، فإن "المجتمع فقد الذاكرة، وفقد الإحساس بالأبعاد"، واشتكى من أنه بالرغم من كل ما يتشدَّق به مدَّعو المواقف الراديكالية فإنهم ليست لديهم أي فكرة عن كيفية البدء بالثورة.. "الواقع عندنا نحن العرب وظيفة من وظائف اللغة، ومع أن ذلك يصِحُّ على الغرب بشكل من الأشكال، فإن في الغرب وعياً

بذلك، أما هنا فهذا الوعي مفقود"، مشيراً إلى أن "لغة العرب أخذت منهم عندما قيل لهم إنها لغة الله"، وهي بهذا الشكل لغة ثابتة لا يمكنها أن تتغير مع مسيرة التاريخ... عليهم إما أن يستعملوا لغة الغرب أو لغة الله. هم واقعون بين اللغتين، والإمكانيات التي تنتجها اللغة الشعبية تحجبها العربية الكلاسيكية المنمقة "الثابتة، ولهذا فإنها تتصف بالكمال"، ولا تتيح للمرء سوى "تكرار مجموعه صفر".

سعيد وخطاب عرفات في الأمم المتحدة

في العام ١٩٧٤ بات سعيد شخصاً معروفاً، وطلب منه المعونة في الترجمة الإنكليزية لخطاب عرفات في الجمعية العامة للأمم المتحدة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ١٩٧٤، وكان أحد أقرب مستشاري عرفات، شفيق الحوت، صديقاً منذ الطفولة لإبراهيم أبو لغد، وكلاهما من لاجئي يافا، وأثناء مكوث الوفد الفلسطيني الذي يمثّل منظمة التحرير الفلسطينية إلى الأمم المتحدة، توطَّدَت علاقة سعيد والحوت مباشرةً، ما أعطى سعيد إمكانية الوصول إلى كبار المسؤولين في المنظمة، هو الذي أهدى كتابه "سياسة الحرمان" (١٩٩٤) إلى الحوت وزوجته بيان، وبقيا صديقين طوال حياتهما بعد ذلك.

كان نبيل شعث، حسب الكتاب، هو الذي وضع الصيغة الأصلية لخطاب عرفات، ثم أرسلها إلى الحوت للنظر فيها، وقد أعيد النظر فيها بمساعدة من وليد الخالدي، وصلاح دبّاغ، ومحمود درويش، الذي لم يكن يعرف اللغة الإنكليزية بما يكفي رغم مكانته العالية في الأدب العربي، ورغم كونه أمير الشعراء الفلسطينيين، على حد تعبير بِرنن.

ثم أُعْطِيَ الخطاب بشكله هذا إلى هدى عسيران للعمل على ترجمته مع فريق عرفات، ولكن النتائج لم تكن مرضية.. هنا فاتح الحوت سعيد في هذا الأمر فوافق على تنقيحه، وعمل مع رندة خالد فتّال، وهي تعمل في مهنة التحرير، فأنتجا الصيغة التي أُلقيت في الأمم المتحدة في ١٣ نوفمبر ١٩٧٤.

كان سعيد قد أضاف أموراً يعرف أنها ستترك أثراً حسناً لدى مستمعي عرفات من الأميركيين، ومنها خاتمة الخطاب الشهيرة "لا تُسْقِطوا الغصن الأخضر من يدي"، ولما كانت مريم، زوجة سعيد، هي الوحيدة في المجموعة التي تجيد الطباعة، فإنها أنهت الصيغة النهائية على آلة الطباعة المهملة من نوع "سمث كورونا" في البيت، قبل أن يسلمها الحوت بنفسه في الرابعة من فجر يوم إلقاء الخطاب.

وأشار الكتاب إلى أنه، وعندما كان سعيد وعرفات يلتقيان، كانا يتحدثان باللغة العربية فقط،

ويستعمل سعيد لهجة بلاد الشام وليس اللهجة المصرية، رغم أنه كان بإمكانه استعمال اللهجة التي تعلمها في طفولته عند الحاجة، وقد ظل سعيد مخلصاً لـ"الختيار"، كما كان يدعوه، حتى اتفاقات أوسلو، هو الذي لطالما انضوى في الدفاع عنه والإشادة بشخصه ومناقبه ومواقفه قبلها.

المقابلة الأخيرة

في "المقابلة الأخيرة" (٢٠٠٣)، وهو فيلم وثائقي صُنِعَ قبيل وفاته، أصغى الصحافي الصديق غارلز غلاس بينما كان سعيد يذكر سلسلة من وقائع حياته في السنوات القليلة السابقة، بحيث لم يعد بإمكانه أن يقرأ، ولم يعد بإمكانه حتى الاستماع إلى الموسيقى تحت ضباب العلاج الكيماوي. وقد فوجئ ابنه وديع عندما رآه وهو يغط في النوم على كرسي من كراسي الجلوس في الساعة السابعة، وقد سقط كتاب من يده، ووجدت ابنته "نجلا" أن عليها أن تذكِّرَه بأسماء بعض الحاجات البيتية البسيطة، لكنه كان يخفِّف من أهمية "الدراما" وتمسَّك بالقصة التي رواها كلما نصحه أحدهم بأن يهوِّن عن نفسه، وذلك بالقول إن فكرة الراحة تجعله يشعر بالمرض، وإن النوم قد أصبح بالفعل نوماً من الموت.

وكشف الكتاب من بين كشوفاته الكثيرة، أن سعيد كان يستعد لكتابة جزء ثانٍ من "خارج المكان"، لمتابعة القصة حتى وقته الحاضر، وكان يقول إن لديه مشاريع أخرى، كما كشف أنه أمضى السنوات الأربع الأخيرة من حياته في تجميع ثلاثة كتب قصيرة، وكان الوحيد الذي صدر قبل وفاته كتاب "فرويد وغير الأوروبي"، وهو كتاب يكاد لا يحتوي، رغم عنوانه، على شيء يتصل بالاضطرابات النفسية أو أسرار اللاوعي، بل يحتوي على كل ما يتصل ببلد طفولته، مصر، التي شغلت ذهن فرويد في الجانب الأكبر من حياته، ويعود الكتاب في الأصل إلى محاضرة في متحف فرويد بلندن، وكان بمنزلة الانتقام من المكان الذي كانت المحاضرة ستُلْقَى فيه أصلاً، وهو متحف سيغموند فرويد في فيينا، الذي سحب الدعوة بسبب تداعيات حادثة قذف إدوارد سعيد الحجر باتجاه قوات الاحتلال من الجنوب اللبناني.

كان الإرهاق قد جعل التقدم في كتابة الكتب الثلاثة بطيئاً، وأجبره على تأجيل كتب أخرى، منها كتاب عن إقبال أحمد وآخر عن بيتهوفن وباخ، إلى يوم ما في المستقبل، لكنه وإن لم يأت ذلك اليوم، ولم تغادره الآلام التي تشتد وطأةً وفتكاً في جسده ونفسيته، إلا أنه لم يكن يريد أن تجعله علات جسده مثاراً للشفقة، وكان يردد على الدوام: "لا أرغب في لعب دور الضحية".

المثقفون الفلسطينيون في مجابهة الانتداب والصهيونية

عبد القادر ياسين

في أيلول /سبتمبر ١٩١٨، أكملت القوات البريطانية إخراج القوات العثمانية من أراضي فلسطين، واحتلت الأولى هذه الأراضي بالكامل،وسلختها عن الجسم السوري. وفي صيف ١٩٢٢، اعتمدت " عصبة الأمم" قرار مؤتمر سان ريمو،الذي كان قضى، قبل نحوسنتيْن،بانتداب بريطانيا على فلسطين .

تحت الانتداب،افتقرت البنية الطبقية العربية الفلسطينية إلى التمايز، شأن سائر المجتمعات الخارجة، لتوِّها، من علاقات شبه إقطاعية؛ ولم تدخل، بعد، العلاقات الرأسمالية.

ما أن أكملت القوات البريطانية احتلال فلسطين،حتى وجد الشعب العربي الفلسطيني نفسه وجهًا لوجه أمام عدومزدوج : الاستعمار البريطاني، والحركة الصهيونية. وفي خضم الصراع، الذي خاضته الحركة الوطنية الفلسطينية ضد هذا العدوالمزدوج، أُعيد تشكيل الثقافة الوطنية، التي أخذت تتخلص، وإن بخطى جنائزية، من تأثير العلاقات شبه الإقطاعية. كما أن وحدة المعاناة من الاستعمار البريطاني، والحركة الصهيونية،عجَّلت في صهر الشعب العربي الفلسطيني في بوتقة واحدة.

لقد تجلى تجانس ثقافي ملحوظ، آنذاك، بفعل تلك المعاناة، أولاً؛ وبسبب سياسة التجهيل، التي اختطتها سلطات الانتداب، ثانيًا؛ وقبل هذا وذاك، بتأثير الموروث الواحد للشعب كله، المنتمي إلى أمة عربية عريقة،ثالثًا.

وقعت مجموعة مثقفين أسيرة الوهم بأن القوات البريطانية إنما أتت لتُحرِّر فلسطين من الحُكم العثماني،وليس لوراثة هذا الحُكم، وتسليم فلسطين للصهيونية. ووصل الأمر بتلك المجموعة حد تقديم طلب إلى الحاكم العسكري لمدينة حيفا، الميجور نوُت A major not ، بالسماح لهم بتأليف

"الحزب العربي الموالي لبريطانيا " (١٩١٨/١١/٢)! وبعد ستة أيام، أبلغهم نوُت موافقته على تشكيل الحزب المذكور. وضمَّت تلك المجموعة كلاً من : أمين عبد الهادي ، ونجيب نصَّار،وعبدالله مخلص، ورشيد نصَّار، وسرعان ما انضم إلى مؤسسي الحزب كل من : جبرائيل الخوري، وعزيز عيراني، وأحمد الإمام، ومحمود الماضي. وشكَّل الجميع قوام الهيئة الإدارية للحزب، وانتُخب نجيب نصار رئيسًا مؤقتًا للحزب. وأرسل الحزب برقية تهنئة إلى ملك بريطانيا، بانتصار جيوشه، في الحرب العالمية الأولى. واللافت أن أعضاء الهيئة الإدارية اشترطوا استشارة الحاكم العسكري البريطاني، قبل إرسال البرقية ! وسرعان ما تمت تنحية نصَّار عن رئاسة الحزب، ليحل محله أمين عبد الهادي. وبالصدمات المتوالية للحزب، بسبب تحيُّز البريطانيين للمستوطنين الصهاينة، احتج الحزب على هذا التحيُّز (١٩١٩/١/٢٠)،وسارع إلى حل نفسه (١).

جبهة التعليم

سرعان ما أخذ سخط المثقفين العرب الفلسطينيين يتعاظم؛ بعد منافسة المستوطنين الصهاينة لهم في الوظائف الرسمية، وتفضيل البريطانيين لهؤلاء المستوطنين في التعيين*. ناهيك عن تضييق الاحتلال البريطاني للتعليم، في الوسط العربي الفلسطيني**، وحرمان هذا الوسط من التعليم الجامعي، وإدخال العبرية، لغة رسمية. ويوضح الجدول رقم(١) مدى تطور مخصصات تعليم العرب الفلسطينيين.

---

* حسب تقرير للإدارة البريطانية في فلسطين (حزيران /يونيو ١٩٢١)، شغل البريطانيون ١٧٩وظيفة عليا، بينهم ١٤ يهوديًا، في حين شغل العرب ١٤٥ وظيفة، واليهود ٥٠. أما الوظائف المتوسطة والعادية، فاحتل البريطانيون ٨٩منها،بينهم ١٣يهوديًا، في حين شغل العرب الفلسطينيون ١٤٨٨وظيفة، واستأثر المستوطنون اليهود بـ ٥٦٦ وظيفة. في الوقت الذي شكَّل العرب نحو ستة أسباع مجموع سكان فلسطين، آنذاك.

-أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، المجلد الثالث، القاهرة،عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٤،ص ٩٢-٩٣.

** لم تكن حكومة الانتداب تقبل في مدارسها إلا نحو نصف المتقدمين للالتحاق بتلك المدارس، من الأطفال العرب الفلسطينيين؛ ما جعل الأُمية تتفشى وبائيًا في فلسطين (نحو ثلاثة أرباع الشعب،و٨٦٪ من البالغين).و لم تتجاوز نسبة الأموال المخصَّصة للمعارف ٤،٥ -٥٪ من الميزانية السنوية للانتداب. وقد قامت البلديات،والمؤسسات الوطنية،والأفراد بالتبرُّع لبناء المدارس.

- أحمد صادق سعد،فلسطين بين مخالب الاستعمار، القاهرة، لجنة القاهرة للتأليف والنشر، ١٩٤٦،ص ٥٣؛

-عبد القادر ياسين، الصحافة والحياة السياسية في فلسطين (١٩٠٧-١٩٤٨)، نيقوسيا،شرق برس، ١٩٩٠،ص ٢٠-٢٦.

جدول رقم (١)

مخصصات تعليم العرب الفلسطينيين وتطوره

السنة الدراسية	ميزانية المعارف بالجنيه الفلسطيني	النسبة المئوية إلى موازنة الحكومة	عدد المدارس	عدد الطلاب
١٩٢٣/١٩٢٢	٩١،٥٢٠	٤،٨٦٪	٣٠٤	١٩٣٣١
١٩٤٦/١٩٤٥	٧٦٢،٢٠٨	٤،٢٤٪	٥١٤	٨١٠٤٢

الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثالث، بيروت،١٩٩٠

أنظر : مصطفى مراد الدباغ، التعليم في عهد الانتداب،ص ٧٣.

لقد احتل التعليمُ موقعه اللائق به في النشاط الوطني. فعدا عن تحرُّك العرب الفلسطينيين في اتجاه محوالأُمية، ثمة بث الروح القومية العربية في الطلاب؛ وقد أشار"تقرير اللجنة الملكية" البريطانية (١٩٣٧ م) إلى أن " نظام التعليم العربي...يكرَّس كله،تقريبًا، في الدوريْن، الإبتدائي والثانوي، للأدب، والتاريخ، والتقاليد العربية. وجميع معلمي المدارس...هم عرب...وأن طلبة الكلية العربية – التي هي حجر الزاوية في هذا النظام [التعليمي]- لم يمنعهم أساتذتهم من كسر نوافذ مدرسة، مختلطة، في القدس،استمرت في أعمالها[رغم الإضراب السياسي العام]، وأن جميع المعلمين، والموظفين العرب، من الدرجة العليا، وأن معلميْن اثنيْن اعتُقلا في صرفند...إن بضعة آلاف من الشباب العرب يخرَّجون،كل سنة،من نظام مدرسي، لابد أن يغذي الغيرة الوطنية". أردف التقرير بأن" المدارس أصبحت معارف للوطنية العربية "(٢).

من المعلمين الذين ضربوا المَثَل في الوطنية - إبان ثورة١٩٣٦-المدرِّس، السيد أبوشرخ، والشاعر عبد الرحيم محمود، والمدرسون: سامي الأنصاري، وبهجت أبوغربية، وعبد الله الخطيب، وجواد شحيبر (٣).

لقد بلغ عدد المدارس الابتدائية الحكومية (مدتها سبع سنوات)، ١٢٥ مدرسة، في العام الدراسي ٤٥ /١٩٤٦، ضمَّت ٢,٥٠٣ طلاب.وكان في البلاد،العام ٤٦/ ١٩٤٧ م، أربع مدراس ثانوية، كاملة الصفوف، قفزت إلى ١٢ مدرسة، في العام التالي. فضلاً عن نحوثماني مدارس ثانوية، للصبيان والبنات، لم تكتمل فيها سنوات الدراسة الثانوية (٤).

بينما جاء في تقرير "اللجنة الأنغلو-أميركية " (ربيع ١٩٤٦) أن نصف الأطفال العرب، الراغبين في الانتساب للمدارس، يستطيعون أن يجدوا بغيتهم، بينما أغلبية الفتيات لا يتلقين أي تعليم، أبدًا. في

الريف، فتاة واحدة من بين ثماني فتيات تحصل على التعليم. وبعض القرى بنت مدارسها باشتراكات مالية اختيارية للفلاحين. بينما كان ٦٧,٥ ٪ من الأطفال في سن التعليم قد حُرموا منه، صيف ١٩٤٤، مقابل صفر،تقريبًا،لدى المستوطنين اليهود، المستقلين بتعليم أولادهم (٥).

في بعض القرى، كانت المدرسة تُمارَس، إما تحت شجرة، أوتستظل بخيمة، أوفي خُص،أوفي المسجد، إلى أن يتم البناء (٦)!

الصفحة المضيئة الوحيدة تتعلق بالمدرسين، والطلاب؛ فقد كان المدرسون يُقبِلون، بكل ارتياح، على العمل. ولطالما تعرَّض المدرِّسون لملاحقة سلطات الانتداب، في كل مرة حاولوا فيها بث الروح القومية بين الطلاب، ثم زُجَّ بهم في السجن، فضلاً عن عقوبات النفي، والتشريد (٧).

مع كل هذا القهر ضد الطلبة العرب الفلسطينيين، فإنهم تفوَّقوا على نظرائهم اليهود، في امتحانات المتريكيوليشن (نهاية المرحلة الثانوية)؛ ففي العام ١٩٤٥ م، نجح من العرب ٨٦٪، مقابل ٦٢٪ من اليهود؛ وفي العام التالي، نجح من العرب ٨٧٪،مقابل ٧٧٪ من اليهود (٨).

إلى جانب المدارس العربية القليلة، تواجدت دُور المعلمين، والمدارس المهنية*.

باختصار، كان الحرمان من التعليم من نصيب نحوثلثيْ أطفال فلسطين تحت الانتداب؛ كما ضاقت فتحة الغربال، كثيرًا،قبل الوصول إلى المرحلة الثانوية. وحتى من أفلت من الأطفال، ودخل

---

١) الكلية العربية: تأسست، في القدس،العام ١٩١٨،وضمت –حينها – ٢٣ طالبًا،بينهم يهودي واحد. وكانت الدراسة فيها تبدأ في السنة الثالثة الثانوية، وهي داخلية، برسوم سنوية، قدرها ٢٤ جنيهًا فلسطينيًا. وفي العام ١٩٣٥/٣٤، كانت الكلية تضم ١٠٠ طالب عربي، وهو أقصى ما وصل إليه عدد طلبتها. في العام ١٩٣٩، تقرر تأسيس صفيْن إضافييْن، هما الخامس والسادس الثانوي، بعد المتريكيوليشن. وكان العرب الفلسطينيون قرَّروا إنشاء جامعة باسم "جامعة المسجد الأقصى "، تنفيذًا لقرار "المؤتمر الإسلامي"، الذي انعقد في القدس، العام ١٩٣٢؛ لكن الانتداب حال دون تحقيق هذه الرغبة

٢) مدرسة حيفا الصناعية :أنشئت،العام ١٩٣٧؛

٣) مدرسة خضوري الزراعية :بوشر بالتدريس فيها، العام ١٩٣١.

إلى البعثات التعليمية، حيث بلغ عدد من أرسلتهم إدارة المعارف إلى الجامعات البريطانية، لإكمال تخصصهم العالي، العام ١٩٤٦، عشرة طلاب.فضلاً عن المدارس الثانوية الأهلية، وكان منها، نهاية سني الانتداب، ١١ مدرسة ثانوية كاملة (كلية النجاح –نابلس؛ كلية النهضة – القدس؛كلية روضة المعارف – القدس؛ مدرسة الأمة –القدس؛ الكلية الإبراهيمية –القدس؛ الكلية الأرثوذكسية – يافا؛ مدرسة الثقافة –يافا؛ وكلية غزة-غزة).

الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثالث، بيروت،١٩٩٠ (أنظر : مصطفى مراد الدباغ، التعليم في عهد الانتداب،ص ٢٢-٤٥.

المدرسة، فإنه تلقى مناهج تعليمية محدودة، قليلة التنوُّع، فضلاً عن أنها حرصت على الابتعاد كثيرًا بالطلاب عن تاريخهم العربي، والوطني، الأمر الذي حاولت تعويضه بعض الصحف، ونجحت فيه، إلى حد بعيد. كما أدت الصحف دورًا ملحوظًا في التخفيف من التناقض بين الريف، والمدينة. بينما دأب الانتداب، والصهيونية على النفخ في ذاك التناقض، في محاولة للّعب عليه. وإن لم يفلح هذا العدوالمزدوج في غرضه ذاك، إلا في فترات الانحسار الوطني. ناهيك عن الهدف الثقافي الوطني، الذي أنجزته المدارس الأهلية، التي دأبت على مقاومة سياسة التجهيل الانتدابية.وعلى الرغم من تفشي الأُمية،فإن الحلقات البشرية، التي لطالما أحدقت بقارىء الصحيفة،بهدف الاستماع إلى مافيها من مواد، نجحت في تجاوز عقبة الأُمية الكأداء تلك.

في مواجهة الانتداب، والصهيونية، جاءت النسبة الأكبر من الكتابات الفلسطينية، في مجالات الإبداع الأدبي، والنصوص السياسية، والتاريخية.فكان طبيعيًا أن تضج هذه الكتابات بالوطنية.

ولأن الانتداب ضيَّق كثيرًا دائرة تعليم العرب الفلسطينيين، لذا، ظلت هذه الدائرة -إلى حد بعيد -وقفًا على أبناء كبار الملاَّك، والبرجوازيين. فهؤلاء وأولئك، وحدهم، القادرون على تغطية مصاريف التعليم الباهظة.

بسبب احتكار كبار الملاَّك لقيادة الحركة الوطنية، على مدى مرحلتها الأولى (١٩١٨-١٩٢٩)، فإن تعليم أبنائهم عزَّز مواقع الآباء تلك. وإن أدى تلقي هؤلاء الأبناء علومًا شتى، إلى أن يتشرَّبوا الأفكار البورجوازية، وبذا غدت المدارس العربية الفلسطينية تجمعات جماهيرية، محسوبة على البورجوازية، إلى حد بعيد، على الرغم من تحدُّر أكثرية طلبتها الساحقة من طبقة كبار الملاك.

لقد أكسب الطلبة الحركة الوطنية الفلسطينية ديناميكية ملحوظة، ونزلوا، بكل ثقلهم، في: هبَّة البراق (صيف ١٩٢٩)، وانتفاضة تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٣، وثورة ١٩٣٦-١٩٣٩.وإن حال وَهن التعليم، وضيق دائرة الطلاب،وعسف الانتداب، دون تشكيل حركة طلابية ذات شأن، على مدى سني الانتداب.

كما أن معظم الصحف كانت إلى يسار كبار الملاك، عمومًا؛ ذلك أن تحديد موادها كان بأيدي المثقفين، الأقرب إلى البورجوازية الوليدة. وتعمَّق هذا الأمر، باطراد، في المرحلة الثانية من الحركة الوطنية (١٩٣٠-١٩٣٩)، بعد أن دخلت البورجوازية الوليدة شريكًا صغيرًا لكبار الملاك في قيادة الحركة الوطنية، مستندة إلى دعم الحركتيْن، العمالية والفلاحية، ومستقوية بالبرنامج السياسي البورجوازي الثوري، في صراعها ضد اتجاهات كبار الملاك، المهادنة للانتداب.

المؤسسات الثقافية

أنتج المجتمع الفلسطيني، تاريخيًا، ثقافته الشعبية، في ارتباط حميم مع الثقافات الشعبية العربية المحيطة؛ من الدبكة، التي يؤديها شباب الريف، إلى الدحيَّة، ولُعبة السيف، وبقية ألعاب الفروسية، في البادية؛ وموروث كلها في مجموعات كبيرة، في المناسبات الوطنية، والأفراح.

لعل أهم ما ميَّز هذه الثقافة الشعبية غناها، وحيويتها الهائلتيْن.

خلال سني الانتداب، لمع روائيون، وشعراء، وموسيقيون، ورسامون، ومسرحيون، فضلاً عن عشرات من صانعي الرموز الشعبية، والدينية، الذين أرسوا تقاليد فنية راسخة، طافت أرجاء العالم، مع الحجاج المسيحيين، الذين وفدوا من الخارج، إلى القدس، وبيت لحم، وطبريا.

حينذاك، أمكن للعربي الفلسطيني أن يستظل بثقافة عامة، تخلَّلت نسيج الهُوية الوطنية الفلسطينية.

إلى جانب المدرسة، كان النادي الثقافي؛ حيث تواجد في فلسطين، تحت الانتداب،نحوثلاثين ناديًا ثقافيًا، ضمَّ كل منها ما بين مئة وثلاثة آلاف عضو. وغالبًا ما ضم النادي جمعية أدبية،وثانية سياسية، وثالثة رياضية، فضلاً عن المكتبة.وأولت هذه النوادي اهتمامًا خاصًا بالمحاضرات، التي ركَّزت على الحضارة العربية، ومظاهر التخلُّف العربي؛ كما حذَّرت من الصهيونية، وأطماعها، واحتفلت بالمناسبات، الدينية والوطنية؛ ولطالما أدارت نقاشًا حول حدثٍ جار، فلسطيني أوعربي، أوأجرت الحوار حول كتاب، صدر حديثًا (٩).

إلى منتصف ثلاثينات القرن العشرين، لم يكن في فلسطين كلها سوى ست مدارس ثانوية حكومية، توزَّعت على المدن الرئيسية، ومعهدان عاليان، في العاصمة القدس. وعشية انتهاء الانتداب، ارتفع العدد إلى عشرين مدرسة ثانوية، وثمانية معاهد عليا. واعتنى هذا التعليم الضيِّق بتخريج مُوظفين، ومُدرسين، لسد حاجة الانتداب في هذيْن الميدانيْن.أما من تطلَّع إلى التعليم الجامعي، فكان على والده الميسور أن يرسله إلى الجامعة الأميركية في بيروت، أوإلى " جامعة فؤاد الأول " المصرية (القاهرة، الآن)، وإلا فإلى أي من جامعات أوروبا (١٠).

لقد تعمَّق الوعي القومي العربي في أوساط الطلبة، أولاً بسبب العدوالوطني المزدوج، وثانيًا لإلحاح الخطر على الوطن، وثالثًا بعد التركيز على تعلُّم العربية، والأدب، والتاريخ العربييْن، ورابعًا لوعي المدرسين، والطلاب العرب الفلسطينيين بأن المشروع الصهيوني يتخذ من فلسطين مجرد لوحة قفز، إلى جزء كبير من الوطن العربي (من النيل إلى الفرات).

على الرغم من أن نظام التعليم الانتدابي رمى إلى تطويع الفكر، والإرادة العربييْن، ودفعهما إلى

التسليم بالمشروع الصهيوني؛ فضلاً عن أن الاطلاع على تاريخ أوروبا، أدى إلى تأثُّر الطلبة الشديد بالأفكار القومية، والليبرالية.وإن شدَّدت المدارس الأهلية على الثقافة الوطنية، والقومية.

ردَّت الحركة الوطنية على السياسة التعليمية الانتدابية،بإقامة إحدى عشرة مدرسة ثانوية أهلية، في مدن فلسطينية شتى، لعل أبرزها " كلية النجاح الوطنية " في نابلس، و" كلية النهضة "، في القدس، ودأبت الأولى على عقد ندوة نصف سنوية، لأدباء، ومفكرين فلسطينيين، من خارج الكلية. أما في العيد السنوي لكلية النجاح، فكان الطلبة يقدمون عرضًا مسرحيًا، لموضوع تاريخي عربي،يثير الحماس(١١).

نأتي إلى سجل النشاط الفكري والأدبي – في النصف الأول من القرن العشرين – حيث أمكن رصد ٦١٢ كتابًا، توزَّعت على النحوالتالي (١٢):

- إبداع، ودراسات أدبية، وتراث، وسير ١٧٧ كتاباً؛
- صحة، وعِلم نفس٢٠ كتاباً ؛
- تاريخ، وصهيونية، وقومية عربية ١٠١ كتاباً؛
- علوم سياسية، واقتصاد، وقانون٣٧ كتاباً ؛
- دين١٠٤ كتب ؛
- تعليم ١٧٣ كتاباً .

عدا ما عجز راصدو ذاك النشاط عن العثور عليه، فسقط من الجدول عاليه. بينما حفلت الجمعيات الأدبية للمدارس الثانوية بالموضوعات التاريخية، وبأخرى تقارن بين التقدم الأوروبي، والتخلُّف العربي، ناهيك عن التحذير من المشروع الصهيوني.

على أنه لا يمكننا تجاهل تأثير ما كان يجري في أقطار الجوار: مصر، وسوريا، ولبنان، والعراق –في المجالَيْن،السياسي والثقافي – على فلسطين.

الهوامش

(١) عبد القادر ياسين، كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨، ط١، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٥، ص٤٢-٤٤.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثالث، بيروت،١٩٩٠ (أنظر : مصطفى مراد الدباغ، التعليم في عهد الانتداب،ص ٤٠.

(٣) الحكومة البريطانية، تقرير اللجنة الملكية، القدس، مكتب الطباعة، ١٩٣٧، ص ١٧٥-١٧٦، ٤٤٦.

(٤) الدباغ، الموسوعة...، مرجع سبق ذكره،ص ٤١-٤٢.

(٥) جبرائيل كاتول، التربية والتعليم في فلسطين من ١٩٢٠إلى ١٩٤٨، الأبحاث (بيروت)، جـ١، آذار/ مارس ١٩٥٠ ، ص ٤٤٣.

(٦) تقرير لجنة التحقيق الإنكليزية-الأميركية، نيسان/أبريل ١٩٤٦.انظر نص التقرير في :ملف وثائق فلسطين، الجزء الأول، القاهرة، وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات،١٩٦٩، ص٧٧٨-٧٧٩.

(٧) الدباغ، الموسوعة...، مرجع سبق ذكره، ص ٣٨.

(٨) المرجع نفسه، ص ٣٩.

(٩) المرجع نفسه، ص١١٩-١٢٢.

(١٠) المرجع نفسه، الصفحات نفسها.

(١١) لمزيد من التفاصيل في هذا الصدد، يمكن العودة إلى :

- جبرائيل كاتول، التعليم في فلسطين، القدس،١٩٤٧، ص ١٢٥ -١٣٠، ١٨٠ -١٨٣؛
- د. عبد القادر يوسف، مستقبل التربية في العالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٥٧-٦٠؛
- نبيل أيوب بدران، التعليم والتحديث في فلسطين، الجزء الأول، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٩، ص ١٠٥-١٤٥؛
- عبد الله القطشان، التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني، عمان، دار الكرمل، ١٩٨٧، ص ٣٣-١٨٧؛
- عارف العارف، المفصَّل في تاريخ القدس، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١، ص٤٤٤.

(١٢) الكتاب العربي الفلسطيني، كما نشرته لجنة الثقافة العربية في فلسطين، القدس، ١٩٤٦.

أدب المقاومة
"الفكرة الفلسطينية بين المحكم والمتشابه"

د. حنان عواد

حينما يكون الوطن معلقا على مشانق الجزار، ووقائع المعركة تسير في تقلبات سوداوية ، وتتلظى الارض بنيران المحتل .. ليصير الدم الوضيء انهارا .. يكون السؤال ؟

"هل غادر الشعراء من متردم " ؟؟

وهل توقف الكلام في زمن القراءة ؟؟

وهل تشنجت الاقلام بمدادها المقاوم ؟؟

ام ان حقائق المرحلة الاصعب التي ضمخها الالم ، ووشجها اليأس، تفرض الصمت !!!

واذا كانت الكلمة هي سيف المقاومة، والكاتب وجدان الامة ... والفكرة افق المنتهى والمبتدى .

فان الروح لا بد ان تنهض، ولا بد في انفاق الصمت ان تتفجرالكلمة وتنتصر الفكرة .

في هذه المداخلة،اتوقف أمام وقائع التداخلات السياسيةالمتعددة التي عاشها الإنسان الفلسطيني بشكل عام،والكاتب الفلسطيني بشكل خاص،وألقي في اطلالة الإضاءة النوعية نظرة على الأدب الفلسطيني،ونيران العشق الملتهب،حينما تتصدر حروف الكلمات وقائع المقاومة التي أسدلت خدرها في التراخي السياسي الدولي، والذي جنح إلى موقف الرقيب والناشر لرأي الارشاد والترشيد في وقف المقاومة،والتهاوي على درجات هذا التراخي الواعي ضمن النقلة السلبية التي طرحها العالم المعاصر،في الفهم الاحادي الجانب الموجه لإيقاف الفكر المقاوم،وتضليل المفاهيم النضاليةالمتجذرة،والتوجه نحو إرخاء سدول الليل على الذاكرة وعلى الفكرة، بابداع طرق ونظريات لحلول قد لا ترى حتى في العين المجردة ، لرصد حالة شعب لا ينحني،تحاول ربطه

بحبال افكار تشابكية تصله بالفضاء الأوسع في أجندة طائر الترميز الشكلي لبواطن مخططات تغيير الذات،بتعبير ظواهر استباقية تجديدية لمفهوم الحرية والسيادة والتاريخ.هنا نمضي عبوراً إلى انطلاقة الوعي الابداعي والأدائي عند الاديب الفلسطيني.فمنذ توارد النكبات والاحتلالات المتلاحقة، نبض القلم الفلسطيني بصرخاته الموجهة،والتي تناطح جميع قوى الظلم،وتتصدى لكل شكل من أشكال الاحتلال.وجاء الشعر ليشكل الرسالة الموجزة والمعجزة،أو البيان العسكري ذا الإيقاع الخاص في المعركة..حينما قال الشاعر محمود درويش:-

قصائدنا بلا لون

بلا طعم

بلا صوت

إذا لم تحمل المصباح

من بيت إلى بيت.(١)

كان ترسيماً وترسيخاً بأن الكلمة بدء لهدف أسمى واستراتيجية سياسية،انسانية وثقافية،ينقش أبعادها المبدع بكل ادواته الإبداعية،مستنداً إلى أن فلسطين التاريخية بدء،ظل حلول الروح فيها ولأجلها في سالك إشراق الحب الأبدي السرمدي.

وهذه التشكلات الفكرية المستنيرة، تجلت في مفهوم أدب المقاومة/أدب الثورة، (٢)كما تحدث عنه غسان كنفاني،رجاءالنقاش،احسان عباس،غالي شكري،حسين مروة،ومحمد دكروب،وآخرون من الكتاب والمفكرين الفلسطينيين والعرب، وكتاب العالم.والذي برز أيضاً في تجليات الإبداع الفلسطيني..وامتدت المقاومة والثورة في ظهورها الثوري ضمن تاريخية الحدث السياسي،واعتبارية ذاكرة الفكرة المقدسة التي جسدت روح الأقلام الفلسطينية ستائر النور للذود عن الذاكرة وحمايتها في خصب لا يتوارى .

وكانت الحرية الثقافية والكرامة الوطنية إبداعات تشكل الفكرة المعجزة/الفكرة المحكم التي لا ينتابها التشابه او الشبهة.وإذا كانت استراتيجية إنشاء الدولة المستقلة،تسير ضمن سياسة الممكن،وممكن الممكن،فإن الفكرة بقيت مطلقة عظيمة،مترامية الاطراف والفضاءات.

فكما قال الشاعر محمود درويش:"ما أعظم الفكرة وما أصغر الدولة"(٣). والاديب هو حامل الفكرة والمدافع عنها ومبدؤها الاول (٤).وقد اتسعت رؤيا الأدباء الفلسطينيين بفعل انتمائهم،وبلغة الإبداع، لتحمل فيض التعبير عن الوفاء للأرض،وشكلت عباراتها وتعابيرها الخاصة الوجود الحتمي

والفني،كما نرى في إبداعات الرعيل الاول،أبو سلمى،إبراهيم طوقان،عبد الرحيم محمود، حسن البحيري ،حنا ابو حنا،سليم الزعنون (ابو الاديب)، هارون هاشم رشيد ، يوسف الخطيب وغيرهم .وتجلت صوفية العلاقة التوحدية في معالم الوجود الفلسطيني،حتى غدت إشارتها الترميزية افاقاً لحق التعبير عن الارض والإنسان،بإبداعات معاني الحالات في رحلة روحية تتلخص فيها تجربة الحلول.

وازداد تعمق الاديب الفلسطيني الفكري والوجودي،ومع هذا التزايد في التعمق المعرفي،بدأ التطور الفني يخترق الآفاق في فضاءات فلسطين والعالم،في جدلية غموض ووضوح في القصيدة،مبناها العشق الذي تفانى به أنيَ الشاعر في ذات المعشوق،بلغة أنسانية وتجليات محملة بالدلالات.وكلما اتسعت الرؤيا واتقدت نيرانها،اتسع الكلم،وخاض في التجربة،في قوارب إبحار إلى كنه الحقيقة الأزلية التي يرتبط بها.

ان الشعر في تدرجه السلالي للاسطورة، باتقانه التناوب ما بين التصريح والتلميح يغذي الفكرة المطلقة للروح ، ويهييء الوجدان لحالة التواصل الاخاذ، والتحليق باجنحة الكلمة ، بعبق امواج المعرفة الموغلة في افاق الذاكرة المنقولة في الحيز الوجودي والتعبيري الملازم لقضية نضالية اسمى في تحسين ملامحها، وتزيين لوحاتها بشذور الالم والامل المودع في الوجدان الفردي والجمعي ،لتحقيق مساحات اشتعال الانبهار بوطن وقضية، وتكييف الرؤية الانسانية في دلالاتها ،لتحمل كل مبررات الوجود والنضال الاسطوري، ليكون نشيدا لا يدركه الفناء، ولا يتوقف عند جدران انحسار الامان. (٥)

والشعر الملتزم هو انعكاس الخارج على الداخل، كونه يقدم صورة جديدة، وتربة لمفهوم الحياة، وهوفي الوقت نفسه يمثل رسالة تصل المتلقي عبر رؤية الشاعر الذاتية، والتي تحمل الاقانيم الجمالية والخيرة للاشياء والكائنات – ليكون دور الشعر، اعادة صياغة الحياة عبر مفاهيم ومسميات تقلب بشاعات الواقع، محلة محلها رؤى تتفق ومجمل تطلعات وامال الانسان، بما فيها نضالات يومية ، تهدف الى التغيير، وتأسيس الارض الجديدة في مواجهة ارتال الخيبات المتلاحقة التي نعايشها، لتحتل الرؤيا الاشراقية بؤرة التحولات .

والشعر الذي ينشد الكمال، يتنكب الطريق المؤدية اليه، غارقا في متاهات لا بد وان تؤدي في النهاية الى النقطة المحتملة، نقطة الاشراق والوضوح في انتاج بنية ادبية، تحاول من خلال تمثيلاتها، وصورها الحركية اعادة انتاج العالم على مستوى الرمز، وذلك في وحدة الشعر الادبية الرمزية التي تعمل على اختزاله، ثم تقديمه مجددا الى الوعي . وهو يقوم باعادة برقعة الطبيعة بذلك الستار

الصوفي الاخاذ، واعادة وحدتنا معها، ويعمق فينا ذلك الحدس الخلاق، والادراك الباطني للمدهش، والرائع، والفائق، والقدسي في هذا النزوع الميثيولوجي الدفين والمتاصل في النفس، والذي ينعكس في الثورة.(٦)

واذا كانت الثورة في جوهرها ايمان بامكانية تحقيق العدل في هذا العالم كما يقول رجاء النقاش، فان الثورة الفلسطينية عمقت تجربة الابداع بشمولية الفعل التراجيدي، ووحدته، مرتكزة حول الانا في مبدأ الوحدة ، ليصبح حضور الشاعر معادلا لموقف فني.

وقد فاضت جداول العطاء في كنه القصةوالرواية،فما كتبه الشهيد غسان كنفاني (٧)في رواية أم سعد،عن الرجال والبنادق،عالم ليس لنا،عائد إلى حيفا، وغيرها من عشرات الأعمال المصورة لوقائع تفصيلية للوضع الفلسطيني في جوانبه المتعددة،وما كتبته القاصة سميرة عزام،مي زيادة،والأديب جبرا إبراهيم جبرا،رشاد أبو شاور،يحيى يخلف،اميل حبيبي،حكم بلعاوي، أحمد شاهين،إبراهيم نصر الله،أحمد حرب،أفنان القاسم،سلمان الناطور،غريب عسقلاني، احمد رفيق عوض،محمد علي طه،حسن حميد،محمود الريماوي، جمال ناجي، فيصل حوراني، محمد ابو النصر، فاروق وادي،سحر خليفة،محمود شقير،خليل السواحري وآخرون من أعلام الرواية والقصة القصيرة،وضعت علامات فارقة في النزوع الأدبي المتميز ببعده الموضوعي،حيث ارتبط بقوة بالقضية الفلسطينية،منطلقا من إيمان بفكر إيديولوجي متوج بالالتزام الواعي.

وقد رافق الابداع الفلسطيني رؤى نقدية عديدة فلسطينية وعربية ،ساهمت في اغناء التجربة،واطلت على الابداع بروح الوجدان وروح الفكر،وامتدت آفاقها عبر مدارس نقدية متسعة المساحات،معمقة التحليل،مطلة على الادباء في اضاءات نوعية تخصيصية،وكذلك في اضاءات شمولية، تلقي اضواءها على ملامح الابداع الفلسطيني وفلسفة الوجود والهوية،مستحضرة روح الشاعر وروح الاديب وروح الانثى في التجاذب التخصيصي والتلاحمي مع الفكرة والارض والانسان. واتسع مدى النقد العربي في مواكبة الادب المقاوم واستشعاره، من خلال نظريات مقاومة ومناهج تحليلية ترابطية وتوثيقية للحدث السياسي،والعمل الابداعي والفني، بالحداثة والمعاصرة والعالمية الفنية،لتتجاوز التقليد النظري في قفزات نوعية استشرافية للحلم،والتجانس الايقاعي والتجسيدي للفكرة،والتحليق الفني في الماهوية والتركيب،ونقوش المنظورات التعددية على قاعدة ايجاد قناديل التفرد والتميز والاستمرارية،والتي تجلت في اعمال نقدية هامة،امثال كتابات احسان عباس،ادوارد سعيد،ابراهيم ابو لغد،رجاءالنقاش،كامل السوافيري،غالي شكري،ادونيس،نبيه القاسم،افنان القاسم،ناصر الدين الاسد،د.محمد زايد وآخرين،ليكون الادب المقاوم مدرسة ابداعية متفوقة،تنبع من روح الرفض للاحتلال وجميع قوى الظلم.وقد غلفت النقد في الكثير من الاحيان ومضات الحب

والتعاطف مع القضية الفلسطينية-جعل الشاعر محمود درويش يخاطب النقاد"ارحمونا من هذا الحب القاسي"،والذي برأيه كان سلما تشجيعيا للكثير من الاعمال التي لم تصل الى المدى المتوخى فينا، في التعبير عن القضية المقدسة فلسطين،والتي تعبر القلب والروح دون شعاريات يتقلص فيها الفن،وتتكسر اجنحة التحليق الرمزي والبلاغي،لتأخذها الى تراكمية الخطاب والشعار الذي يحتفي بانتفاء التصوير، ولا يعيش في الذهن ولا في الروح،بل ينتحي جانبا في اغتراب فني لا تواصلي،بعيدا عن الحداثة والتحديث وعمق الابداع والتجذير،ليشكل انتهاكا لفنية النص وحضوره الوجداني واللغوي.

وكما نعرف أن الأديب ليس منظراً سياسياً ولا مؤرخاً،وإنما هو مبدع ناقل لواقع موضوعي، مرتق به إلى مستوى التفاعل والارتقاء الفني ليليق بالفكرة..وإن تفاعلات العمل الفني وانعكاساته-كما يراه أنجلز-ليس انعكاساً لميول هذه الطبقة او تلك،بل هو في غاية التعقيد،وله نوعيته التي تضرب جذورها في أعماق الطبيعة الانسانية.(٨)وفي إضاءة لواقع النضال الفلسطيني، نرى ان القضية هي ذات الاديب في البعد الجمعي المتوج بالأنساق المعرفية المجدولة بفضاءات الوطن،والتي تحمل رسالتها في تصوير الالم الانساني في ظواهره السياسية،الاجتماعية،والإنسانية،يضاف إليها تجربة الاديب الروحية والذاتية في ايقاظ الروح التي تعيد للواقع وللانسان انبعاثهما بعد الموت ، والتي تحمل أساس قاعدة التميز في تأويل التعبير الفني،واستشراف حقائق الوجود الفلسطيني والمعاناة بتفاصيلها.

فمنذ الاربعينات، والاحداث ذات الفعالية تتوالى على فلسطين،جسدتها النكبة التي أحدثت زلزالاً كبيراً في العالم العربي،وغمرت وجوه المبدعين بالوجوم والدهشة واليأس،وغيرت الواقع الاجتماعي والسياسي الفلسطيني.وكما يقول رجاء النقاش:"إن الكارثة الفلسطينية خلقت في نتاجنا الادبي الحديث فترة انتقال لها سماتها الخاصة،وأهمها التعبير عن القلق والضياع"وفي هذه الفترة ظهر نتاج أدبي كثير ومتنوع.يقول عبد الرحمن ياغي:"هذه المرحلة تمتاز بالنضوج الفني في أدب القصة واتقان العمل القصصي.(٩)فأخذت ملامح النكبة واللجوء والتشرد تبرز في القصة، كما رأينا في أعمال القاصة سميرة عزام،وكذلك في الشعر أيضاً، وصار الدفاع عن الهوية الوطنية أحد الكنوز الدفينة التي حافظ عليها الأديب الفلسطيني،هذه الهوية التي شكلها الإنسان المناضل والمقاتل في العلاقة مع الأرض،وجذور الزيتون وعيون البرتقال.

وتشكلت صفحاتها الإنسانية بالتداخل الواعي والمعمق ما بين الرمز والواقع،وتصويب النظر في الرؤيا العاشقة للمرأة الإنسان ، والحضور البهي في تشكيل هذا الجمال الفلسطيني الأخاذ-في رمز باهر للعلاقة التلاحمية ما بين الإنسان والأرض/وما بين رمز المرأة فلسطين-وتجلى هذا التداخل في

هذا المقطع لمحمود درويش:

فلسطينية العينين والاسم

فلسطينية الأحلام والهم

فلسطينية الميلاد والموت(١٠).

وهذه الأبيات لعبد الكريم الكرمي(أبو سلمى)

كلما حاربت من اجلك

أحببتك اكثر(١١).

*وان الرمز كما يراه عبد الرحمن بسيسو ينبثق من التوتر القائم بين التجسيد العياني والمدلول ، بين اللفظ والمعنى، بين الاسم والهوية ، بين الذات والموضوع ، بين المرئي واللامرئي، بين الحسي والمجرد، وهو ينهض على مبدأ درامي اصيل هو مبدأ استقطاب المقابلات. فالتنازع بين روح المدلول وشكله الجسماني يظل قائما داخل بنية الرمز ذاته، وهو يدمج الماضي بالحاضر ايضا ، ويظل متوجها نحو المستقبل، ذلك الخفي الغامض، الذي يتوازى مع عالم المعاني . والرمز لا يرتبط بمكان ولا زمان لانه كوني، ولانه غاية في ذاته يتجاوز الاصطلاح والتوقيف ،اي يتجاوز سكونية الدلالة وثباتها، ومحدودية معناها، فيكون خارج الزمان والمكان، وخارج الثبات، يظل في صيرورة وتحول، يسافر الى المجهول ويدل عليه، وهو ايضا شيء معارفي، وهو كشف ورؤيا، يعمل على التقاط الماهوي الجوهري ، عبر القيمة الايفونية للحسي، وحركة الى ذاتيته وطبيعته ومغزاه. والرمز كما يراه هيغل هو الاتحاد الكامل بين ما يشكل روح المدلول وبين شكله الجسماني .(١٢)وفي الرمز حاول الشاعر الفلسطيني خلق حياة اخرى معادلة لحياة اكثر صدقا واكثر جمالا وثورية وحقوق الجماهيرية المنتقاة.

ونتسائل كيف دافع الكاتب الفلسطيني عن الهوية الوطنية والفكرة، خلال الانكسارات المتعددة؟؟.

وفي الحديث عن الهوية الوطنية تتجسد فلسطين/الفلسطينية، لتكون ليس فقط هوية الميلاد،بل هي أيضاً هوية الانتماء،هوية الكفاح وهوية العطاء..فحينما انشد محمود درويش في بطاقة هوية سجل انا عربي،(١٣)اعتبرت هذه القصيدة مداً استراتيجياً ورمزياً متميزاً، ومنطلقاً للثقافة الفلسطينية في عمقها الاستراتيجي،تبعها مقولات كثيرة كتبها محمود درويش لتلخص مراحل نضالية امثال أحمد الزعتر،ومديح الظل العالي.ومن خلال الهوية الفلسطينية والعربية يتمنى درويش ان يمنحه الله القدرة والحياة ليسجل المرحلة النضالية الاخيرة فوق ثرى فلسطين،ليكتب النشيد الختامي/

الابتدائي-الختامي لمرحلة، والابتدائي لمراحلنا القادمة.ففي ديوانه "لماذا تركت الحصان وحيداً" يؤكد على الهوية الوطنية والهوية النضالية. وقد تحقق له ذلك بالعودة إلى الأرض، وتجسيد كلماته في ربوعها،وحلقت روحه الطاهرة فوق روابيها،لتظل كلماته رسالة خلود لوطن خالد.وتظل فكرة الهوية والبحث عنها والانتصار لها شوق المبدعين.

ما أكثر الماضي يجيء غداً

للمرء مملكة الغبار وتاجه

فلتنتصر لغتي على الدهر العدو

- على سلالتي،

علي..على ابي

على زوال لا يزول

لابد من نثر إذن

لا بد من نثر إلهي لينتصر الرسول(١٤).

وكما قال انجلز :" ان الحلم لا بد ان يتحول الى حقيقة، ولا بد ان نصل اليه ".(١٥)،وكما صور في هذه الابيات-

سوف تصير الارض كلها روضة تشع بالزهور

وسوف يزهر كل ركن من اركانها بنبتات جديدة

وسوف يغطي نخيل السلام مساحات الشمال

والورود سوف توشي الحقول التي كانت مجمدة.

والفكرة هي اضاءة وعي الواقع وهي النبوءة، والامتدادات في فضاءات ومساحات المستقبل ، واستشراف التطبيق السياسي والاجتماعي لها، بفعل استعادة تشكيلية خلاقة، بمدى تنفيذي للعدالة .

ويقول نزار قباني....

أنا يا صديقتي متعب بعروبتي

فهل العروبة لعنة وعقاب(١٦).

ويقول ايضاً:" كل كلمة لا تأخذ في هذه المرحلة شكل البندقية، تسقط. والشاعر ملزم في كل الاوقات، حتى يتحرر آخر شبر من الاراضي الفلسطينية"(١٧)

وما اشار إليه معين بسيسو في(القصيدة)

ما تبقى الآن معك

هو كل القليل

* ما تبقى معك الآن

هو الزلزال ذو الظل الظليل

ما تبقى معك الآن

هي الأرض التي أعطتك اسماً(١٨).

وقد تشكلت الهوية بملامحها المتعددة في مراحل النضال الفلسطيني المختلفة أيضاً،فبعد هزيمة حزيران انعكست ظلال الليلك في ذبول،وانتشرعبق الياسمين والمنثور في فضاءات الانكسار،التي أخذت تضيق بها الفضاءات الروحية، وغلفتها دوائر مغلقة،حالة من الضياع والتلاشي في الذات. وأطلت علينا قرارات الشرعية الدولية التي لم تطبق على ارض الواقع،وحينما نستذكر ما قاله أبو سلمى:

غداً سنعود والآلاف تصغي

إلى وقع الخطى عن الإياب(١٩).

وهو يطلق الحق الإبداعي والسياسي في فكرة العودة، والتي انطلقت أيضاً في الفكرة السياسية، وفي قرارات الشرعية الدولية،ندرك عمق دلالات الهوية في وجدان الشعراء.وفي توهج نيران شعلات الانتفاضة،ارتقت الهوية الوطنية في نضالاتها.فالانتفاضة الأولى في استراتيجيتها في العودة والتحرير والمد الشعبي والسياسي في يومياتها،وفي برنامجها المحصن، وفي الأمل الذي لا يموت،تحدت الانكسارات. وقد تغنى الشعراء بالانتفاضة حلما للخلاص . وفي اشاراتها ومشتملاتها، تجسدت البطولة وعودة الروح في جدليتها المتواصلة مع الزمن والكلمة والقرار، بوهج اسطوري يستعيد ذاكرة بروميثيوس، وتحطيم صخرة اسبارتاكوس .وقد صور الشاعر سليم الزعنون الانتفاضة في ديوان نجوم في السماء،

وأهلي وجيل الانتفاضة قد أتوا

خفاقا وقد لبوا الى الحرب داعيا

تراهم الى القدس الشريف تدافعوا

وقد رفعوا الرايات الى المجد عاليا

شبابا وشبانا شيوخا ونسوة

اضاءوا ظلام الليل اذ كان داجيا.(٢٠)

وفي مرايا الملائكة ينحاز ابراهيم نصرالله للطفولة، للاطفال الشهداء واحلامهم ،وينتصر اليهم، ويرسم صورهم بابداع متميز،من سؤال الموت الى انفجارات الحياة.

لايمان حجو، سؤال وجود لا يرحم

هناك الكثير

ولكنهم ها هنا لا يريدون غير الاقل

صعود الجبل. (٢١)

وكما قال محمود درويش " ومن حجر سننشيء دولة العشاق " (٢٢).

ويتشكل الوطن ليظل الصورة الخالدة التي لا تموت؛الوطن،الأرض،الفارس/الفدائي،وتتجلى العلاقة التلاحمية بين الأنا والآخر، وهو الوطن، في هذه القصيدة النثريةفي تقديمي لديوان اخترت الخطر:

يا انت يا انا في ميلاد الوعد الاكبر

في عرس الرحيل إليك وأثوابه المطرزة بالدم

والموشجة بعبق الرياحين

وتنتهي القصيدة:

ولدت في الصمت،فجرك الموت

وارتحلت إلينا،وارتحلنا إليك

وحملناك معنا أبداً

في كل رحيل، وفي كل طريق (٢٣).

ونظرة الى ما كتبه الشاعرحسن البحيري في معنى الوطن فلسطين، نستشعر هذا التمازج الروحي، والتلاحم، بحيث ينقلنا الى عالم الحلول التجسيدي لوقائع هذا الحب الذي لا ينتهي، ونجد هذا الاهداء لديوانه " لفلسطين اغني":-

النور الذي تبصر به عيناي اسمه فلسطين.

والهواء الذي تتنفسه رئتاي اسمه فلسطين

والدم الذي يجري في عروقي اسمه فلسطين

وما كتبه يوسف الخطيب(مجنون فلسطين) من ابداعات تختلج النفوس ويعبرها التاريخ وتعبر اليه.(٢٤)

وكما قال محمود درويش :

"تعلمت كل الكلام وفككته، كي اركب مفردة واحدة، هي الوطن". (٢٥)

وفلسطين هي التشكل النسبي والمطلق في دلالاته الوجودية، في مدنها ، قراها، روابيها ،سهولها، انهارها وقمرها الدائم الاضاءة، وشمسها التي لا تغيب، وعصافيرها المغردة في الجليل. فالمكان شكل نبراسا للهوية، اضاء ملامحها الجمالية الخالدة، وظلت مدائنها لوحات صخب وصفاء في روح القصيدة الفلسطينية، فترى حيفا تفرش ضفائرها على المتوسط، والقدس تتجلى عروسا مخلدة لفلسطين . تتسارع فيها قطيرات الندى في الاشارات الالهية لنور نهار لا ينحسر، لينتصر المصلوب على اخشاب العشق المتوارية خلف تراكمات صورة البناء، وارجوحة تصارع زمنها، وزمن صريع، وصرخات ميلاد، ونسوة تختال، وزمن يغتال، وارباع الربع متشنجة خائفة الايواء في عرين قد تتفلت خيوطه عند عزف اهزوجة اللامان المبرمج في ذاكرة المدينة ، بالاسوار الناعسة، واعشاش الدوائر، واوراق مختومة الشهود،في اللحظات الاخيرة في معانقة النصر والفجر، لتكون الروح مكنونة في مهرجانات الاثير المكبل، بعبق الياسمين، والليلك المزروع على قافلة الى الوطن، وعلى اقفال بوابات الصمت، على روابي وطن يغفو ويستيقظ، ليستقبل شارات العبور في الذاكرة، الى خصب التوهج في الروح، والمتوج في الوان الليلك المنتظر طائر الفينيق. والمكان وذاكرته وتفاصيل هذه الذاكرة نقش الوان اللوحة الشعرية، وخارطة الروح المتوسدة اشعة الضمائر الحية للحلم والامل .

وتتصدر القدس شرايين العلاقة الزمانية والمكانية لتسرد فعل الشموخ الاسطوري، وهي تتمثل في صورة ابداعية، ورؤية فنية سياسية منسوجة بالحنين الاخاذ وموجات الغضب، ليتجلى ضمن

محاور شمولية الوطن، والارض المكللة بمنظور الالتحام بها ، والزفاف اليها، وايضا ضمن الخصوصية المعلقة على الواح الشمس في اشراقها وتعاليها، ويقول درويش: " على هذه الارض ما يستحق الحياة، على هذه الارض سيدة الارض، ام البدايات، ام النهايات، كانت تسمى فلسطين، صارت تسمى فلسطين ".(٢٦)

وفلسطين هي المعشوقة الاعز في فضاءاتها الواسعة ، والام هي التي تحتضن القدس عند كل نبض يتشكل في هذا القلب الملائكي الذي يبعث الحياة للوجود ،ليتحقق في ارتداد النص المطلق الى تخصيص الرؤيا ، وبعث التصور الواعي في روح الانا الاعلى، ليرتفع الصوت المتحدي.

يقول درويش : " انا الارض ، ايها العابرون على الارض في صحوها "

" لن تمروا "

" لن تمروا "

" لن تمروا " (٢٧)

ويتابع : " ايها الذاهبون الى صخرة القدس "

"مروا على جسدي" (٢٨).

ويستحضر الموت ذاته ليعلو نبض الرفض ، والقلق من فقدان الارض، ورحيل المكان . يقول درويش " يا ارض لم أسألك : هل رحل المكان من المكان ؟ " .(٢٩)

ويتجلى تعبير الرؤيا في هذا التنصيص : " اه، ما اصغر الارض، اه ما اكبر الجرح " . (٣٠)

والارض هي مساحات الامتداد المربوطة بالكينونة الوجودية للشعب الفلسطيني .

وحينما يقول درويش : " هنا القدس "

يا امرأة من حليب البلابل، كيف اعانق ظلي وابقى (٣١).

ولا بد من تخصيب الذاكرة بالحلم الموجه الى القدس، بشموخ الفكرة الاشمل، وصعود الفتى العربي الى الحلم، ولا بد من ذاكرة المكان، واستحضار الفكرة الازلية للقاء بها، وانبعاث الذات اليها في دنف الاشواق . والقدس عظيمة شامخة ، كما يراها درويش،لا تهتز اسوارها ولا تسقط ، موجها نقده لروح التخاذل التي فشلت في الدفاع عن القدس:

" المدينة لا تسقط، الناس تسقط

ورويدا رويدا تفتت وجه المدينة

لم نحول حصاها الى لغة

لم نسيج شوارعها

لم ندافع عن الباب

لم ينضج الموت فينا "(٣٢).

ويظل حضور القدس شوقا معرفيا في قلب الشاعر ، ليتحد بها في وله ورمزية روحية باطنية ، تحقق الفكرة في اتحاد ذات الشاعر في دلالات التواصل الاخاذ في الذاكرة والهوية ، والهاماتها النورانية ، لترتفع النفس الشاعرة الى صفاء الجمال المطلق،بصورة اشراقية ، في انكشاف الفكرة الفلسطينية في التامل الداخلي .

ويقول درويش : "ونلتقي في القدس، ليت القدس ابعد من توابيتي لاتهم الشهود ".(٣٣)

وحينما تجلت العودة إلى فلسطين،وأطل فوارسها بذاكرة وذكريات، ظهرت إبداعات كثيرة،وتجلى الوطن ليكون السيد المفدى،والوطن الليلك في دلالته الرومانسية والنضالية، كما صورها الشاعر منذر عامر:

يا ارضا صارت نبع دماء

يا ام الشهداء

مجدك يشهد

وجدائل شعرك تشهد (٣٤).

وحقيقة الوطن في مكنوناته ، ومشتملاته ، عاشت بها كلمات الشعراء بمواميض خاص ، وتفاعل وجودي ، وتجذيري، كما تجلى في اعمال الشعراء:،ابراهيم طوقان،عبد الرحيم محمود،سميح القاسم،راشد حسين، هارون هاشم رشيد،محمد حسيب القاضي، معين بسيسو،عز الدين المناصرة، ابراهيم نصرالله ،توفيق زياد ، عبد اللطيف عقل، زكريا محمد ،يوسف الخطيب،خالد ابو خالد،حسن البحيري،ناجي علوش،حسن حميد،حسين البرغوثي،مريد البرغوثي، عبد الرحيم عمر،موسى حوامده، حنا ابو حنا،طه محمد علي،سالم جبران،فوزي عبدالله،جمال قعوار،ادمون شحادة،فهد ابوخضرة،شفيق حبيب، علي الخليلي،منذر عامر، عبد الناصر صالح ، سليمان دغش،معين شلبية، المتوكل طه، وآخرين.وما اضفى ثوب الحداثة والمعاصرة في ادب الشباب من ملامح خصوصية تتوثب من خلالها الروح العائدة الى فجر الكرامة ومجد الكبرياء والوفاء .

وفي تجليات مفهوم العودة كتب محمود درويش الجدارية وسرير الغريبة.ومما ارتسمت به ملامح الوطن ما كتبته في هذه المقطوعة :

في جلسات حارة بين الأصدقاء

يأتي الوطن دائماً في استعارات الصباح

وابتسامات العصافير المغردة..

الوطن..عيون الرجل الذي أحب

الوطن وطن الرجل الرجال

وطن الفدائي الاول

وطن الليلك.. (٣٥).

وفي فكرة العودة والعلاقة مع الأرض،قال الشاعر توفيق زياد:

انتظرناك

سرب النوارس عاد

وعادت إلى اول الحلم قافلة العائدين

انتظرناك .*

وفي نفس الفكرة كتب الشاعر مريد البرغوثي روايته"رايت رام الله"،والتي يجسد فيها تجربة العودة إلى الوطن الأم،ومن خلال قصائده أيضاً، وكانت ايضاً قصائد الشاعر عز الدين المناصرة، والشاعر احمد دحبوربطعمها الخاص، والشاعر محمد القيسي،وليد الخزندار، غسان زقطان،زكريا محمد،فيصل قرقطي وآخرين، تمثل حلول الروح والوجدان في وطن لا يستكين.

وفي الانتفاضة الثانية وعودة الروح ونهضة المعشوقة،اشتد الحصار على الشعب الفلسطيني بأقصى وأقسى صوره،وكللت"أزاهير الدم" ثرى أرض فلسطين،وعبر المبدع الفلسطيني عن تلك الحالة الموازية للوجود، ونفي العدمية، باستقطاب الحدث، ونقله إلى مسافات الاستشراف،والاستشراق المخترق جدر الحصار.وكانت الكلمة رافداً للوجود والتحدي،عبر عنها محمود درويش في كتابة "حالة حصار" وهو قصائد انسانية سياسية صاغها الشاعر للرد على ارهاب الدولة المنظم، الذي تشنه حكومة اسرائيل على الشعب الفلسطيني،وتبعه ديوان هام أيضاً وهو"لا تعتذر عما فعلت".

وفي التفاصيل اليومية للحصار والاجتياح ،كتب يحيى يخلف بتصوير انساني، شهادات ميدانية يسجل فيها

وقائع تجربة الحصار تحت سقف النار وقرب المجال الحيوي للزلزال في كتابه – يوميات الاجتياح والصمود - . وفي الحصار أيضاً قدمت تجربتي في يوميات الحصار"في البدء انت فلسطين" (٣٦)وهي رسالة وفاء للرئيس الشهيد رمز الثورة،وللشعب الفلسطيني،وتأكد التلاحم بين الفارس والأرض/ فلسطين.

وفي تقديمه ليوميات الحصار،اعتبر حكم بلعاوي هذا العمل هاما وتاريخيا، واعتزازا بالقائد الذي رأت فيه الكاتبة في الايام العادية وفي الايام الصعبة تماما، كما هو الاب والمناضل والمقاتل.ما اروع اوصافها للقائد في مشهد هذا الحصار المقيت،ان قلمها في كامل الاستقامة والوعي والضمير الوطني، حينما سجلت الاوصاف الابوية، وكذلك الاوصاف النضالية للقائد.

والحصار حالة سيكولوجية وموضوعية عاشها الإنسان الفلسطيني، بين جدار يرفع،وحاجز يقتل الزمن،.وارهاب شكل حصاراً نفسياً في المنفى وفي العودة..وفي هذا يقول معين بسيسو:

* كم من ضلوعك

والحصار يضيق

قد وقفت معك (٣٧).

ويقول محمود درويش ايضا في هذا السياق:

مدينتناحوصرت في الظهيرة

مدينتنااكتشفت وجهها في الحصار (٣٨).

وفي سياق اخر مميز يتحدى الحصار بميلاد الانسان وبنداء الفارس الاوحد الحر:

سقط القناع عن القناع

حاصر حصارك لا مفر

سقطت ذراعك فالتقطها

واضرب عدوك لا مفر

وسقطت قربك فالتقطني

واضرب عدوك بي—

فانت الآن حر وحر

وحر.(٣٩).

وهنالك اعمال كثيرة لم تكتمل بعد،واعتقد أن هنالك ملحمة إبداعية يكتبها عباقرة الشعر لازالت بالانتظار.

ونظرة توفيقية على ما كتبته الاديبة وما كتبه الاديب، يتعين التأني وعدم الخلط بين الكينونة والإبداع..فقد تحدثت في أكثر من محفل أدبي وسياسي عن هذا الموضوع،وتناولته الصحافة،باني لا اميز بين ما كتبته المراة وما كتبه الرجل،وأرفض التقسيم الذي أطلقه بعض النقاد بتسمية"أدب المرأة" أو"الأدب النسائي" أو "أدب النسوان" وغير ذلك من المسميات..لأنني اؤمن أن الأدب هو الفن بارتقائه الموضوعي ومستواه الفني، والإبداعي، سواء كتبه رجل او امرأة.وقد تحدثت عن ذلك بالتفصيل في الفصل الأول من كتابي "قضايا عربية في أدب غادة السمان"، حيث استعرضت نماذج عديدة من كتابات المرأة ،بتجلياتها ورؤاها النقدية(٤٠).

ومن هنا اقول ان الأديبة الفلسطينية تركت بصماتها في محاور النضال الفلسطيني،وكذلك كان لها دور لا يستهان به،فكما تحدثنا عن القاصة سميرة عزام في اعمالها التي كرستها للدفاع عن الهوية الوطنية ،والدفاع عن الأنثى،نذكر الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان التي أغنت التراث والإبداع الفلسطيني. ففي دواوينها ومذكراتها،وإن تجلى بها صوت المرأة، إلا ان منظورنا لدراسة ما ورد في هذه الأعمال، يأتي ضن محاور الإبداع الاستثنائي. وقد ارتقت صورة المرأة في الابداع الفلسطيني لتحمل رمزها الخالد في العلاقة بالارض ، وانتصار الشاعر للارض ، ويكبر الحب وينتشر ليتجاوز الذات الصغرى، وينحاز الى الذات الاعلى في الوجدان الجمعي ،لينتصر الشاعر للارض ويلتحم بالقضية .

احب البلاد التي ساحب

احب النساء اللواتي احب

ولكن غصنا من السرو في الكرمل الملتهب

يعادل كل خصور النساء

وكل العواصم (١٤).

ويرتقي درويش في المرأة الانسان والمراة الرمز في اعلى درجات التوحد :

لن أسميك امرأة

سأسميك كل شيء

انت عندي مفاجأة

ومرايا للضوء

انت عندي أم الوطن

أم أنا الرمز فيكما (٤٢).

وقد ظهر العديد من الكتابات الهامة للأديبة الفلسطينية امثال ما كتبته سلمى الخضراء الجيوسي،فدوى طوقان،سحر خليفة،مي صايغ،سلافة حجاوي،شوقية عروق،نجوى قعوار،آمال رضوان،سعاد قرمان،ليانا بدر، أنيسة درويش وأخريات، والتي أبرزت دور المرأة في البعد الكفاحي للشعب الفلسطيني وفي الدفاع عن الهوية.

*وفي الدفاع المستمر عن الهوية وحمايتها، تحدثت في اكثر من محفل عن تطوير الحالة، واستدراك مستحضرات الاستلاب ، وترسيخ بنية الرمز التي يحمل دلالاتها ويحتضن هيبتها، بامواج الروح التي تؤدي الى جدلية لانهائية موصولة مع الوجود الحتمي ، والتجاذب النوعي للفكرة الخالدة التي تحدد ماهية الانا الكلي، الانا الجمعي الاسمى في الرسالة التواصلية مع المخيلة الى الاخر،ومستجدات الرؤى السياسية والإبداعية في حلقات ذكر التواصل مع الهوية الثقافية. فالفلسطيني،ينقش هويته، بالملامح الفلسطينية،بالجغرافيا،بالحنين إلى الأرض ،التراث ،واللغة وبالتداخل الرمزي..

يقول محمود درويش:

أحن إلى خبز أمي

وقهوة أمي

ولمسة أمي(٤٣).

ويقول ايضاً وهو في المنفى :

وانت يا اماه

ووالدي وإخوتي

والاهل والرفاق

لعلكم أحياء

لعلكم أموات

لعلكم مثلي بلا عنوان

ما قيمة الإنسان

بلا وطن

بلا علم

ودونما عنوان(٤٤).

وبكل هذا التراكم البنيوي،وترسيم الهوية،رسم الادب صورا عذبة ومشرفة لمكونات هذا التراكم،لتتجلى مكانة المراة الفلسطينية نصفا اخر مرتكزا،وتبدو رمزا ونموذجا يمثل ماهية قضيته في الحركة الادبية المعاصرة.ويمكن رؤية صورتها الجميلة في مختلف جوانب هذه الهيكليةوجميع اتجاهاتها في الرسم المنمق للصورة،وفي الاطلالة المميزة في الاداء الابداعي، وتكاثف عوامل الرصد،لتحتل مكانة لا تقل فيه عن الرجل الانسان والمبدع، الا بمقدار ما تمنع معطيات الواقع رؤيته من هذه الصورة، تحت تشابك الممنوع، واشكال القمع العديدة التي يعيشها الشعب الفلسطيني،ليظل الادب رسالة الكلمة الحرة،رسالة القضية،رسالة الدم والفداء ورسالة التحدي للاحتلال ولكل القوى القمعية،لتحمل المرأة سمات الادب الحقيقي من ذاتية الوجدان الجمعي، في تشكلات فنية ابداعية منتقاة،راصدا لحركة التاريخ وصيرورة الكفاح ولواعج الشوق وملامح الحلم،ليكون ادب المراة،ادب الانسان الفلسطيني،ولتكون صورتها في المحاور الابداعية،اضاءات نوعية في حركة الوعي المتدرج من خطوات الممكن،صعودا الى المطلق التنويري والتثويري، بعيدا عن الفكرة المسبقة،وقريبا من الحقائق الفنية التي تكتسب خلودها من ابعادها الفنية،واطلالاتها الرمزية والترميزية..

المحلل النفسي ايركسون Eriksonيقول: "إن دراسة الهوية في عصرنا تساوي في استراتيجيتها دراسة الجنس البشري في أيام فرويد،وإن الأحساس بالهوية ،يرتبط بإحساس الفرد بالانتماء إلى جماعة، بكل ما لها من صفات اجتماعية ثقافية، تجعلها متميزة عن غيرها من الجماعات".

لذلك نحن مشغولون بالدفاع عن هويتنا الثقافية ،وحمايتها ،وسبل التطوير الثقافي المؤيدة للهوية. وإن امتلاكنا كشعب عربي لهوية تميزنا عن الآخرين، هو الكيفية الوحيدة للعيش والتفاهم مع الآخرين.

عالم النفس فيكتور فرانكل قال:"إن الأنسان يجب ان يطور هويته ويطور قدراته الروحية".*

روافد الهوية الوطنية تتشكل بالعمل الفدائي، والحق الذي لا ينتهي،والنضال السياسي الثقافي بأشكاله المتعددة.وقد أكدت الهوية الوطنية أيضاً وثيقة الاستقلال"دولة فلسطين هي لكل الفلسطينيين أينما وجدوا،وفي هذا الإطار ستتاح لهم الفرصة لتطوير ثقافتهم وهويتهم".

والاخرهو الذي يقف امام ابداع الهوية ،ويسعى الى تمزيق خيوطها ، ذاك المحتل الراحل الينا عنوة.

والدفاع عن الهوية من جزئياته أيضاً، الرد وتحدي الفكرة المسبقة التي ترمي إلى دفع الإشراق الفني والحضاري بإشارات تحذيرية الصاقية، هادفة إلى التمزيق ،والتشويه المتعمد، بطرح فكرة التغيير،بفعل إبداعات قوى عظمى ترمي المقاومة بقاذفات النعوت المبرمجة ،التي تبث عناصر الخوف والرقية،والتواري للصوت الجهوري الناقد والمعترض، ليظل الحصار مجدولاُ،والاحتلال فارشاً بسط وجوده،والجنازات اليومية،وتداعيات في الهرولة في مناطق عديدة ،بدافع الخوف المستكين.

ومن هنا جاء فيض الإبداع الفلسطيني والعربي، ليكون الرد من أجل انتصار الفكرة وديمومة الهوية، وتوريثها للاجيال،وربطها بمساحات الفكر الدولي الموجه لبوصلة الى فلسطين .

وفي دراسة مستضيفة لسوسيولوجيا الأدب،والولوج إلى موضوع التحليل الداخلي للعمل الادبي والشعري،وتوضيح الدلالات الداخلية التي تحملنا إلى رؤيا معمقة في قراءة النصوص الفنية ،بواقعية وفنية التجربة،نرى ان "جولدمان" يرى أن الواقع خارج اللغة،وأن اللغة تفرض مكتسباتها ،والمضمون الثقافي لذاكرتها،ضمن الحتمية .

وقد رأى فلوبير ان الفن قائم على المبالغة،أي ذاك الذي يحول الواقع، ليواجه فيه الأحلام والمطالب الواسعة شح التجربة اليومية.*كما اكد جوته في رساله منه إلى شلر" بأن التمثيل الشعري لا يمكن أن يطابق الواقع، لأن هذا تمثيل حقيقي على وجه الإطلاق".(٤٥)*

وحقيقة الرفض الانهزامي والاحتلالي هو المفجر لأدب المقاومة، الذي رسخ في التاريخ فكرة المطلق المتداخل مع المطلق الأدبي والسياسي،في ترحيل شوائب النكسات والهزائم،بفعل تهجير الاحتلال وإزالته فنياً،مخترقاً دروب الواقع الشائك المغزول بالتجربة الكفاحية، بامتداد أبعادها،وتضمين تعزيز الفكرة المطلقة في الوعي الذهني والوجداني في العلاقة التلاحمية بالأرض والإنسان.

وشعر المقاومة هو اشرف ظاهرة شعرية عربية في العصر الحديث، كما يراه نزار قباني.*

وإذا كانت المقاومة -هي الدفاع المشروع عن الفكرة،وارتقاء الدم إلى سلم الخلود،والوجدان الجمعي لأصحاب الكلمة الملتزمة، بأطيافها المتعددة في فلسطين،ولمن كتب من أجل فلسطين-فإن المقاومة في الأدب هي تثبيت القيم العليا في مطلق العدل والحرية.والمقاومة في الفكرة أيضاً،الوقوف ضد السياسات الفاشية التي تستبيح أحلام الشعوب المقهورة.وهي المحاولة للتغيير نحو الأفضل، حتى لا ينعى أفلاطون "جمهوريته الفاضلة"*،ولا يتوارى جلجامش عن" نص الخلود".*وهي الوقوف ضد المفاهيم المسبقة والمستوردة بما فيها "ديمقراطية الدم" التي ترتكز بنودها على قتل الأبرياء. والمقاومة هي الجمع وليس التبديد، وكل شعب ينقسم لا يثبت،واما التجديف على القسمة فهو

كارثة،والواقفون على عتبات القسمة لن يرحمهم التاريخ ،كما نرى في قصيدة محمود درويش"أنت منذ الآن غيرك".

هل كان علينا ان نسقط من علو شاهق

ونرى دمنا على ايدينا

لندرك اننا لسنا ملائكة . كما كنا نظن !

ويتابع قائلا :

لولا الحياء والظلام

لزرت غزة

دون ان اعرف الطريق الى بيت ابي سفيان الجديد

ولا اسم النبي الجديد

وتعلو نبرة الغضب عند درويش ويقول :

لا اخجل من هويتي ، فهي ما زالت في قيد التأليف .

ولكني اخجل مما جاء في مقدمة ابن خلدون

انت منذ الان غيرك (٤٦).

والمقاومة/ فلسطين، وهي تقضي على شواطىء بحر الدم المتوسط،وترتدي حجابها الأسود، ونهر الدم يبكي أطفالها ونساءها، فمن سيحمل العزاء على الرمال الصفراء ، ويطفىء أحزانها الليلكية،وكيف تدق اجراسها وبوح الغدر يخضب بالحزن صباياها.وهي عبور الضوء من خلف الجدران،وتجليات الروح الانفة في كبرياء فضاءات الوطن المضمخ بالتضحية والفداء:

دثريني يا امي

يا سليلة الصديقين والخالدين

بطيب ثرى وطني

الذي أرادوه بعيداً عني

ولكن أريجه اقترب مني

وضمديني من بين أحداق البنادق المشرعة(٤٧).

وبالمقاومة يرى آنجلز حتمية الوصول إلى الحلم ،بوضع الأساس النظري الكفاحي لتحقيق الحلم الشعري والسياسي، وهو يرى أن الفن الأصيل يتجه باتجاه الثورة.(٤٨)*

ويقول محمود درويش"إننا شعراء قضية ،ونحن أبناء الجماهير".والثورة الشعرية مربوطة بثورة الشعب،والقصيدة كما يقول أحمد عبد المعطي حجازي"تركيب يرى الشاعر من خلاله العالم". والثورة ،هي علم تغيير الواقع، كما يقول أدونيس، والشعر الثوري معادل ثوري باللغة (٤٩).

وتظل الفكرة هي "المحكم"، المعمق الجذور، لا تغيب ولا تتوارى، بل تسطع كالشمس.

ومن هنا نستشعر روح الفن الأصيل الذي أبدعه الكاتب الفلسطيني،ليكون رسالة إنسانية خالدة. وخلود الفكرة كان ولا زال هاجس المبدع الفلسطيني،بمعنى الارتقاء بالفكرة،وتصويب الدفاع عنها بكل مشتملاتها.والتقت الفكرة النضالية برؤى فلسفية ارتبطت بثقافة النضال العالمية،فاتسم الأدب من خلالها بالإخلاص في طرح الصورة المعلنة للواقع،وترسيم هذه الصورة بآفاق الفن النبيل.

وهذه البقعة المميزة التي انتمى إليها الأديب الفلسطيني،"أعدل بقاع الأرض هواءً"، ارتقى بها، ومن خلالها ،بالأحاسيس الكامنة والمتوهجة،وبالمعرفة الانتمائية التي تصل إلى الاتحاد بها في تواصل الدائم المطلق؛الحب،اليقين،الكشف والمشاهدة والرؤيا التي تحمل الأمل بالنصر والحرية.(٥٠)

ومن هنا تبدو ذات الأديب في تفاعلاتها ومعرفتها بذاتها الفردية والجمعية،وانعكاسها في الخارج، بالتعمق في فلسفة الكلام ودلالاتها،بترجمة ماهية الفعل النضالي الفلسطيني وإشاراته، ما ظهر منها،وبباطن الرمز، مدعمة بفكرة التواصلية الإنسانية والعالمية.

وإذا كان بوشكين قد نهض بالأدب الروسي إلى قمة الأدب الفني الحق،والكلمة الفنية القومية(٥١)،فإن محمود درويش أيضاً، شكل وجداناً حاراً للقصيدة الفلسطينية والفكرة الفلسطينية؛القومية والعالمية،ورسم ملامحها بالثورية المنتقاة، برسائله الخاصة المرتبطة بالشعر والفن،أي بلغته الفنية الخاصة والصادقة التي رسمت ملامح شخصيته واستقلال الفنان بداخله،"ووصية الدم تستغيث بأن نقاوم"

أن نقاوم

أن نقاوم (٥٢).

ومهما اشتد ارخاء سدول الليل على المبدع ، وجرحته اشواك الجدر المرفوعة والحصار، وعبرت بافاق روحه انتكاسات مؤلمة اختزلت كلماته ، وارتجف قلمه في لحظات القلق والتحير في نقلة الروح ، فان الجرح لا بد ان يصير نبضا للكلام وفجرا للرؤيا ، ووداعية للظلام الذي كان .

"سقط السقوط وانت تعلو فكرة"(٥٣)

وستظل كلمات الادباء ومواقفهم، طاقات التفجير النوعية المطلقة التي ستسقط كل الجدر المرفوعة، بارتقاء الروح بالفكرة في سالكها، وبصعوده في درجات التحدي الأنبل ،في صيرورة وطن في عرس المجد والتجليات .

أه فلسطين

يا اسم التراب

ويا اسم السماء

ستنتصرين

ستنتصرين (٥٤).

واختتم بما قاله الشاعر المصري امل دنقل،

قالت امرأة في المدينة

من يجرؤ الان ان يسرق العلم القرمزي

الذي قام فوق تلال الجماجم

او يبيع رغيف التراب الذي عجنته الدماء

او يمد يدا—للعظام التي تتناثر في الصحراء.(٥٥)

وكانت رجال----

هوامش

١ - محمود درويش،الديوان:الاعمال الأولى،الجزء الاول،(بيروت:دار الريس للكتب والنشر،حزيران،٢٠٠٥)،وانظر ايضا،بدر شاكر السياب،ديوان شاكر السياب، (بيروت:دار العودة، ١٩٨٩).

٢-محمد دكروب،الادب الجديد والثورة:كتابات نقدية،الطبعة الثانية،(بيروت:دار الفارابي،١٩٨٤ -غالي شكري،ادب المقاومة،الطبعة الثانية،(بيروت:دار الآفاق الجديدة،١٩٧٩)،رجاء النقاش،محمود شاعر الارض المحتلة،(القاهرة:معهد البحوث والدراسات العربية،١٩٦١)،حلمي سالم،الحداثة اخت التسامح-الشعر العربي المعاصر وحقوق الانسان،(القاهرة:مركز القاهرة لدراسات حقوق

الانسان)،جورج طرابيشي،شرق وغرب:رجولة وانوثة(بيروت:دار الطليعة ١٩٧٧).

٣- محمود درويش،الديوان : الاعمال الاولى،الجزء الثاني، ص ٣٩٢

٤-محمد زايد، تأملات فلسطينية من العنف الى يوتوبيا الدولة (نيقوسيا: شرق بدرس، ١٩٩٠)،ص١٢

٥- فراس السواح، الاسطورة والمعنى : دراسات في الميثولوجيا والديانات الشرقية، (دمشق : دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة،٢٠٠١) ، ص٣٠. وانظر ايضا، ادونيس ، الثابت والمتحول: تأصيل الاصول. ط٢ (بيروت: دار العودة،١٩٩٧) .

٦-المصدر نفسه،ص٣٠،وانظر ايضا صبحي شحروري،في تأويل الشعر العربي المحلي بين نهوضه واستنساخ الواقع،(نابلس:دار الفاروقي،الطبعة الاولى،تموز،١٩٩٥).

٧-انظر حديث غسان كنفاني في شؤون فلسطينية،ع٢٥(تموز،١٩٧٤)،احسان عباس،فضل النقيب،غسان كنفاني انسانا واديبا ومناضلا،(بيروت:المؤسسة العربية للدراسات والنشر،١٩٨١)،رضوى عاشور،الطريق الى الخيمة الاخرى،(عكا:الاسوار،١٩٧٧)،غسان كنفاني،عالم ليس لنا،(عكا:الأسوار،١٩٨٦)،أم سعد،(عكا: الأسوار،١٩٨٦)،عن الرجال والبنادق،(عكا:الأسوار،١٩٧٧)

٨-محمد دكروب،الأدب الجديد والثورة،ص١٥.

٩-لمزيد من التفاصيل انظر،عبد الرحمن ياغي،دراسات في شعراء الارض المحتلة،(القاهرة:معهد البحوث والدراسات العربية،١٩٦٩)،واصف ابو الشباب،صورة الفلسطيني في القصة المعاصرة،(بيروت:١٩٧٨)،رجاء النقاش،محمود درويش شاعر الأرض المحتلة،(القاهرة:معهد البحوث والدراسات العربية،١٩٦٩)،ناصر الدين الاسد،محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والأردن،(القاهرة:جامعة الدول العربية،١٩٦١).

١٠-محمود درويش،الديوان،الأعمال الأولى،ص٩٢-٩٣

١١-ابو سلمى،من فلسطين ريشتي،الطبعة الثانية،(عكا :الأسوار،١٩٨٠)،وانظر ايضا قصيدة محمود درويش"احبك اكثر" من مجموعة

آخر الليل،الديوان،الجزء الاول،ص٢٥٣-٢٥٤.

١٢-عبد الرحمن بسيسو،قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر:تحليل ظاهرة،الطبعة الأولى،(المؤسسة العربية للدراسات والنشر،(بيروت:١٩٩٩)،ص٢٢٠-٢٣٠،وانظر ايضا،هيغل،الفن الرمزي الكلاسيكي الرومانسي،ترجمة جورج طرابيشي،الطبعة الثانية،(بيروت:دار الطليعة،١٩٨٦)،ص٣٧،محمد غنيمي هلال،الأدب المقارن،(بيروت:دار العودة،١٩٨٦،ص٣٩٨،عمراحمد الربيحات،الأثرالتوراتي في شعر محمود درويش،(عمان:دار

اليازوري،٢٠٠٩)،ص٤٠-٤١-٤٣-١١٤

١٣-محمود درويش،الأعمال الأولى،الجزء الأول،ص٨٠-٨٤،وانظر ايضا،رجاء النقاش،محمود درويش،ص١٨١.

١٤-محمد دكروب،الأدب ألجديد والثورة،ص١٢،محمود درويش،لماذا تركت الحصان وحيدا، رياض الريس للكتب والنشر،(بيروت:٢٠٠١).

١٥-محمد دكروب،ص١٢-٩٥،٦٤-١٢٥

١٦-نبيل أبو علي،نزارقباني شاعر الرومانسية،(ألقاهرة:مكتبة مدبولي،١٩٩٩)،ص١٨١

١٧-المصدر نفسه،ص١١

١٨-معين بسيسو،ألقصيدة،(تونس:ألمطبعة الرسمية،١٩٨٣)،ص٥٦،وانظر ايضا ألأعمال الكاملة،(بيروت:دار العودة،١٩٨٧).

١٩-أبو سلمى،من فلسطين ريشتي،ص٣٨

٢٠-سليم الزعنون(ابو الأديب)،نجوم في السماء،(عمان:دار الكرمل،الطبعة الأولى،٢٠٠١،

٢١ابراهيم نصر الله،مرايا الملائكة،(بيروت:المؤسسة العربية للدراسات والنشر)٢٠٠١

٢٢-محمود درويش،الديوان، الأعمال ألأولى،الجزء الثاني،ص٥١١

٢٣-حنان عواد،اخترت الخطر، الطبعة الأولى،(القدس:اتحاد الكتاب الفلسطينيين،١٩٨٨)،ص١٠٢

٢٤-صبحي عبيد،حسن البحيري:الشاعر الذي انتصرت فيه العبقرية على الحرمان،(رام الله:المركز الفلسطيني للدراسات والنشر،٢٠٠٦)،ص١٣١،وانظر ايضا،يوسف الخطيب:مجنون فلسطين،الجزء الأول،(دمشق:دار فلسطين للثقافة والإعلام والفنون)،

رام الله:اتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين)،ص٢٠١١

٢٥-محمود درويش،الديوام، الجزء الثالث،ص١١٣

٢٦-نفسه،الجزء الثالث،ص١١١-١١٢

٢٧-المصدر نفسه،ألجزء الثاني،ص٢٩٩

٢٨-المصدر نفسه،الجزء الثالث،٢٩٩

٢٩-نفسه،١٩٨

٣٠-نفسه،١٩٤

٣١-نفسه،١٠٤

٣٢-نفسه،١٥١

٣٣-محمود درويش،الديوان،الجزء الثاني،ص.١٢٩

٣٤--منذر عامر،اقل من براءة،أكثر من غواية،(رام الله:منشورات الزاوية،٢٠٠٣)،وانظر ايضا،فوضى الليلك،(بيروت:دار فكر للأبحاث والنشر)،الطبعة ألأولى،١٩٩٤).

٣٥-حنان عواد،وطن الليلك،قصيدة نثرية،١٩٩٨.

٣٦-محمود درويش،حالة حصار،(لندن:،رياض الريس،ابريل،٢٠٠٢)،وانظر ايضا،يحيى يخلف،يوميات الأجتياح والصمود:شهادات ميدانية،(عمان:دار الشروق،٢٠٠٤)،حنان عواد،في البدء انت فلسطين:يوميات الحصار(رام الله:دار

الشروق،الطبعة الأولى،٢٠٠٤)،وانظر مقدمة حكم بلعاوي ل كتاب يوميات الحصار.

٣٧-معين بسيسو،القصيدة،(تونس:نوفمبر،١٩٨٣).

٣٨-محمود درويش،الديوان،الجزء الأول،ص٢٨٠

٣٩-نفسه،الديوان،الجزء الثاني،ص٣٤٨،وانظر ايضا،حالة حصار،ص١٧-١٩

٤٠-حنان عواد،قضايا عربية في ادب غادة السمان،(بيروت:دار الطليعة،اكتوبر،١٩٨٩)،وانظر ايضا،الأعمال الكاملة ل غادة السمان،غالي شكري،ازمة الجنس في القصة العربية،(بيروت:الآفاق الجديدة،١٩٧٧)،غادة السمان بلا أجنحه،(بيروت:دار الطليعة،١٩٧٧)،محيي الدين صبحي،عوالم من التخييل،(دمشق:منشورات وزارة الثقافة،بدون تاريخ)،وانظر ايضا،سميرة عزام،اشياء صغيرة،(بيروت:دار العودة،١٩٨٢)،فدوى طوقان،الرحلة الأصعب:سيرة ذاتية،(نابلس:مكتبة النجاح،١٩٩٤)،غالي شكري،ادب المقاومة،الطبعة الثانية،(بيروت:دار الآفاق الجديديدة،١٩٧٧).

٤١-محمود درويش،محاولة رقم٧،ص٤٩،الديوان،الجزء الثاني،ص١٢٥

٤٢-محمود درويش،يوميات جرح فلسطيني،(بيروت:دار العودة،بدون تاريخ)،ص١١٤،الديوان،الجزء الأول،١٠٦

٤٣-محمود درويش،الديوان،الجزء الاول،ص.١٠٦-١٠٧.

٤٤-نفسه،ص.٤٧]

٤٥-رجاء النقاش،محمود درويش،ص١٣٨،محمد دكروب،الأدب الجديد والثورة،ص٢٤-١٣١،حلمي سالم،الحداثة اخت التسامح،ص١٢٧

٤٦-محمود درويش."انت منذ الآن غيرك"،الايام ع٤١٠٠،ص١

٤٧-حنان عواد."دثريني يا ساحات الأقصى"،بمناسبة استشهاد شاب فلسطيني في مدينة القدس خلال انتفاضة الأقصى عام٢٠٠٢،ونشرت في جريدة القدس بتاريخ ١١نوفمبر لعام ٢٠٠٧

٤٨- محمد دكروب،الأدب الجديد،ص٩٤-١٠٥،وانظر ايضا،محمود درويش."حياتي وقضيتي وشعري"،مجلة الطريق،عدد١٠+١١،١٩٦٨

٤٩-نفسه،ص.١٠٥

٥٠-نصر ابو زيد،هكذا تكلم ابن عربي،(الدار البيضاء:المركز الثقافي العربي)،٢٠٠٤

٥١-مكارم الغمري،بوشكين عند نافورة الدموع ومختارات أخرى،(القاهرة:المجلس الأعلى للثقافة)،١٩٩٩

٥٢-محمود درويش،الديوان،الأعمال الأولى،الجزء الأول(بيروت:رياض الريس)،ص٢٢٩-٢٣٠

٥٣-درويش،الديوان، الأعمال الأولى،الجزء الثاني،ص٣٤٠

٥٤-رجا عيد،دراسة في لغة الشعر:رؤيا نقدية،(الأسكندرية:منشأة المعارف،بدون تاريخ)،

٥٥-امل دنقل، الأعمال الشعرية،(القاهرة:مكتبة مدبولي،بدون تاريخ)،ص٤٨

العنوان الإيحائي في رواية «سوناتا لأشباح القدس» لواسيني االأعرج

أمين دراوشة

مقدمة

اهتم النقد الأدبي المعاصر بعتبات الكتابة، وتركَّزَ الاهتمامُ الأكبر بها من قبل الدراسات السردية المعاصرة، إذ اهتمت بكل ما يحيط بالنص أو ما يسمى بالنص الموازي من عناوين، ومقدمات، وإهداءات، وهوامش، ولوحات الغلاف، بعد أن عُرف أنها مفاتيح من أجل الولوج إلى النص، وفتح مغاليقه؛ فالعتبات تزرع في القارئ الإثارة، والرغبة في اقتحام عالم النص وذلك عبر محاولة تشكيل رؤية استشرافيَّة مسبقة على الأغلب. لا تكاد هذه الدراسات تخلو من الحديث عن العتبات النّصية وخاصة العنوان الذي يعدُّ العتبة الأكثر أهمية التي يقف عندها الناقد ليستنطقها، والقارىء ليتفحصها قبل الدخول إلى قلب النص. وتُعتبر العتبات علامات سيميائية، وهي الحد الفاصل الذي يميِّز بين داخل النص وخارجه، كما أنَّها تُعد الجسر الذي يصل بين النص والقارئ كونها تمهد الطريق للقارئ في سبيل الكشف عن مدلولات النص وجماليته.

وسنتناول العنوان في الرِّواية بصفته العتبة الأكثر قيمة وأهمية، وعلاقته في المكان باعتباره أحد مكونات وعناصر السرد، كون هذا الأمر بالغ الأهمية في مضمار التحليل السردي، وسنتناول عتبة العنوان بالتحليل في إطار نقدي تطبيقي(١).

تفكيك مكونات العنوان ودلالاته

ينتقي الروائي لعمله الأدبي عنواناً مقصوداً، لأنه يرغب منه أن يكون دالاً على المحتوى، أو يضيء بعضاً من المضمون، أو يشير إلى زمان أو مكان أو شخصية أو غير ذلك. إنَّ العنوانَ من الأهمية بمكانٍ؛ بحيث قد يَدْفَعُ القارئَ إلى البدءِ بالقراءَة ومن ثمَّ مواصلتها، هذا من جانب، ولكن ومن جانبٍ آخر قد يدفعه العنوان إلى الإحجام عن الشروع في القراءَة أو إلى التَّرَدُّدِ تجاه مواصلتها، وذلك كما لو كان يقف أمام واجهات أحد البيوت التي إمَّا أن تُغريه وتُرَغِّبَهُ بدخولها أو تدفعه إلى عدم محاولة الدُّخول. "إنّ عناوين الأعمال الأدبية قد تكون شبيهة بواجهات بعض البيوت التي تدل على طبيعة ساكنيها"، فالعنوان هو مفتاح بوابة النص، وهو أوَّل أداة اتِّصال مع النَّص، وأوَّل وسيلة ننتقل بواسطتها إلى داخل أجواء النص؛ لذلك فلا بدَّ من النظر إلى العنوان على أنَّه وسيلة الاتصال النَّاجعة أو الفعَّالة بين "النّظام السيميائي الذي يرتبط به، وبين المتلقي لهذا النِّظام، وعلى هذا نستنتج وجود ثنائيتين، هما: ثنائية العنوان/ النظام السيميائي، وثنائية العنوان/ المتلقي"(٢).

تبدأ الإثارة في الرواية مع حدَّة تأثير عنوانها الإشكالي، فيحاول القارئ تفكيك إشاراته وإعادة تركيبها مُجَدَّداً علَّهُ يصل إلى دلالاتٍ يقصدها المؤلف، فالعنوان يجري توظيفه من حيث الأساس كي يُثيرَ عواطفَ متناقضةٍ في نفس القارئ لأنَّ فيه مقداراً من الغرابة ولاحتوائه على صَدْمَةٍ انفعاليَّة تتصلُ بالدَّلالات التي يُوحي بها؛ وإذْ ذاك فهو يُولِّدُ توتراً في ذهن القارئ نظراً للغموض الذي يعتريه، فالروائي - في الغالب - يقصدُ أنْ يختارَ عنواناً يتضمَّن إيقاعاً موسيقيَّاً وبُعداً انفعاليَّاً،(٣) فالسوناتا كتعبيرٍ - على سبيل المثال - تُشير إلى الغبطة والفرح، وإلى المتعة والحلم والأمل، بعكسِ تعبير "الأشباح" الذي يبعث في النفسِ مشاعرَ الخوفِ وانفعالاتٍ تلقائيَّة غير مريحة، وذلك بعكسِ إيقاع عنوانٍ كعنوانِ "السُّوناتا" الذي يُثيرُ جملَةً من المشاعر، المتناقضة ربَّما، والتي تدفع إلى زيادة منسوب الإثارة والتَّشويق لدى القارئ، وبما يستفز وعيه الإدراكي والانفعالي في محاولةٍ لمعرفةِ غايةِ الرَّوائي من العنوان.

فالسوناتا التي تبقى أصواتها ضمن إيقاعِ حركاتٍ متنوعة بين البطء والسرعة المعتدلة

والسرعة الكبيرة، تعزف لأشباح القدس، ويتكّشف غموض العنوان شيئاً فشيئاً منذ التمهيد الذي جاء ليلخص سيرة حياة وموت الشخصية الرئيسية "مَيْ".

صوت السُّوناتا يرافق القارئ في كل صفحة من صفحات الرواية، فالسوناتا هي المعادل الموضوعي للسرد، وكلاهما يتناولان سيرة مَيْ منذ خروجها من فلسطين عام ١٩٤٨م وحتى أصابتها بالسرطان ووفاتها في المستشفى المركزي في نيويورك، فهي لم تكتمل إلا بعد أن نفذ يوبا وصايا أمّه. أمّا الجزء الثاني من العنوان "لأشباح القدس"، فإن الكلمة الأولى أضيفت إلى الثانية، وكلمة أشباح "لا يغيب عنها المكون الشيئي أو الفاعل، على اعتبار أن الأشباح وهمية ليس لها حضور حقيقي في حياتنا، ولكنها ترتبط بخيال البشر، وتتجسد بألوان مختلفة تبعاً لتنوع الموروث الفكري والاجتماعي لهم"(٤). إنَّ الإنسانَ يتموضع "في عالم بصري من منطلق كونه رائياً لذاته وللعالم الذي يحيط به، وذلك ضمن حدود ما تسمح به رؤيته العينية. ويؤشر الشبح في النص على انحلال الجسد، لأنه يتعارض مع كثافة الملموس التي تتحدد في المرئي"(٥)، فالأشباح لا مكان يخصها، ولا وجود ماديا لها(٦). ولعبت الأشباح دوراً رئيسياً وفاعلاً في الرواية، فهي التي تعيد مي دوماً إلى القدس، وتجعلها غير قادرة على نسيانها، فالأشباح تمثّل ميرا والدتها وأخيها عليّان وجدتها وأخوالها، وحبها الطفولي ليوسف، وتمثّل أيضاً ألوان فراشات القدس ببيوتها وأسواقها وشوارعها وبياراتها، وتجعلها تعيش في فضاء أميركا وفضاء القدس حيث لا راحة لها ولا طمأنينة. إن عنوان الرواية لا تغيب عنه المكانية، فالقدس هي الفضاء الاسترجاعي الرئيسي لشخوص الرواية.

وتبقى الأشباح تطارد مي طوال أحداث حياتها حتى لحظاتها الأخيرة، في المستشفى، تتداعى أفكار مي، تقول: "لكلّ شخص أشباحه التي يظنّها ماتت منذ زمن بعيد، لكنَّه يفاجأ بها تشرب معه قهوته الأخيرة أو تتنفَّس هواء البحر في شرفته نفسها، عندما يصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت. تستيقظ كلّها دفعة واحدة وتقف على رأسه مطالبة إيّاه بمعرفة أسرارها التي ظلَّت حبيسة لديه. التاريخ مثل الثعلب الماكر، يصمت زمناً ولكنَّه سرعان ما يدركنا عندما نتعب من حمل الحياة الذي يُثقل ظهورنا. ولن نتخلَّص منه مهما حاولنا الانفلات.

أقوى من كلّ شهواتنا وإرادتنا"(٧).

إن الشبح المركزي الذي نغَّصَ على مَيْ حياتها، كان ولا شك شبح الاحتلال وعصاباته المجرمة التي حَرَمَتْ مَيْ من كل ما تحبه، فقد حرمتها من فراشات القدس، وأمها وأخيها وجدتها وحبيبها، وحتى والدها الذي كان حاضراً غائباً في حياتها رغم أنه يعيش بالقرب منها. وها هي تقول لابنها: "أنا لا أعرف سرّ هذا الحزن كلَّما انتابتني أرضي الأولى، مثل المرض العضال والخوف الذي لا نعرف له مصدراً، مع أنِّي قضيَّت حياتي كلَّها في هذه المدينة في مقاومة هذه الفكرة التي تتجشَّأ بالأشباح"(٨).

كانت مَيْ مجروحةً لأنها لم تشبع حناناً من أمها، ومجروحة لأنها خسرت حب يوسف. حتى الرسائل التي تلقتها من يوسف بعد عدة سنوات، لم تفتحها، فهي تركت كل شيء وراءها عندما ركبت السفينة من بيروت إلى نيويورك، ودفنت يوسف في مقبرة القلب. ولو أنها عادت لربما كرهته وكرهها، عند دفن شخص نحبه يستحسن أن نذكره بحب، ونقنع أنفسنا بأن الحياة مستمرة بدونه.

ماتت مَيْ وهي في عزّ ألقها، ملتصقةً بقَلَمِهَا وبألْوانِهَا، وأدركت في وقت متأخر أنَّ عودتَها إلى مدينة الطفولةِ حُلْمٌ مُستحيل. وعندما وصلها الرفض من السلطات الإسرائيليَّة، ضحكت بمرارة، وتساءَلتْ: ما الذي يخيف الصهاينة من أن أُدفن في أرضي؟ هل جثثنا مخيفة إلى درجة تحقق الرعب منها. وتضيف: "أعرف أنَّ القدس لم تعد قدسي، لقد سكنتها أشباح كثيرة لم أعد أعرفها، ولكن، أيّ قانون هذا الذي يحرم إنساناً من رؤية أرض نبت فيها وعجن من تربتها وشمسها أكثر من ذاك الذي سرق الأرض، ثم جلس وراء مكتب وثير وبدأ يصدر فتاوى الأمر والنهي؟"(٩).

في وصيتها تخبر يُـوبـا بضرورة أن يُلقي بعض رمادها في أمكنةٍ معينة، لأنَّ رمادَها إنْ وُضِعَ في أمكنته الحقيقيَّة، "سيتسرّب في قلب النباتات والزهور وألوان الفراشات، وسأظلّ حيَّة في تغريدة العصفورة كما كانت تحكي لي أمّي، وفي شقائق النعمان وردة العشّاق، وفي نسغ النباتات. نحن لا نموت عندما نختار موتنا، ولكن نموت عندما نقبل بالنهايات التي تفرضها

علينا الأقدار"(١٠). ونستشف من وصيتها، أنَّ المحرقة كانت خيارها الأول، لأنها شعرت بأنَّ حَرْقَ جَسَدِها يمكنه أن يقضي على الأشباح التي يمكنها التَّنغيص على يُـوبـا حياتَهُ والتي ربَّما تنغِّص عليه كل وجوده في الحياة، فالمنافي "لا تقتل الأشباح أبداً، ولكن تمنحها فرصة التوالد المجنون لدرجة أنَّها، في لحظة من لحظات حياتنا، تشدِّد علينا الخناق وتهدِّدنا بالقتل. حرقي يبيدني ولكنَّه يبيدها معي، وربّما بشكل نهائي"(١١).

وتبقى السوناتا تعزف لأشباح القدس حتى و"مَيْ" تتناول فنجان قهوتها الأخير. رحلت مَيْ، وتركت السوناتا معلّقة بين أصابع يُـوبـا، وكأنَّ كل الرهانات كانت مرتبطة بنبض قلبها ووقع حركات أناملها وهي تتحرَّك على بياض اللوحة. لقد استغرق تأليف إيقاعات "السوناتا" زمناً طويلاً، أطول من زمن الكتابة، فالإيقاعات هي: "زمن السرد بتلويناته المتصادمة، والموسيقى هي الخلفية التي حرّكت هذه الإيقاعات المتذبذبة بين مد وجزر. لقد تزامن البحث عن نوتات "السوناتا" الهاربة مع منطلق السرد ومنتهاه، وكأن لحن "السوناتا" مضى بحركة السرد نحو هدف محدد"(١٢). لذا يذكره الخريف بألوان مي، وبالرغبة المجنونة لإنجاز سوناتا لأمّه ولأشباحها، يعذبه تأليفها، ويشعر أن داخله يحترق، فهو يؤلف سوناتا خاصة بأمه. لمعت الفكرة، أسرع يوبا إلى قلم الرصاص، ورسم "خطّاً خماسيّاً، ملأه بالدوائر الصغيرة السوداء والبيضاء، التي كانت تتحرَّك وكأنَّها أسراب متلاحقة من النمل. نوتات متداخلة كان الوحيد القادر على فهمها وتحسّس أعماقها"(١٣).

يقول: "وأغمضت عيني وعزفت أخيراً السوناتا التي استعصت عليَّ زمناً طويلاً. ولا أدري إلى اليوم كيف حضرت المقطوعة التي قضيت زمناً أبحث عنها بدون أن أعثر على استقامتها المرجوة"(١٤). يسمع السوناتا لأنه ليس هناك أجمل من سوناتا فراشات القدس. وشعر برغبة أن يخبر مَيْ أنَّ الفراشاتِ التي خلفتها في القدس لم تعش طويلاً بعد رحيلها إلّا داخل ألوانها التي سحبتها وراءها، فمدينة الله لم تعد كما كانت، والأشباح تملؤها. مدينة خائفة من أنبيائها الجدد، تنتهي الرواية، ويوبا يحس أنَّ أشباحَ القدسِ بدأتْ "تطوّقه هو كذلك، من كلّ الجهات؟"(١٥).

إنَّ الذكريات لا تُنسى ولا تغيب، وتبقى الأرض التي ولدنا فيها، وعشنا أحلى لحظات طفولتنا فوق تربتها في الذاكرة رغم المحاولات في النسيان، فرغم أن مي دفنت صفحة الطفولة، ويوسف، إلا أنها ستحمل جرحها العميق طوال عمرها، ولن يمنحها لحظة واحدة، وسينغص عليها لحظات السعادة الطارئة، فليس من حقها الفرح، ما دامت روح أمّها تائهة، تبحث عن إجابة من جلادها، لماذا قتلها، وحرمها من حقّ الأمومة.

إنَّ الزمن في رواية واسيني الأعرج، هو زمن الانكسارات، "زمن لتأثيم الذات التي انتهت إلى المرض والموت. التأثيم الذي كان قبلاً نقداً لهذه الذات"(١٦). إن مي كانت محكومة بالموت منذ البداية، فالفلسطيني "الذي لم يعرف كيف يحافظ على أرضه، ينتهي إلى موته دون أن يبقى له سوى عزف لسوناتا تبعث أشباحاً للمدينة المفقودة"(١٧).

ترحل مَيْ تاركةً خلفها ذاكرةً هي جزءٌ من الذاكرة الفلسطينية، ذاكرةِ شتاتِ عائلتها، التي أُجْبِرَتْ على الهجرة إلى أميركا، وحرمانها من كل شيء جميل ومقدس في مدينتها، ومعاناتها مع المرض القاتل.

الهوامش

١. - أحمد حمد النعيمي. سيمياء العنوان في روايات واسيني الأعرج. الملتقى الدولي السادس في تحليل الخطاب، ورقلة/الجزائر: منشورات جامعة قاصدي مرباح، الموقع https://manifest.univ-ouargla.dz، بتاريخ ٢٠١٣م.

٢. - العيد جلولي. مصطلح السياق في التراث العربي وعلم اللغة الحديث، ورقلة/الجزائر: مقاليد، منشورات جامعة قاصدي مرباح، مج١، ع١، حزيران ٢٠١١، ص٨.

٣. - السوناتا: "مقطوعة موسيقية لآلة منفردة، بيانو، كمان، فلوت، فيولونسيل...بمرافقة البيانو، بدأت السوناتا بالتشكل في القرن السادس عشر. وقد عنت في ذلك الوقت شيئاً يعزف، ...، ويعود الفضل إلى المؤلف كارل فيليب باخ في تطوير السوناتا وترسيخها، وقد قام كل من هايدن وموتسارت بوضع حدودها الشكلية الكلاسيكية، أما بيتهوفن فقد كرس جل عبقريته في تعزيز وتعميق السوناتا"، نقلاً عن: محمد حنانا. معجم الموسيقى الغربية، المصطلحات، الأعمال الموسيقية، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، الهيئة السورية للكتاب، ٢٠٠٨م، ص ٢٥٧.

٤. - محمد عبد الحفيظ الطحل. رواية القدس في الأدب العربي في القرن الحادي والعشرين، أطروحة ماجستير، فلسطين/نابلس، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠١٣م، ص ١٠٠.

٥. - فتيحة العزوني. الكتابة الروائية عند واسيني الأعرج في ضوء جمالية التلقي، أطروحة دكتوراة في الأدب العربي المعاصر، الجزائر: جامعة وهران، كلية الآداب، اللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، السنة الجامعية ٢٠١١م- ٢٠١٢م، ص ٣٢٨.

٦. - موريس مرلو بونتي. المرئي واللامرئي، ترجمة عبد العزيز العيادي، بيروت: منشورات المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨م، ص ٨٧.

٧. - واسيني الأعرج. سوناتا لأشباح القدس، بيروت: منشورات دار الآداب،. ط١،٢٠٠٩ م، ص ١٦٣.

٨. - المصدر السابق. ص ٥١.

٩. - المصدر السابق. ص ٨٥.

١٠. - المصدر السابق. ص ١٦٧.

١١. - المصدر السابق. ص ٤٧١.

١٢. - فتيحة العزوني. الكتابة الروائية عند واسيني الأعرج في ضوء جمالية التلقي، مرجع سابق، ص ٣٣٤.

١٣. - واسيني الأعرج. سوناتا لأشباح القدس، مصدر سابق، ص ٩٨.

١٤. - المصدر السابق. ص ٩.

١٥. - المصدر السابق. ص ٥٤٨.

١٦. - يمنى العيد. الرواية العربية- المتخيَّل وبنيته الفنيّة، بيروت: منشورات دار الفارابي، ط١، ٢٠١١م، ص ١١١-١١٢.

١٧. - المرجع السابق. ص ١٠٤.

أدونيس.. عن راهن الشعر العربيّ ومستقبله

بديعة زيدان

"الكلام عن الشعر كالكلام عن الحب، لا نعرف كيف نحلله. نعيشه لكن لا نعرف كيف نحلله، ولكن إذا ما أردنا الحديث عن راهنية الشعر العربي، لا بد من التمييز بنظرتين للشعر اليوم؛ في العالم كله وفي الوطن العربي. وبشيء من التبسيط ثمة نظرة ترى الشعر إعادةَ إنتاجٍ لما هو قائم، أي جزءاً من الثقافة الراهنة أو السائدة، وهذا يجعل من الشعر جزءاً عضوياً من هذه الثقافة، وهو ما تبشِّر به الاتجاهات المحافظة أو التقليدية، أما النظرة الثانية للشعر فتقوم على اعتبار أن علاقة الكلمة بالأشياء علاقة تغييريَّة، وليست علاقة وصفية أو سردية، وأنا أميل إلى هذه النظرة للشعر. والنصوص الراهنة من تلك الثانية، مع أن السائد في الذائقة العامة وحتى المؤسسات ذات الشأن في الدول العربية لا يزال ينتمي للنظرة الأولى، وهي التي ترى أنه على الشعر أن يقول مشكلات المجتمع، وغير ذلك مما يندرج في إطار هذه الأطروحة تجاه الشعر ودوره".

هكذا بدأ الشاعر العربي السوري الكبير أدونيس حديثَهُ عن راهن الشعر العربي ومستقبله، خلال ندوة ضمن فعاليات مهرجان أبو ظبي الدولي للكتاب، انتظمت مؤخراً.

"إذا أردنا أن نصل إلى نتائج سريعة، وتحتاج إلى مناقشة في الوقت نفسه، فيمكن القول إن جيلنا الذي بدأ في خمسينات القرن الماضي، وبالنظر بموضوعية لتجربته الممتدة لسبعين عاماً، يمكن القول إنه صمد منها بعض الأفكار، وبعض القصائد، وبعض الشعراء، بحيث تخطى بعضنا الراهن إلى المستقبل، لكننا فشلنا في أشياء كثيرة، ولم نستطع الاختراق الذي ينبغي أن يكون في الشعر الذي يطمح إلى تقديم صورة جديدة للعالم، بمعنى أن يغيّر العلاقة ما بين الكلمة والكلمة، وما بين الكلمة والشيء، والعلاقة ما بين الكلمة والقارئ، بحيث يخلق الشاعر ونصُّه لغةً شعريةً جديدةً، وقارئاً جديداً أيضاً".

بالنسبة لي، والحديث لأدونيس، هناك أزمة في الثقافة العربية إجمالاً، وفي الشعر العربي على وجه الخصوص، وهي أزمة قراءة أكثر منها أزمة كتابة، فالقارئ العربي إجمالاً ما زال معتاداً على ألّا يقرأ النص في ذاته، وإنما يقرأ صاحب النص... "من هذا الكاتب؟ وما هي انتماءاته؟ وهل هو من هذا المذهب أم ذاك؟ وما أيديولوجيته؟ وما توجهاته السياسية؟ (...) إلخ". القارئ العربي يأتي إلى الشاعر ويقرأه بهذه الأفكار المسبقة، ومعنى ذلك أنه يُشَوِّه النص تشويهاً كاملاً، ولا يرى فيه إلا ما يريده هو.

"هذه الأزمة لا تزال قائمة، ولها أسباب كثيرة، لكن مع كلّ ما تبقَّى من الجيد، وما أَسَّسَه من خطوات جديدة، أعتقد أننا إذا قارنا جيلنا نحن، بالجيل الراهن اليوم من الشباب، فإنهم أفضل منّا بكثير، فقد استفاد هذا الجيل منّا، لكنه بات أكثر ميلاً إلى تغيير الأشياء، وصياغة علاقة جديدة ومغايرة ما بين الإنسان والعالم، وما بين الشيء والكلمة، وأميل إلى القول إن الصوت الأساسي في الكتابة الشعرية الحالية يتمثَّل في صوت المرأة.. المرأة اليوم تقود الحساسية الشعرية الجديدة لأنها بدأت تميّز جسدها عن رأسها، وبدأت تشعر بجسدها واحتياجاته وأعماقه وفضاءاته أكثر ممَّا تشعر بوضعها الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي أو الديني، حتى ذلك المتعلق بواقعها أي رأسها، وهذا الفصل بين الرأس والجسد تقوده المرأة، وهي بذلك تحقق اختراقاً أساسيّاً لم يستطع الشعراء أن يحققوه".

أقرأ الآن نصوصاً لشاعرات عربيّات، من فلسطين، ومن كافة البلدان العربية، قال أدونيس، معترفاً أن "هذا الجيل النسائي هو أهم بكثير من جيلنا نحن... هناك نساء وأصوات لم يتح لهن حتى الآن أن ينشرن شعرهن، لكن سيأتي يوم، ويُنشر هذا الشعر. لذا فأنا أراهن على هذا الراهن، لكني أؤكد أن الشعر يحتاج إلى ثقافة، ويحتاج إلى فضاء شخصي وعميق وحرّ، ولا أحد يستطيع إعطاء الحريّة لأي شخص آخر، فالإنسان هو وحده القادر على أن يعيش حريَّته، وبقدر ما يعيش حريّته بقدر ما يستطيع الخروج بنتاج شعريّ جيّد".

"كلنا لدينا شقيقات وأشقاء من أم واحدة وأب واحد، ونعيش -أو كنا نعيش- تحت سقف واحد، ومع ذلك لا أحد منّا لديه ذات الأحلام التي للآخر، فلكل جسد حياته الخاصة وعالمه الخاص وفضاؤه الخاص، لكن على المستوى الثقافي فكلّنا نشترك في ثقافة واحدة وقيم واحدة. الشعر لا يجيء من هذه القيم المشتركة، وإنما يجيء من فضاء الجسد المُفرَد. ليس هناك جسد يشبه جسداً آخر، وهنا مكان الشعر، وليس المشترك، وهنا مكمن الشعر وليس المشترك، وهذا ما يغيِّر الحياة الثقافية، ويغيِّر حياة الإنسان، ويجعله يبتكر لغة جديدة".

"الحديث عن الشعر كما هو الحديث عن الحبّ"، كرّر أدونيس.. "إذا مات الحبّ يموت الشعر، فالشعر هو الطاقة الأولى الكيانيّة التي يستطيع الإنسان أن يعبِّر بها عمَّا في أعماقه، لكن طبعاً هناك عقبات تقف في وجه القدرة على هذا التعبير، وهي عقبات تأتي من الثقافة، لذا فلا خوف على الشعر ما دام الحبُّ موجوداً، وما دام الموت موجوداً أيضاً، فالشعر حيٌّ كالإنسان الحيّ، لكن ليس هناك شعر في الفضاء، فالشعر هو شاعر، وبقدر ما يكون شخص الشاعر خلاقاً وقادراً على اختراق الحواجز والحجب والعقبات يستطيع أن يبدع عالماً جديداً، وما أقوله هنا عن الشعر العربي ينطبق على الشعر في العالم كله، وإذا كان هناك فرق ما بين وضعنا الشعري، ووضع الشعر في فرنسا بحكم أنني على دراية بتفاصيله أكثر من غيره، فهو فرق في الدرجة وليس في النوع".

الإنسان ككينونة في العالم كله يعيش أزمة كبرى حيويَّة، وهنا، كما يرى أدونيس، لا بد أن يكون الشعر في أزمة، ولكنها أزمة حيوية وليست أزمة انقراض، ومن الصعب كثيراً التنبؤ بمستقبل الشعر العربي، إنما يمكن طرح بعض الأفكار وبعض التساؤلات استناداً إلى الحاضر. واستناداً إلى الحاضر، أظن أنه ليس مستقبل الشعر وحده ما يمكن الحديث عنه بل مستقبلنا كعرب.

وهنا، ولا يزال الحديث لأدونيس، "يمكن طرح عدّة نقاط لها علاقة بهذا المستقبل، فالمواهب موجودة، وبخبرتي الشخصية المواهب العربية، نسبيّاً، أفضل بكثير من المواهب الفرنسية مثلاً، وأقول هذا جازماً لأنني أعرف الوسط الذي أعيش فيه، لكن هذا لا يكفي".

"علينا عدم الفصل بين مستقبل الشعر عند العرب وبين العرب أنفسهم، فإن مات ماتوا، وهناك محددات لذلك أولها مستقبل العلاقة مع اللغة الأم، وللأسف، ليس هناك شاعر في العالم يخطئ عند الكتابة بلغته الأم إلا العربيّ، وهذا الأمر كارثي لا يمكن تجاهله ويجب الالتفات إليه، وإلى مستقبل اللغة العربية في المؤسسات التربوية عامةً والجامعية منها على وجه الخصوص، فهناك من يتخرج في الجامعة ويتهيَّأ للتدريس في المدارس وليس بإمكانه قراءة قصيدة قراءة سليمة، لذا فالسؤال الأول هنا هو حول ماهية مستقبل اللغة العربية، خاصةً أن العربي بات يفتخر بأنه يتحدث الإنكليزية والفرنسية في تلك المساحات التي تتيح له الحديث بالعربية، لكنه يتجه نحو غيرها من باب التباهي. أخشى على مستقبل اللغة العربية العظيمة التي لا مثيل لها".

وثاني المحاور، حسب أدونيس، يقوم على علاقتنا بموروثنا الشعري والنظر إليه بعين الانقلابات المعرفية والجمالية الكبرى في العصر الراهن، فشعراؤنا نادراً ما يقرأون بلغتهم الأم، مع أنه لن تجد شعراء أعظم من شعرائنا، ومن بينهم: المتنبي، وامرؤ القيس، وأبو تمّام، وطرفة بن العبد، وذو الرمّة، وأبو نواس، والمعرّي.

"مَنْ منّا قرأ المعري أو أبا نواس قراءةً كاملةً...؟ تحدَّثت مؤخراً مع شاعر فرنسي وأخبرته بأنهم يعتبرون دانتي من مؤسسي الثقافة والنزعة الإنسانية الأوروبية، وأقر بذلك، فسألته لماذا لا يتحدّثون عن عنصرية دانتي ولا إنسانيته، وهو الذي وضع أعداءه في الجحيم!".

"لا أستيطع التأكيد ما إذا كان دانتي قد تأثّر بالمعري في فكرة الحجيم، ولكن على افتراض أنه لم يتأثر، فإنه استخدم وسيلة استخدمها قبله المعري... إذا ما قارنا اليوم بين المعرّي ودانتي سنجد أن المعري أعظم إنسانية وأوسع أفقاً، وصاحب رؤية أعمق من رؤية دانتي مؤسس الثقافة والحضارة الأوروبية. من يعرف ذلك من العرب؟ لا أحد، آسف أن أقول ذلك... المعرّي حتى لا يُدَرَّس في الجامعات العربية إلا كنموذج بسيط، وفي حالات قليلة، وهذا ما ينطبق على أبي نواس فيما يتعلق بالإقصاء من المناهج المدرسية والجامعية".

يتم الاحتفاء ببودلير كل عامين أو ثلاثة بإعادة طباعة أعماله، ويتم كل فترة إعادة قراءته وتقديم ما كتب بطرق شتى للحفاظ على إرثه، لكن من يقرأ اليوم أبا نواس بين العرب، خارج كونه شاعر مجون وشاعر خمر، والمجون والخمر في شعره أسوأ ما لديه.

يتحدَّث أدونيس بأسى، مؤكداً: أبو نواس شاعر عظيم، خَلَقَ للمرّة الأولى لغة المدينة في الشعر العربي، وخلق هذه العلاقة الزاهدة العظيمة المأساوية بين ما هو زائل وما هو أبدي، وقال في قلب الحضارة الإسلامية: "لكم دينكم ولي دين"، فهو القائل شعراً: مالي وللناس، كم يلحونني سفهاً .. ديني لنفسي، ودين الناسِ للناسِ.

لذا يجب أن نعيد، وفق أدونيس، قراءة موروثنا الشعري بعين المستقبل، وبعين الانقلاب المعرفية والجمالية الكبرى في العصر الراهن، ونحن للأسف لا نفعل ذلك.

"أما المحور الثالث فهو علاقة الذات بالآخر، علاقة العربي كذات بالآخر الأجنبي، والسؤال الذي يتبادر أولاً: لماذا هذه التبعية شبه العمياء للآخر الأجنبي؟ ولماذا لا نتبعه ونتابعه في إبداعاته مثلما نفعل مع إنتاجه الاستهلاكي، فلدينا أعظم القصور وأعظم السيارات، وأعظم المنتجات الاستهلاكية في العالم، لكن ليس لدينا مدارس نموذجية، وهو ما ينطبق على الجامعات، كما ليس لدينا مشافٍ نموذجية، فكل قيادات العرب وأصحاب رأس المال العربي يُعالَجون في الخارج، فنحن نسينا التقدُّم وابتلعنا النمو، وهو نمو ينقلنا من حالة إلى حالة بشكل أفقي، وليس تقدماً من شأنه أن يعمِّق رؤيتنا ونظرتنا إلى العالم، ويجعلنا من بين المبدعين الذين يشاركون في بناء العالم، وليس من بين أعظم المستهلكين كما نحن اليوم".

إذا كان العربي لا يستطيع أن يكون حرّاً في الأمور التي تقرِّر مصيره، وتقرِّر كينونته، فماذا يستطيع

أن يفعل؟! وهذا ينطبق على الشاعر باعتباره مواطناً عربيّاً.

هنا يبرز الحديث عن تأزُّم العلاقة ما بين الشاعر والقارئ، وهو ما يخلق تساؤلات، وفق أدونيس، عن دور الشعر وما إذا تلاشى أم لا، وهذا التأزُّم ينطبق على الشعراء في كافة أنحاء العالم، لكن الفارق أن الشاعر الأجنبي أكثر حريّة، وأكثر ثقافة، وأكثر اجتهاداً على نفسه، لأنه يدرك أن الإبداع عبء هائل وعظيم على جميع المستويات، وهو على النقيض من السهولة بجميع أشكالها، ونحن مع الأسف أكثر ميلاً إلى الكسل، وأكثر ميلاً إلى النوم، وأقل إلحاحاً على طلب الحريَّة وممارستها.

"أي اضطهاد لكاتب في الغرب لا يُحدِث مجرد هزَّة في الوسط الأدبي والإبداعي فحسب، بل في بنية المجتمع بأكمله، وهذا ما عبَّر عنه الرئيس الفرنسي السابق شارل ديغول في العام ١٩٦٨، حين طلب منه المؤدلجون والمتطرفون اعتقال جان بول سارتر، لكون الأخير شارك اليساريين تظاهراتهم واحتجاجاتهم في الشارع، فما كان منه إلا أن نظر إليهم، وأخبرهم باستحالة ذلك، وما نأمله أن يقلِّد حكّامنا العرب ديغول في حالات كهذه".

وشدد أدونيس على أن الشعر العربي اليوم، ورغم كل الإشكالات التي تحيط به، والحديث هنا عن قصائد الشعراء الحداثيّين، لا يقل أهميةً وجمالاً عن شعر أي شاعر فرنسي أو أميركي على الإطلاق، لكن هناك مشاكل كثيرة تواجه الشاعر العربي لا تواجه الشاعر الفرنسي أو الكثير من شعراء الغرب.

ولفت إلى أن مشكلة الترجمة معقدة، وهي محل اهتمام المفكرين العرب منذ زمن بعيد، وخير من عبَّر عنها، الجاحظ، بحيث قال إن الشعر لا يُترجم، إذا ترجمتَهُ هدَّمْتَهُ. وبالخبرة العملية، قمنا ذات مرة بترجمة مختارات لأبي العلاء المعرّي، ونشرت الترجمة، ونفدت الطبعة كاملة في وقت قياسي، فاتصل بي الفيلسوف الفرنسي من أصل روماني إميل سيوران، وهو صديق، وعاتبني بأنَّني لم أعرِّفْه على المعرّي وشعره من قبل، وقالها بكل صراحة: لو كنت أعلم أن لدى العرب شاعراً كالمعري لما كتبت، فقد اكتشفت بعد ترجمة هذه المختارات أنني أكرر فيما أكتب ما قاله المعرّي قبلي بزمن بعيد. وهنا أعود وأكرِّر بأنه ليس هناك عربي واحد، وأجزم بذلك، قرأ المعرّي قراءة صحيحة من الألف إلى الياء.

ويضرب أدونيس مثالاً للتأكيد على صعوبة أو استحالة ترجمة الشعر، بأنه حين حاول مترجمون ترجمة عبارة "مطرٌ يذوبُ الصحو منه، وخلفه صحوٌ يكادُ من النضارةِ يُمْطِرُ"، عجزوا عن ذلك، أو ذلك الوارد في قصيدة قديمة لشاعر لم يكن قد شاهد معشوقته لفترة زمنية طويلة، فقال: "ضاقت عليَّ نواحيها فما قدرتْ على الإناخَةِ في ساحاتِها القُبَلُ".. شعرٌ كهذا لا يُترجم، ولذلك عند ترجمة الشعر على المترجم إتقان اللغتين إتقاناً كاملاً، بحيث يخلق الشاعر المترجم، ولا بد أن يكون شاعراً،

لغة قرينة للغة الأصلية التي كُتِبَ فيها النص المترجم، فمرّةً حاولت ترجمة قصيدة لسان جون بيرس، وهو من أصعب الشعراء، فما كان منّي إلا أن ترجمتها بأفق فرنسي لكن بلغة عربيَّة، فبات عنوانها "ضيّقة هي المراكب"، فثار عليَّ أساتذة الترجمة في عديد الجامعات باعتبار أن الترجمة كان يجب أن تكون "الفُلك ضيّقة"، لكنني ما زلت حتى الآن غير مقتنع بأن تكون الترجمة غير تلك التي وضعتُها لا التي فضّلها الأكاديميون المختصّون، فلو رضختُ لرغباتهم لمارست اغتيالاً لتلك القصيدة، وأنا لا يمكن أن أغتال الشعر.

الغزالة ..

زعل ابو رقطي

عودتنا الى الوطن بعد سنوات الشتات .. لم تكن فرحة عادية .. بل كانت بوسع الكون واكثر ..

كيف لا ونحن سنعود الى فلسطين بكل ماتعني لنا .. وكيف لا ونحن سنعود الى رام الله جميلة مدننا وساحرة القلوب .. والى غزة الغالية وبحرها .. والى اريحا مدينة القمر والسحر . والى القدس سيدة المدن

وكيف لا وأنا سأعود الى اريحا حيث (الاذاعة) التي اشتقنا ان نقول فيها هنا صوت قلسطين من فلسطين !

في اليوم الاول لم يكن يوماً عادياً ونحن نلتقي زملاء واخوة وأحبة نتعرف اليهم لاول مرة ..

وفي اريحا .. في بيت عادي من طين وغرف محدودة التقينا أحبة واصدقاء وزملاء .. وكان منهم الاعلامي المرحوم (رضوان ابو عياش) والعزيز باسم ابو سمية .. والمرحوم العزيز علي الريان .. ويوسف المحمود واحمد زكي ونصير فالح وعاصف حميدة والمرحوم الاعلامي الكبير يوسف القزاز ودانييلا خلف وريم ابو غزالة .. والكثيرون غيرهم مما يصعب تعدادهم ..

وكانت هناك في غرفة ضيقة صبية بمنتهى العذوبة والاناقة والهدوء .. إنها شيرين أبو عاقلة .. الصبية الجميلة والعذبة كنسمة في صيف اريحا ..

تجلس بهدوء .. تتحدث بهدوء .. تبتسم بهدوء .. تعارفنا .. قالت (انا من القدس) ومن بيت حنينا ! اذن انت مقدسية .. وكل هذه الاناقة مقدسية .. ضحكنا وتبادلنا اطراف الحديث ..

وبدأ البث الحقيقي من استودهات اريحا ومن غرفة صغيرة لا تستوعب أكثر من شخص .. وبدأت افكر بتقديم برنامج اذاعي كمساهمة رمزية في العمل .. ذهبت الى شيرين وسألتها .. كونك تعرفي

اكتر احتياجات الناس هنا برأيك ماهو اهم موضوع ممكن ان اتناوله ويترك اثراً عند الجمهور .. وبسرعة البرق ودون ان تفكر قالت ! الموضوع المهم والحيوي والذي تحتاجه الجماهير هو عن قضية الاسرى ومعاناتهم وعائلاتهم .. فورا قلت لها احسنتِ وليكن برنامج ثلاث مرات يومياً وسيكون اسمه (لابد للقيد ان ينكسر) وفعلا تم اعتماده واصبح من اهم البرامج المسموعة بصوت فلسطين وله شعبية كبيرة وخاصة كانت اعداد الاسرى داخل المعتقلات الاسرائيلية كبيرة جدا .

وبكل صراحة كان الفضل بذلك لشيرين التي هي من أوصت بالبرنامج ..

وبعد نجاح البرنامج قلت لشيرين شو رأيك نقدم برنامج اسبوعي مشترك خاصة وهي تمتلك صوتاً اذاعياً عذباً ووافقت وبدأنا سويا بتقديم برنامج كل يوم اربعاء وكان اسمه (بدون زعل) وهو برنامج منوعات خفيفة وثقافي وادبي وفني .. وكانت تقوم باعداده بشكل مميز وعميق ..

وقد استمر البرنامج مدة طويلة وكان يلقى الإعجاب من المستمعين وكانت لمساتها تضفي عليه مسحة جمالية عذبة ..

ولعل من الاهمية ان اشير ايضا الى انه ولاول مرة ظهرت شيرين على شاشة التلفلزيون كانت بسهرة قدمناها سوياً بمسرح القصبة بمدينة القدس سهرة رمضانية بحضور جمهور كبير وعدد من الفنانيين المميزين ك محمد البكري وجورج ابراهيم وحسام ابو عيشه وسعيد مراد وغيرهم وكان لشيرين حضور مميز واناقة وجمال واداء جميل مما اكسبها شعبية كبيرة لفتت فيها انظار الفنانيين والحضور !

وعودة الى العمل بالاذاعة فقد كانت تقدم نشرات الاخبار وبعض البرامج الادبية اضافة الى برنامج كان يتحدث عن مدينة القدس كونها كانت مسكونة بعشق المدينة وتسكن روحها وقلبها .. كما كانت تهتم بموضوع السياحة الداخلية في فلسطين وتعاونت مع الصديق يوسف ابو طاعة بتقديم حلقات مهمة عن ابرز الاماكن السياحية في بلادنا ..

وتميزت خلال وجودها في الاذاعة بنسج علاقات زمالة وصداقة مع جميع العاملين معها واكتسبت حبهم وتقديرهم حيث كانت صديقة الجميع وزميلتهم المميزة بطيبتها وجمال اخلاقها وتعاملها الانساني مع الجميع ..

وهي مع شقيقها طارق الوحيدين لابويهما المقدسيين حيث كانت الفتاة نبيلة بتعاملها مع والديها .. واذكر أنها خلال مرض والدتها لم تتركها لحظة واحدة حيث تفرغت للبقاء الى جانبها طوال مدة مكوثها بمشفى هداسا حتى فارقت الحياة وقد وقف الجميع الى جانبها اضافة الى صديقة عمرها وتوأم روحها رولا المظفر والين حنا اللتين كانتا تخففان حزنها والصديقة المخلصة دانييلا كريم

خلف .. وبعد وفاة والدتها عاشت فترة كآبة وحزن شديد على فراقها .. وبعد رحيل والدتها اصيب والدها ايضاً بالمرض ولم يمهله طويلا .. وازداد حزنها ووحدتها وعاشت فترة عصيبة من حياتها خاصة ان شقيقها كان يعيش خارج البلاد .. وقد انعكس كل ذلك على نفسيتها ومزاجها العام وبدأت تعاني من الوحدة واليتم ..

ورغم كل ذلك استمرت باداء عملها على اكمل وجه وتميز .

وبعد نجاحها وصوتها الاذاعي المميز وحضورها الراقي والجميل عرض عليها العمل بقناة الجزيرة التي كانت في بداية افتتاحها تقريبا وبعد تردد منها وقد عز عليها ان تفارق الاذاعة وافقت على العمل كمراسلة في الجزيرة .. ومنذ بداية عملها بالجزيرة بدأت تبرز من خلال تقاريرها اليومية وطلتها الجميلة وصوتها الهادىء الذي كان يعبر عن الصدق بكل معانيه ..

من هنا بدأت مرحلة جديدة من حياتها وتحولت الى نجمة ودخلت قلوب العالم .. وكانت مبادرة بعملها من خلال تغطيتها لكل الاحداث على الساحة الفلسطينية ووجودها بالميدان خلال كل المواجهات مع العدو وفي المخيمات وبيوت الفقراء والمحتاجين لالقاء الضوء على معاناتهم وتعبهم ..

وكانت لها اياد بيضاء ومواقف لم تكن ترغب بالافصاح عنها وبقيت سراً لايعرفه الا من كانت تساعدهم وتقدم لهم يد العون .

وهذا ما جعلها كبيرة بعيون متابعيها واحبتها وكل من يعرفها ..

شخصية متزنة وهادئة ورصينة بكل معنى الكلمة .. لم نسمع يوما ان احدا قد زعل منها او سجل عليها اي ملاحظة ..

وكانت ملتزمة بعملها التزاماً كبيراً ومحل ثقة من كل الذين عرفوها او عملوا معها في كافة الميادين والمجالات ..

من هنا كان كل هذا التعاطف والاحترام والحزن لموتها الصاعق والطريقة التي قتلت فيها ..

ولعل الاهتمام الدولي والعالمي كان اكبر دليل على مكانتها وماتركت من مآثر ومواقف ..

وقد تابعنا اجماع العالم على ادانة الاحتلال لتعمده اعدام صحافية وفلسطينية مقدسية وتحمل الجنسية الاميركية .. وقد زادت غضبة العالم لموتها من خلال ممارسات الاحتلال الارهابية والتعرض للنعش خلال عملية التشييع وما رافقها من عنف واعتداء على المشيعين الذين دافعوا عن نعشها باجسادهم وارواحهم .

ورغم مرور اكثر من شهرين على استشهادها مازال العالم يذكرها ويترحم على روحها ويطالب

بمحاكمة القتلة الذين أمروا باعدامها بقصد وقرار مسبق ..

ونستطيع القول ان استشهاد شيرين أعاد وهج ومكانة القضية الفلسطينية الى الصدارة بعد ان كادت تتراجع بفعل الكثير من الاسباب وفي مقدمتها ظلم العالم والكيل بمكيالين ومحاولات الغرب ارضاء الاحتلال ومسايرته في كل ممارساته .. وقد زاد كل ذلك نتيجة هرولة بعض العرب والتطبيع مع الاحتلال على حساب القضية الفلسطينية والقدس ..

ولأنها شيرين أبو عاقلة الصحافية والانسانة الطيبة والهادئة سيبقى اسمها حاضرا في كل المحافل الدولية وفي قلوب العالم أجمع .. وسيبقى العالم يطالب بمحاسبة الجناة وتحويلهم الى محكمة الجنايات الدولية للقصاص منهم ومن ارهابهم الدموي ضد شعبنا وقضيتنا !

شيرين ..لم تكن صحافية عادية بل كانت مثالا للانسانة المميزة والمتواضعة مما اعطاها كل هذا الحب الشعبي والعالمي ..

ومما زاد في شعبيتها وحب الناس لها هو تلك الروح المرحة والطيبة وذلك البعد الانساني بشخصيتها .. إضافة لالتزامها الوطني والذي كان يظهر من خلال تقاريرها اليومية ومدى تأثرها بالاحداث كفلسطينية ملتزمة بقضية شعبها ..

شيرين ابو عاقلة .. تلك الغزالة التي غرقنا جميعاً بحبها .. وهي الغزالة التي مازالت تطارد في سهل مرج بن عامر وتقفز فوق شموخ الكرمل وبين بيوت الناصرة وفي دروب مدينتها المحببة القدس وعلى تخوم ودروب مخيم جنين حيث اغتالتها اليد الآثمة في ذلك الصباح الجنيني الحزين !

شيرين باستشهادها تحولت الى ايقونة وطنية ومدرسة اعلامية وإنسانية بكل معنى الكلمة وسيبقى ذكرها عطرا وروحها تسكن افئدة الملايين في العالم ..

لروحها السلام .. ومثواها جنات الخلد ..

وهي غزالة فلسطين التي سكنت قلوبنا وعقولنا .. وسيبقى قفزها حافزا لكل شعبنا من اجل تحقيق حلمها وحلم شعبنا بالحرية والاستقلال !

أسرار مارنا هاوس .. حكايات من غزة

تأليف: لوتا شولركفيست / ترجمة: وليد الهليس

كلمة صغيرة

تحت هذا العنوان وقبل أكثر من عقد مضى، وعلى وجه التحديد في العام ٢٠١٠ صدر هذا الكتاب عن غزة، بقلم كاتبة سويدية هي لوتا شولركفيست، التي عملت صحافية في "داجنز نيهيتر" (أخبار اليوم)، كبرى الصحف السويدية، وخلال سنوات أربع أمضتها كمراسلة للصحيفة المذكورة، في القدس المحتلة، كانت تكتب، أيضا، تقارير صحافية من غزة متابعة أوضاعها، والتطورات التي وقعت فيها ولها لسنوات عديدة.

تواصلت قبل بضع سنوات مع لوتا وأعربت عن رغبتي في نقل كتابها الى العربية حتى يتمكن الفلسطينيون، والغزيون بالخصوص، من قراءة ملامح صورتهم في عيون غربية رأتهم وعاشت بينهم وعرفتهم وفهمت أحوالهم ومعاناتهم المرعبة. وأحبت السيدة الفكرة، لكن تعقيدات حقوق النشر والطباعة وغيرها حالت دون ذلك. ومع مرور الوقت، فكرت في أن ترجمة الكتاب أو أجزاء منه ربما حملت بعض الفائدة، أو لعلها تكون مثيرة للقراءة، أو لعلها تساعد في تظهير ملامح حقيقية طمست تحت غبار البارود وتورمت بفعل العنف الوحشي من الخارج والقمع من الداخل، الوحشي، أحيانا، أيضا.

المترجم

إلى أحفادي:

سيباستيان، أوللي، آدريان وليزه

لوتا

نخزن أحزاننا في الجرار، لئلا

يراها الجنود فيحتفلوا بالحصار...

نخزنها لمواسم أخرى،

لذكرى

لشيء يفاجئنا في الطريق

فحين تصير الحياة طبيعية

سوف نخزن كالآخرين لأشياء شخصية

خبأتها عناوين كبرى،

فلم ننتبه لنزيف الجروح الصغيرة فينا.

غدا حين يشفى المكان

نحس بأعراضه الجانبية

محمود درويش

حالة حصار (٢٠٠٢)

صبيَّان فوق عربة يجرها حمار. وقد لف كل منهما رأسه بكوفية. وعلى ظهر العربة انطرحت جثة خروف. الطريق مفروشة بالحصى والغبار وسط أرض صحراوية منبسطة. وفوق هذا كله، بدت سماء كانون الثاني زرقاء شاحبة بغيومها الصغيرة الملبدة.

تلك صورة التقطتها وانا في طريق خروجي من غزة بعد حرب يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٩. بقيت الصورة ومنذ فترة طويلة على شاشة حاسوبي الخاص - صورة استمرار الحياة عقب وقوع الكارثة. كما جرت العادة دائما في هذه البقعة من الأرض التي مزقتها الحرب الأبدية.

ذات يوم التقيت رجلا، وكان مدرسا، فسألني لماذا اخترت تلك الصورة من بين كل الصور لتكون صورة شاشة الحاسوب. قائلا إن هذه هي الطريقة التي ترون أنتم في العالم الخارجي غزة من خلالها: متربة، فقيرة وبدائية. هذا صحيح جزئيا، ولكن هناك أكثر من هذا بكثير يمكن أن يروى عنا.

لقد وضع إصبعه على إحساس خامرني منذ فترة طويلة. وبدأ ينمو لدي ويزداد قوة خلال السنوات التي عملت فيها مراسلة إخبارية في غزة.

كانت تقاريري تدور في معظمها حول الأحداث العاصفة والدموية، أما الأشخاص الذين قابلتهم فقلما وجدوا لهم مكانا فيها.

عندما التقيت ريتشارد هيرولد في دار النشر أطلس فهم على الفور ما كنت راغبة في فعله. وكم أشعر بالامتنان له لذلك وإلى الأبد. لقد قدم لي دعما لا نظير له خلال عملي على كتابة هذا الكتاب.

وأنا مدينة أيضا لجميع الغزيين الذين تقاسموا معي وقتهم، وأفكارهم. وإلى جانب الأشخاص الذين سيردون في الكتاب، ثمة شخص يتقدمهم جميعا، هو من جعلني اتعرف على غزة وأحبها: الصحفي محمد عمر، أول مساعد لي ومذلل للمصاعب التي واجهتني. وبعد فهناك صف طويل من الأشخاص الآخرين، لا يمكن نسيانهم حتى ولو أغفل ذكرهم.

لقد كتبت معظم هذا الكتاب تحت شجرة التفاح في منزلي الكائن في روزلاجن. وحاولت أن أستعيد عبير غزة وأحوالها، وأنا جالسة في ظل تفاحتي، ومن حولي أحفادي الذين يعجز خيالهم عن تصور شكل الحياة التي يعيشها أقرانهم من أطفال غزة هناك. لكنني أتمنى أن يقرأوا كتابي عندما يكبرون.

ستوكهولم

أيلول ٢٠١٠

I

كانت البناية الصغيرة بأدوارها الثلاثة مستغرقة في رقادها وكأنها الجميلة النائمة، تتوارى وراء شجرة شبيهة جدا بشجر المطاط الهندي. وكان تاج الشجرة يعرش بظلاله فوق الفناء الرملي بنباتاته المتفرقة التي أصابها الجفاف. الحديقة مسورة بجدار يعلو بمقدار قامة عن الأرض، متوج بقطع زجاجية غليظة، وكانت بضع سيارات متهالكة وعربة جيب تحمل لوحة أرقام دبلوماسية مركونة في الفناء.

بدا ممر النزل شبيها بمعبد إغريقي أثري بما فيه من أعمدة على الجانبين. وفي داخل ركن الاستقبال الخالي في معظم الأحيان من موظفيه، علق صف من المفاتيح بشرائح جميلة من خشب الزيتون.

وعلى طول الجدران كانت رفوف الكتب مليئة بالمؤلفات المكتوبة بلغات أوروبية: أغلبها في وصف الرحلات، وقلة منها في التاريخ وبضع روايات مرتبة بعناية.

كان يهيمن في الداخل أيضاً، جو من الخمول، كأن الزمن توقف عن الحركة منذ عقود طويلة. الأثاث كان متداعيا، والسجاجيد التي تغطي الأرضية كلها، كانت مهترئة، والجدران قذرة. وغرف النزلاء متقشفة في أثاثها، وكانت ستائر الحمامات المصفرة متقصفة والأسرة شديدة الانخفاض.

مارنا هاوس هو أقدم فنادق غزة، لكنه ليس أكثرها أناقة. وقد أصبح هذا النزل بيتي في غزة. باسل ونورما الشوا هما من يدير شؤون النزل وتمتد عنايتهما إلى حدود أبعد بكثير مما يتوقع المرء الحصول عليه في أي نزل – فقد كانا يدبران إلى حد بعيد كل ما يحتاجه النزيل، ولا ينحصر ذلك في توفير شريحة الهاتف المحلية أو أدوية المغص، بل وفي تدبير النقود كلما افرغت الصرافات الآلية من محتوياتها. علاوة على ذلك، تهيئة التواصل مع الشخصيات المثيرة للاهتمام، والمبادرة بتقديم الإرشادات حول الأحداث وسياقاتها التي يعجز الزائر العابر عن فهمها بصورة مباشرة.

صحافيون وصانعو أفلام وكتاب وموظفون في مجال تقديم المعونة جعلوا من هذا النزل مثابة لهم في غزة، على مدار عقود من السنوات.

أحداث كثيرة جرت داخل أسوار مارنا هاوس، منذ أن وطأت قدماي أرضه لأول مرة سنة ٢٠٠٣. الفناء الرملي استحال إلى مقهى حدائقي هو الأكثر حظوة بالزائرين بين كل مقاهي غزة، بممراته المبلطة بالحجارة وحانته التي امتدت منضدتها تحت شجرة المطاط الهندي الكبيرة تلك. كان الغزيون صغارا وكبارا يلتقون كل مساء هنا ليأكلوا ويشربوا ويدخنوا النارجيلة التي كانت واحدة من اختصاصات هذا المكان. وبعد ساعات كان الهواء يمتلئ بالدخان العطر الذي يتحلق في غيمات رقيقة تحت المظلات الصفراء التي تتعامد فوق موائد المقهى.

كان باسل الشوا قد بدأ بتشغيل المقهى في ربيع ٢٠٠٤، حيث خسر النزل وقتها قسما كبيرا من نزلائه الأجانب، نتيجة للقيود المتشددة التي فرضتها إسرائيل على الأجانب الراغبين في زيارة غزة. وقد جاءت السياسة الإسرائيلية المتشددة مسبوقة بحادثتين. ففي نيسان/أبريل ٢٠٠٤ وقعت عملية انتحارية في تل أبيب، وقد تكشف فورا، أن من قام بالعملية باكستانيان يحملان جوازي سفر بريطانيين، وكانا قد أقاما قبل ذلك في غزة لفترة من الوقت. وبعد ذلك بستة شهور قتل ثلاثة أميركيين بسيارة مفخخة على اثر زيارة قاموا بها لجامعة في غزة.

والآن بات المقهى الحدائقي يشكل مصدر الدخل الرئيسي للنزل، غير أن باسل الشوا قام أيضا، ببناء صالتين كبيرتين للمؤتمرات، كانتا محجوزتين دوما من قبل جميع المنظمات العاملة داخل غزة.

في وقت الغداء يعج المقهى بالزائرين، ولكن في فترات قبل الظهر وبعده يسود الحديقة جو من الصفاء والسكون، لاسيما وقد أصبحت زاخرة بالنباتات المزهرة. وعلى الممر، قبالة المدخل تنتصب نافورة مصنوعة من ثلاثة أطباق مختلفة الحجم من الهوائيات اللاقطة المكسوة بقطع الفسيفساء، وهو مثال نموذجي على روح الابتكار الغزية. وقد بقيت الأسماك الذهبية تسبح في مياه النافورة على مدار سنوات، ولكنها اختفت الآن بسبب شح الماء.

غرف النزلاء جرى تحديثها أيضاً، وزودت بمكيفات هواء وأجهزة تلفاز ومراتب جديدة للأسرَّة وستائر للحمامات. أما الأمر الذي يعلو في أهميته كل شيء فكان بالنسبة لنا نحن الصحافيين وجود خدمة الإنترنت اللاسلكية في الغرف وفي الحديقة على حد سواء. كان الاتصال الهاتفي هنا، في السنوات الأولى شبه مستحيل ما لم يصعد المرء فوق السطوح. كنا نلجأ الى مكتب باسل الشوا ونستعير حاسوبه وخطه الهاتفي حتى نتمكن من إرسال النص والصور الى بلادنا.

الآن أستطيع الجلوس والكتابة في الحديقة، بينما يتبادل زوار وقت العصر حديثهم الهادئ ويقرقرون بنارجيلاتهم، وسعف نخيل الجيران يخشخش في نسيم البحر. في بعض الأحيان كنا نجتمع على طاولة واحدة، صحافيون عديدون، نجلس هناك إلى حواسيبنا، وكل واحد منا مشغول بقصته.

كان مارنا هاوس قد فتح أبوابه، في العام ١٩٤٦، في عهد الانتداب البريطاني، بيد الفلسطينية مارغريت نصار، سيدة مسيحية نصراوية، جاءت إلى غزة في الثلاثينات بصحبة زوجها البريطاني. وبعد وفاة زوجها قررت السيدة نصار، من أجل الاستمرار في إعالة نفسها بنفسها، أن تفتح بيت ضيافة صغير للضباط البريطانيين والموظفين الحكوميين الذين اعتادوا زيارة غزة في ذلك العهد.

كان مارنا هو الاسم الذي حمله النزل، وهو اسم الإله مارنا، رب أرباب غزة قبل المسيحية، وما يعتقد بأنه المعادل الهيليني للإله السامي القديم داجون. وقد اختارت السيدة نصار هذا الاسم تذكرة منها بتاريخ غزة الطويل والثري. وجاء تصميم مدخل النزل نقلا عن صورة معبد الإله مارنا، موجودة على قطعة عملة محلية تعود إلى العام٣٠٠ قبل ميلاد المسيح.

لم يشأ أبناء السيدة نصار الثلاثة العودة إلى غزة وتولي إدارة النزل، بعد أن غادروها في سن مبكرة، وكانت قد شعرت بتراجع قدراتها، ولهذا باعته في ١٩٨٢ لعمة باسل الشوا مليكة الشوا التي تولت إدارة النزل مع ابنة عمها عليا. ولما كانت مليكة تقيم في بيروت بين فترة وأخرى بسبب زواجها من رجل لبناني، فقد أدارت عليا العمل وحدها.

هاتان السيدتان المتحدرتان من واحدة من أعرق وأبرز العائلات في غزة، اصبحتا اسطورتين

صغيرتين، خصوصا بين الصحافيين الأجانب الذين تدفقوا على إثر انتقال غزة إلى بؤرة الأخبار خلال الانتفاضة الأولى، الهبّة الفلسطينية التي اندلعت سنة ١٩٨٧.

في ذلك الوقت كان مارنا هاوس ملتقى الإعلاميين، ذلك أن عليا الشوا تمكنت من جعل حركة المقاومة الفلسطينية تقيم مركز معلوماتها هنا.

آنذاك، كما يروي باسل الشوا، لم يكن لدى مارنا هاوس سوى هاتف واحد، كان على جميع النزلاء تقاسم استعماله. كان هذا قبل ظهور الموبايلات وهواتف الساتلايت إلى الوجود، لذا كان على روبرت فيسك وغيره من الصحافيين العالميين ان ينتظروا دورهم لكي يرسلوا تقاريرهم إلى بلادهم.

وفي الوقت الحالي تقيم مليكة الشوا في بيروت، ولم يسمح لها بالعودة إلى غزة منذ عشرة أعوام. وتولى باسل الشوا مسؤولية النزل من عليا التي رحلت قبل بضعة أعوام.

وكنت قد حصلت على لمحة عن ابنتي العم هاتين وعن أصالتهما، من خلال فيلم وثائقي سجلته البي بي سي هنا قبل عشرين عاما بعنوان "نزل مليكة". كانت الانتفاضة الأولى قد اندلعت وكانت الشوارع تعج بالإطارات المشتعلة، وقاذفي الحجارة من الشباب، وبقنابل الغاز الإسرائيلية المسيل للدموع. "هذا ليس نزل هيلتون، لكنه واحة للحياة الطبيعية وسط الفوضى" هكذا استهل صوت راوية الفيلم حديثه. مجموعة أميركية من منظمة مرسي كوربز حطت رحالها للتو، تهتف مأخوذة "يبدو هذا المكان كما لو كان منتزعا من إحدى روايات همنغواي".

مليكة سيدة في منتصف العمر، لا تتوقف عن التدخين، يطوق عنقها عقد من اللؤلؤ، تقف في مطبخ النزل وتحرك القدور وهي تتحدث عن عائلتها وعن نزلها، بإنجليزية سليمة يعود أصلها إلى سنوات اليفاعة التي أمضتها في إحدى مدارس إنجلترا الداخلية. وخلال استراحاتها القصيرة من أعمال الطبخ، كانت تجلس الى البيانو الهائل الذي تملكه وتعزف عليه قليلا.

أخذت مليكة تشرح السياسة المتشددة المتبعة في مارنا هاوس:

نحن لا نستقبل نزلاء غير معروفين لدينا إلّا بتوصية من منظمة أو شخصية نعرفها. وفي فترات مضطربة كهذه، معظم من يأتينا من الصحافيين. فهم أناس ليس من السهل أن تخفيهم – كلما اشتد وطيس القتال، زاد عدد نزلائنا.

في نهاية الفيلم تظهر مجموعة من الصحافيين تجمعوا عند المساء في قاعة النزل لإرسال ما تمكنوا من الحصول عليه في نهاية يوم مليء بالمصاعب. كان من بينهم شاب أميركي، يتبجح مباهيا بما يشعر به من نشوة أثناء وجوده وسط العنف الدائر في شوارع المدينة. وهو يعلن عن حاجته الآن إلى

كأس حقيقية، بل عدة كؤوس حتى لو أصابه الدوار في صبيحة اليوم التالي.

صارت الكحول الآن ممنوعة في غزة من قبل النظام الإسلامي الذي بات يحكمها. وفي السنوات الأولى التي عشتها هنا، كانت الكحول تقدم في محل وحيد هو نادي الأمم المتحدة القريب من الشاطئ. وقد تعود ارتياد هذا المكان في المساء، مجموعة متنافرة من الأجانب، من المقيمين والزوار العابرين.

ذات ليلة جرى تفجير النادي على يد مجهولين، ومن يومها أصبحت غزة منطقة خالية من الكحول، اللهم إلا بضعة الزجاجات القليلة التي تشق طريقها خلسة، عبر التفتيش الدقيق للأمتعة الذي تقوم به شرطة حماس على نقاط العبور.

وبالرغم من أن مارنا هاوس لا يبدو كما كان عليه في عهد مليكة وعليا، إلا أنه مازال فيه ما يجعلك تشعر بأنك في بيتك، ويعزز فيك هذا الشعور، الفطور مثلا الذي بقي على حاله منذ ان فتح النزل ابوابه الى الآن. وهو مكون من الشاي أو القهوة السريعة، خبز عربي، زبدة وجبنة بيضاء مملحة ومربى البرتقال المحضر منزليا على الطريقة الإنجليزية والمشوب بشيء من المرارة. وفضلا عن ذلك يقدم البيض المعد وفقا لرغبة النزيل: مسلوقا، مقليا، اومليت، مخفوقا أو نصف مسلوق وهو ما أفضله.

الشخص الذي يقدم الفطور، أبو منير، وهو معلم أساسي من معالم النزل.

عدا ذلك، كان مارنا هاوس يقدم مفاجأة مجانية مختلفة كل مرة، خلال فترة إقامتي هناك. ذات يوم دخلت الى مكتب باسل الشوا وكانت بندقية من طراز كلاشنكوف موضوعة على أحد الرفوف. دهشت كثيرا لأن وجود السلاح ممنوع منعا باتا هنا، تماما كما هو الحال مع بقية الفنادق في غزة. سألته إذا كان قد تخلى عن مبادئ اللاعنف التي أعلن عنها سابقا.

لا، أبدا، هذا فقط لإخافة الدخلاء المحتملين، أوضح الأمر لي، ثم روى بعد ذلك أن بعض الفنادق الأخرى تعرضت لزيارة بعض الرجال المسلحين الذين سألوا عن وجود نزلاء أجانب. حدث ذلك في فترة تكررت فيها حوادث الخطف، خلال فوضى السلاح التي سادت قبل تولي حماس السلطة في صائفة ٢٠٠٧. ولكي يحمي نزلاءه، قام بتعيين حارس ليلي كان يجلس في مدخل النزل وإلى جانبه بندقية كلاشنكوف.

والآن يجلس مسلحان من شرطة حماس عند مدخل النزل من الصباح الباكر إلى ساعة متأخرة من المساء. وقد جاءوا تلبية لطلب من موظفي الأمم المتحدة، الذين يعقدون اجتماعاتهم ودوراتهم هنا.

وفي إحدى المرات، وكنت قد نزلت في مارنا هاوس، خريف ٢٠٠٨، وجدت المدخل مغلق بعشرات من رجال شرطة حماس، بزيهم الأسود. وفي الخارج كانت حافلة سياحية مركونة على جانب الطريق. عندما ولجت إلى صالة الاستقبال وجدت تفسيرا لوجود ذلك الحشد الشرطي الكبير- وهو أن مجموعة من النشطاء الأجانب كانت قد وصلت لتوها قادمة من جزيرة قبرص على ظهر زورق نجح في اختراق الحصار الحدودي الذي فرضته إسرائيل برا وبحرا.

بدا أن هذا الاهتمام الهائل من قبل الشرطة مدفوع بالفضول وبمسؤولية القيام بالحراسة على حد سواء. وكان من بين من وصل من النشطاء جدعون سبيرو، العضو العريق في حركة السلام الإسرائيلية. وعندما بات واضحا للشرطة من هو ذلك الشخص، تجمعوا حوله وحاول كل واحد منهم أن يتحدث معه بالعبرية التي يجيدها قسم كبير من الرجال البالغين في غزة، نظرا لكونهم عملوا في إسرائيل أو اعتقلوا في سجونها أو كلا الأمرين معا.

في صباح أحد الأيام حط في صالة الاستقبال واحد من نزلاء النزل الدائمين، محدثا جلبة وضوضاء ومعه حمولة ضخمة من الأمتعة. سلم بشوق على العاملين، ثم قدم نفسه الي -بول مارتن، صحافي بريطاني. جلس إلى طاولتي وطلب شوربة العدس المعدة بصورة خاصة له – إنهم يعلمون تماما كيف أريدها، أوضح لي ذلك بحماسة مؤكدة.

انطلق بعدها في الحديث عن مارنا هاوس زمن مليكة وعليا، مفتونا بصورة واضحة، إن لديه الآن مستمعا مهتما بذلك:

لم يكن يكفي أن تأتي وتسأل عن وجود غرفة شاغرة. إن لم يكن المرء معروفا سلفا لديهم، فإنه يدعى لتناول فنجان شاي مع إحدى السيدتين، حتى تتكون لديها صورة مفهومة عن ماهية الشخص. وبعد أن ينتهي الاختبار، إما أن يحصل الشخص على غرفة، أو على جواب مفاده أن جميع الغرف، مع الأسف، مشغولة.

ومن الواضح أن بول مارتن قد اجتاز اختبار الشاي بنجاح، ومن وقتها تحول مارنا هاوس إلى نقطة ارتكازه في غزة، حيث يشرع الآن في تصوير فيلم وثائقي لصالح إحدى شركات التلفزيون البريطانية. وهو مشروع أدى إلى اعتقاله مؤخرا من قبل شرطة حماس، بتهمة التجسس لصالح إسرائيل. وبقي معتقلا لثلاثة أسابيع حتى نجحت السفارة البريطانية في إقناع حماس بإطلاق سراحه وتسفيره من غزة.

لقد كان بول مارتن هو من حكى لي عن السر الكامن في مارنا هاوس، والذي لم أرَ منه حتى الآن سوى شظايا. أما ما هو مضمونه، فإنني لا أستطيع أن أجزم، لكنني أتصور أنه يمكن أن يكون له

مغزى كبير يوما ما، في المستقبل، فقط إذا ما قيض لمن يريد اكتشافه، أن يواصل التنقيب عنه.

يمكن له أن يصبح قصة جيدة، قال بول مارتن وهو ينتهي من تناول الشوربة.

٢

عندما فتحت مارغريت نصار نزلا لاستقبال الضباط الإنجليز سنة ١٩٤٦ وظفت عندها جنائنيا، هو فلاح فقير من المنطقة الشرقية لمدينة غزة. اصطحب معه ابنه، رضوان ليساعده. وقع الفتى موقعا حسنا من نفس السيدة نصار وبدأت بتعليمه القيام بأعمال صغيرة متنوعة في النزل.

• كنت في التاسعة أو العاشرة آنئذ، ولم أدخل مدرسة في حياتي. فقد كانت المدارس وقتها حكرا على أبناء الطبقات العليا داخل المجتمع. ولم يكن الفلاحون الفقراء يلقون بالا لها، لأنهم كانوا يحتاجون الأطفال بوصفهم قوة عمل. وكان جميع أفراد الأسرة بما فيهم الزوجة يعملون في فلاحة الأرض، كما يقول رضوان الذي ينادونه دائما أبو منير. فهو كما جرت العادة بين الرجال المتزوجين، كان اسمه المنادى به "أبو منير"، أي والد منير، لأن اسم ابنه البكر "منير". وينادي الناس الرجال بهذه الطريقة من قبيل التهذيب والاحترام، فإذا قابل شخص رجلا لا يعرفه فإنه يعمد إلى سؤاله عن اسم ابنه الأكبر.

ويعكس هذا العرف عنصرين مهمين في الثقافة العربية:

• إن العائلة هي المحور الأهم في حياة كل فرد

• إن الأبناء الذكور هم عماد العائلة

وهو عرف يشمل النساء أيضا، فزوجة رضوان تنادى أم منير، "والدة منير". أما إذا كان جميع أطفال العائلة من البنات فيستخدم الوالدان اسم البنت الكبرى.

وفي السنوات الأربع والستين التي أمضاها رضوان في مارنا هاوس تمكن من اكتساب القدرة على التحدث باللغة الإنجليزية بما يكفي للخوض في محادثات بسيطة.

• كانت اللغة الإنجليزية دائما هي اللغة التي نتحدث بها إلى نزلائنا بصرف النظر عن جنسياتهم. كانت السيدة نصار تريدني أن أتعلم (وقد حرصت بصدق على تعليمي) القراءة والكتابة باللغة العربية، ولهذا أرسلتني إلى مدرسة مسائية لعدة شهور. ولكنني انتظرت حتى سن البلوغ لكي أتمكن نوعا ما من قراءة الجريدة وكتابة قوائم الاحتياجات المطلوبة للنزل.

تعلم رضوان في سنواته الأولى في مارنا هاوس جميع الأعمال التي تدخل في الاعتناء بالنزل مثل الكنس والمسح والترتيب وتلميع النوافذ، وجمع آنية الطعام وإفراغ منافض السجائر. كان يعمل

من الصباح إلى المساء ولا يعود إلى بيته إلا لينام.

• كنت في البداية من الخجل بحيث لم أجرؤ على إبداء اهتمامي بشيء آخر سوى العمل، ولم أنفذ سوى المهمات التي كلفت بها. كنت أهاب الفشل، ولكن مع مرور الوقت نما احترام متبادل بيني وبين السيدة نصار. لقد علمتني حب الناس واحترامهم، وكنت أشعر طيلة الوقت بأنني محظوظ بعملي هنا. وحتى مع المالكين الجدد، أصبحت حياتي في مارنا هاوس أفضل.

ويلاحظ النزلاء بصورة جلية أنه رغم بلوغه الثالثة والسبعين ما زال مغرما بعمله. رضوان هو أول من يقابله المرء في الصباحات، يطلع صامتا من المطبخ، في هندامه الدائم بقميصه الناصع البياض. يجهز الموائد على عجل بالزبدة والخبز والجبنة، ويأتي بإبريق الماء الساخن من البار، ثم يختفي خمس دقائق ليعود حاملا بيض الفطور المعد وفقا لرغبة النزلاء.

• "تفضلي يا ست"، كان يقول لي عادة، بانحناءة خفيفة.

وكلمة "ست" هي طراز قديم يعبر عن الاحترام في مخاطبة المرأة، لم أسمع في حياتي أي شخص يستعمله سواه.

• أفكر طول الوقت بما نحتاج لعمله، وحتى عندما أعود لبيتي بعد العمل فإن فكري يبقى هنا. كأنني أشاطر المالك مسؤوليته، وكأن مارنا هاوس هو بيتي. فيما مضى كنت أسكن هنا بشكل دائم، وكنت بين حين وآخر أذهب إلى منزلي لأسلم على أهلي.

تحدث رضوان عن الفترة الممتدة بين ١٩٤٨ الى ١٩٦٧، وهي فترة الإدارة المصرية لغزة. في تلك الفترة نزل هنا ضيوف كثر، من مصر والأردن ولبنان. وكان من بينهم العديد من مشاهير ذلك الزمن، مثل الملكة دينا ملكة الأردن وقرينة الملك حسين الأولى، وقد أقامت في مارنا هاوس مدة من الزمن، على إثر انفصالهما في منتصف الخمسينات. وصلت من القاهرة بالسيارة، مع سائقها بصحبة ثلاث سيدات وحارس شخصي. كانت مهمة رضوان أن يقوم على خدمة السيدات، بينما سمح للسائق والحارس الشخصي بالإقامة داخل السيارة.

وذكر من بين النزلاء أيضا، بعض مشاهير ذلك العهد:

الكاتب المصري طه حسين، المطربة اللبنانية صباح، والمطربة المصرية فايدة كامل.

• كان في غزة وقتها داران لعرض الأفلام، وعادة ما كان مخرجون وممثلون كثيرون يحضرون العروض الافتتاحية فيها. وكانت تنظم هنا أيضا، مهرجانات متنوعة، اجتذبت إليها كبار الشخصيات الثقافية المصرية.

وتحدث رضوان كذلك عن الدكتورة سو، وهي طبيبة أميركية، يابانية الأصل، مختصة في معالجة

الكوليرا، كان والدها موظفا لدى وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين الأونروا. وكان يقيم مع أسرته في مارنا هاوس، وقد اعتاد رضوان وقتها أن يعتني بها وهي طفلة لا تتجاوز من عمرها العام.

• عادت لزيارتنا قبل بضع سنوات، ولا زالت تتذكر الهدهدات التي كنت أغنيها لها لتنام.

في حزيران من عام ١٩٦٧، احتلت إسرائيل غزة، وحل الصحافيون وموظفو الأمم المتحدة والعاملون في منظمات الإغاثة، محل النزلاء العرب. ويحكي باسل الشوا عن نشوب تنافس في بعض الأحيان بين النزلاء، خصوصا بين المسؤولين من ذوي الرتب الرفيعة، تنافس على الفوز بالغرفة الأفضل.

• في ذلك الوقت لم يكن هناك غير غرفتين مزودتين بمكيف للهواء، وبطبيعة الحال كانتا الأكثر جاذبية. وفي إحدى المناسبات نزلت عندنا سيدتان، إحداهما مسؤولة عن الاونروا في غزة والثانية في الأردن، وطلبت كل منهما الحصول على الغرفة رقم ١٦. الأولى كانت ضخمة عالية الصوت، أما الثانية فكانت صغيرة ناعمة. وكانت عمتي مليكة تحب كلتيهما، لذا فقد توصلت إلى حل الخلاف، بأن سمحت لهما بالتناوب على النوم في الغرفة رقم ١٦ ليلة بعد ليلة.

ومع أن جميع الغرف أصبحت الآن مزودة بمكيف للهواء، إلا أن الغرفة رقم ١٦ ما زالت أكثر الغرف جاذبية نظرا لشرفتها الرحبة.

وأخبرني باسل عن نزيل تميز برغباته الخاصة للغاية، هو رجل أعمال هولندي اعتاد المجيء إلى غزة كل سنة، في موسم حصاد البرتقال، ليبتاع كميات كبيرة منه. كان يقيم لمدة شهر في مارنا هاوس حتى ينتهي من إتمام صفقاته التجارية.

• كان هذا الرجل مفرطا في البدانة، ولم يكن يرغب في تناول طعامه مع بقية النزلاء. وبدلا من ذلك كان يفضل تناول طعامه داخل غرفته، وجبة واحدة كبيرة في اليوم، مطبوخة وفق رغبته الخاصة، وكان على رضوان ولا أحد غيره أن يقدم له الطعام. كان الهولندي رجلاً مهذبا ولطيفا، لكنه لم يكن مستعداً للتنازل عن أفكاره ومتطلباته. وكان دائما حريصا كل الحرص على الإقامة في الغرفة رقم ٤، على أن يعاد تأثيثها بحيث تصير شبيهة بغرفته في منزله الخاص.

والآن، مرت أعوام عشرة على آخر مرة كان فيها هنا.

عندما اندلعت الانتفاضة الأولى سنة ١٩٨٧، هيمن على مارنا هاوس بصورة شاملة، حشد من الصحافيين الدوليين الذين توافدوا إلى غزة لتغطية المواجهات بين جنود الإحتلال والشبان الفلسطينيين من رماة الحجارة. كان النزل محجوزا بكامله طيلة الوقت، حتى أن مليكة الشوا،

لجأت إلى استئجار شقق داخل المدينة، لتتمكن من توفير الغرف لجميع النزلاء. وكان على باسل أن يدور بسيارته كل صباح لإحضارهم إلى مارنا هاوس، لتناول الفطور.

-كانت متطلبات هؤلاء الصحافيين من إدارة النزل مختلفة تماما عن متطلبات أسلافهم من النزلاء الذين اعتادوا على قضاء نهارهم في الخارج، والعودة في المساء، ليرتاحوا قليلا ثم يذهبوا إلى النوم. أما هؤلاء فقد كانوا متأهبين ليل نهار – فلو وقع حدث ما في الساعة الثالثة قبل الفجر، فسيهرع الجميع إلى عمله، وعندئذ يكون الاستعجال على أشده. لم يكونوا ليناموا أو يأكلوا مثل بقية الناس، وكان لهم أن يطلبوا الحصول على سندويشة في أي ساعة من اليوم، كما يقول باسل.

كان وجود الصحافيين الأجانب، جاذبا لحضور القادة السياسيين المحليين إلى مارنا هاوس. فضلا عن طائفة من أشخاص أقل أهمية، يطمحون في الحصول على الانتباه والثناء.

• بات مارنا هاوس على ألسنة الجميع، فقد كان مركزا للأحداث في ذلك الوقت.

أما الآن فالحركة في مارنا هاوس أصبحت أكثر ركودا، وقد يشهد النزل فترات لا يتجاوز فيها النزلاء عدد أصابع اليد الواحدة. فقد بات الصحافيون، في الغالب، يخططون لعملهم قبل قدومهم، فيتعاقدون على لقاءات ومقابلات تدور حول موضوعة بعينها، يكونون قد اختاروها من قبل. وهم يمضون ما تبقى من وقتهم في النزل، ليكتبوا تقاريرهم ويرسلوها من خلال الشبكة العنكبوتية اللاسلكية. خلا ذلك، فإن الاستعجال الفوضوي يعود إلى سابق عهده، فقط إذا ما وقعت المعارك أو الاضطرابات. وربما وجدت من بين هؤلاء النزلاء من يعود ليطلب البقاء لعدة أيام أخرى، بعد أن كان قد دفع حسابه وغادر النزل. لهذا يجب أن يكون لدينا دائما عدد من الغرف الشاغرة، تحسبا لوقوع ما لم يكن في الحسبان.

والآن يقيم رضوان لدى أسرته في محلة الزيتون، لكنه يأتي كل صباح قبل الساعة السادسة، ليباشر عمله اليومي.

• تعودت الحضور نصف ساعة أبكر، حتى أتفادى الشعور بالاجهاد، وأنجز كل ما هو مطلوب على أكمل وجه. أجهز موائد الإفطار لحوالي عشرين شخصا، أقدم الطعام وأجمع الآنية بعد انتهائهم من تناوله. ثم آخذ مفاتيح الغرف، وأصعد لترتيب الأسرَّة وبصحبتي واحد من عمال النظافة. يستغرق الأمر ساعة أو أكثر قليلا، أغتسل بعدها وأبدأ في تحضير غداء الموظفين، وأواصل مساعدة الطاهي في المطبخ حتى الساعة الثالثة بعد الظهر.

يوم السبت هو يوم عطلته، وهو يقضيه عادة في بيته، بين عائلته. له من الأبناء عشرة، ست بنات وأربعة صبيان، وعدد من الأحفاد. كان يكتفي بالضحك كلما سألته عن عددهم.

• أولادي الأربعة يسكنون معي، في منزلي، هم وأسرهم، وهكذا لدي عشرون طفلا في المنزل. وفي أثناء الحرب، احترنا إلى أين يمكن أن نلجأ، لأن أحدا لا يمكنه أن يستقبل مثل هذا العدد من الأشخاص في بيته. كنا خائفين من مغادرة المنزل، لكننا أرغمنا على المخاطرة بحثا عن طعام للأطفال. ومرت الدبابات بنا دون ان يصاب أحد منا بأذى. شكراً لله.

بقي مارنا هاوس مفتوحا أحد عشر يوما من بعد بداية الحرب. لكن عدة منازل مجاورة أصيبت بقنابل صغيرة، يسميها الإسرائيليون "طرقة على السطوح"، هي بمثابة إنذار قبيل وقوع الهجوم الأقسى. بعدها قرر باسل الشوا إغلاق النزل ومغادرته، وقد تحطمت جميع نوافذه تقريبا، على إثر قصف مدمر لمركز شرطة ومسجد مجاورين.

وكنت أسأل رضوان كيف تمكن من البقاء على قيد الحياة كل عمره الطويل في منطقة من أكثر مناطق الأرض عرضة للخطر، بدون أن يفقد أحدا من عائلته أو يفقد إيمانه بالحياة والبشر. وكان يضحك في هدوء عندما أخبره كيف أن أهلي وأصدقائي يقلقون علي عندما أسافر إلى غزة.

• نحن نقيم في منطقة هادئة، يمكن أن تجدي شبيها لها في مصر أو الأردن، وقد كنا نجد أنفسنا، نوعا ما، على هامش الاضطرابات. هل تتصورين أن جميع الأشخاص الذين يجيئون إلى غزة يتعجبون عندما يكتشفون أن غزة مكان طبيعي للغاية، يسكنه بشر عاديون؟ مكان يمكن أن يحبه الإنسان ويكتشف فيه الجمال، برغم الفقر والدمار.

٣

عندما طلبت من باسل الشوا أن يطلعني على ذلك السر الذي أشار اليه بول مارتن، أخذني معه الى منزل خارجي واقع خلف النزل. قبالة البوابة الحديدية الثقيلة توجد غرفة مستطيلة مليئة بالرفوف من الأرضية الى السقف. وقد رصت فوق الرفوف مئات من الصناديق الكرتونية المحشوة بأكياس صغيرة بنية اللون. وفوق الصناديق كتابة باللغة الفرنسية: "فخاريات"، "مستحاثات حيوانية"، "أصداف بحرية". فتشنا بحذر داخل بعض الأكياس، كانت قطع فخارية ورقائق صدفية وقطع صغيرة من العظم.

وفي الغرفة ركن بصورة متلاصقة عدد من الأكياس داخلها مواد تفتقر الى التصنيف الى جانبها رفوش وفراشي ومناخل وعربات عزق يدوية. كل شيء كان مغطى بطبقات رقيقة من الغبار، تجمعت في السنوات العشر الأخيرة التي مضت بعد أن سارع علماء الاثار الفرنسيين الى المغادرة.

حدث هذا عندما بدأ الطيران الإسرائيلي بقصف غزة بعد اندلاع الانتفاضة الثانية في خريف العام ٢٠٠٠، مما اضطر علماء الاثار الى وقف أعمال الحفر والتنقيب في منطقة تل السكن، تلك المنطقة التي بقيت مأهولة على مدار نحو خمسة الاف سنة، والتي تقع في بداية المنطقة الجنوبية من مدينة غزة.

من المرجح أن تل السكن كانت أول منطقة معمورة في غزة، بموقعها الاستراتيجي على أقدم طريق دولي، "طريق البحر"، الذي بقي يصل إفريقيا وآسيا وأوروبا على مدار ألف عام. ويعتقد ان أقدم مستوطنة عثر عليها هنا، تعود إلى حصن عسكري مصري أقيم خارج الأراضي المصرية. ويقع المكان على مصب وادي غزة، وهو واد نهري جاف في معظم الوقت، كان في ذلك الزمن يشكل ميناء طبيعيا على الساحل الشرقي للبحر المتوسط.

لقد اكتشف تل السكن مصادفة عام ١٩٩٨، عندما شرعت السلطة الفلسطينية في بناء مشروع سكني كبير فوق ذلك المكان. عندما بدأت الآلات بتهيئة الأرض لبناء العمارات الخمسة والعشرين العالية المخطط إنشاءها عثر على كمية من القطع الأثرية المتنوعة. في البداية، حاول القائمون على عملية البناء التكتم على الكشف، بهدف إتمام البناء. لكن رئيس سلطة الآثار الفلسطينية معين صادق علم بالخبر ونجح بدعم من الرئيس ياسر عرفات، وكان رئيسا للسلطة الفلسطينية وقتها، في وقف الإنشاءات لإنقاذ المنطقة الأثرية التي لم تكن معروفة من قبل.

في أواخر صيف ١٩٩٩ دعي عالم الآثار الفرنسي Pierre de Miroschedji الى غزة ليقوم بدراسة تل السكن عن كثب. وتوصل بسرعة الى ان تلك المنطقة كانت معمورة في العصر البرونزي المبكر.

وقد كان العالم الفرنسي مصحوبا بعدد من طلابه الفرنسيين، أقاموا جميعهم في مارنا هاوس. يقول باسل الشوا عن اقامتهم التي امتدت لفصلين كاملين بين ١٩٩٩ و ٢٠٠٠:

• كانوا ينهضون في الرابعة صباحا، ويتناولون إفطارا سريعاً ثم يستقلون الحافلة إلى موقع التنقيب. بعد بضع ساعات كنت امضي اليهم بسيارتي حاملا إليهم طعام افطارهم الثاني في ذلك النهار. وكان البروفيسور يطلعني كل يوم على ما هم بصدد عمله – لقد كان شيئا مثيرا للغاية. وعند الغداء كانت المجموعة تعود ادراجها الى مارنا هاوس حاملة معها كل ما عثرت عليه خلال النهار. وبعد الغداء كانوا يتحلقون حول طاولة كبيرة خلف النزل ويعكفون على فرز وتصنيف اللقى التي عثروا عليها. كانوا يواصلون عملهم حتى السابعة والنصف، وبعد ذلك يتناولون عشاءهم ويسهرون ويمرحون طيلة الليل.

كان لفريق التنقيب عن الآثار أسبابا كافية ليشعروا بالرضى عن عملهم – فقد اكتشفوا ثلاث مدن

مختلفة تنتمي إلى حقب زمنية مختلفة مدفونة تحت الرمال، على عمق ستة، وثمانية، واثني عشر مترا. وحسب رأي البروفيسور de Miroschedji فمن المحتمل وجود سبعة مستويات من البقايا الأركيولوجية، تعود إلى عصر الفراعنة المصريين.

وقد عاد البروفيسور de Miroschedji عدة مرات بعيد انقطاع التنقيب ليلتقي بشركائه الذين تعاونوا معه من سلطة الآثار وإدارة سوق العمل الذين وضعوا تحت تصرف فريقه بضع مئات من العاملين. كان يأمل بطبيعة الحال في أن تتحسن الأوضاع هنا، بما يمكنه من العودة واستئناف العمل، كما يقول باسل الشوا.

وتوجد الآن جميع مكتشفات تل السكن، داخل مخزن آمن، خلف الأقفال والحواجز، في مارنا هاوس.

• من الواضح أن السلطات تثق بنا أكثر من ثقتها بمخازنها الخاصة، فهم يعلمون أن مارنا هاوس هو واحد من أكثر الأماكن أماناً في غزة، يقول باسل الشوا.

الأمان الذي عناه ليس من نوع التجهيزات المادية، مثل الجدران الحصينة أو الأقفال المعقدة، بل التقاليد الاجتماعية. فعائلة الشوا كانت لمئات السنين من بين أبرز العائلات الغزية، عائلة ثرية مالكة للأرض، ولها احترامها في غزة. فقد بقي منصب عمدة غزة لأجيال عديدة داخل عائلة الشوا، المعروفة بكرم الأخلاق والقدرة على حل النزاعات والتوافق مع الجميع.

• نحن نقف موحدين داخل العائلة، نساعد بعضنا بعضا وقت الحاجة، ولا نتعارك أبدا، لا بين أبناء العائلة، ولا مع العائلات الأخرى. ليس لدى العائلة مسلحون ولا سلاح، كما هو الحال لدى عائلات كثيرة غيرها، هناك عائلات تملك دباباتها، يقول باسل الشوا.

يلعب الوضع الاجتماعي والعلاقات في غزة دورا هاما، يصعب على القادم من المجتمعات الغربية أن يتخيله. لقد حالت ستة عقود تقريبا، من الاحتلال دون ظهور مجتمع مدني قائم على سلطة القانون، من ذلك الطراز الذي اعتدناه. فالشرطة والنظام القضائي الموكلان بحماية حقوق الأفراد، موجودتان فعلا، من الناحية الرسمية، ولكنهما لا يعملان، في الواقع، بكفاءة مقنعة.

ونتيجة للضغوط الباهظة التي مارسها الاحتلال بشكل متزايد، خلال العقود الماضية، فقد توقف المجتمع المدني في معظم نواحيه، عن العمل، فيما اكتسب الانتساب إلى العشيرة والعائلة أهمية كبرى. ومع ازدياد حدة التنافس في السنوات الأخيرة على القيادة، بين فتح من جهة، وبين حماس وغيرها من المجموعات السياسية من جهة أخرى، حاز مسرح الممارسة السياسية أهمية كبرى. وكان استيلاء حماس على السلطة في صائفة ٢٠٠٧، بمثابة المسمار الأخير في نعش الضمانة القانونية لعدد

كبير من أهالي غزة.

ولكن الاضطرابات السياسية التي وقعت في السنوات الأخيرة، لم تؤثر كثيرا على باسل الشوا أو عائلته. فلا نورما، زوجة باسل، ولا ابنته هيفاء، ترتدي حجابا على رأسها عندما تظهر في شوارع المدينة. وبهذا فهما تنتميان إلى فئة قليلة من نساء غزة، تتعرض الآن للتلاشي. وحسب ما قالته نورما، قلما تعرضت لتعليق من أحد بسبب هذا، ولكنها كانت تتجاهل الأمر في مرات حدوثه القليلة.

كان زياد فريد الشوا والد باسل، قد هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية سنة ١٩٥١.

• كانوا عشرة شبان في العشرين من عمرهم، غادروا غزة معاً، بحثاً عن النجاح في أميركا. سافر أبي طريقه كلها؛ من بيتنا في الشجاعية إلى العريش في مصر، على ظهر حماره. وقد خرج كل أهل غزة في وداعهم، مشياً على الأقدام – فقد كانت المرة الأولى التي يسافر فيها غزيٌّ إلى أميركا.

وطأت أقدام المسافرين العشرة بعد شهرين من الإبحار، يابسة نيويورك. شرع زياد الشوا في الدراسة، واقترن لاحقاً بسيدة من كاليفورنيا. وبعد بضع سنوات انتقلا معاً للعيش في الكويت، حيث عمل زياد الشوا في شركة أميركية. وهناك رزق الزوجان بولدين أصغرهما باسل المولود في ١٩٦٣. بعد أربعة أعوام قررت الأسرة العودة إلى غزة. لكن حرب الأيام الستة اندلعت بعد شهور قليلة من عودتهم، فقررت والدة باسل أن تعود إلى الولايات المتحدة الأميركية ومعها ابنها الأكبر أسد.

بقي باسل في غزة مع أبيه الذي تزوج بعدها بامرأة سورية.

• قامت على تربيتي مثل أمي. اسمها هيفاء، الاسم ذاته الذي سميت ابنتي به. سافرت إلى وطنها سوريا في زيارة لعائلتها، وبعدها لم تستطع العودة أبداً إلى غزة بسبب الأوضاع السياسية. وقبل سنوات رحلت، لكنني على اتصال مع بناتها، أخواتي غير الشقيقات.

تزوج والدي للمرة الثالثة، من امرأة فلسطينية من مدينة نابلس، شمال الضفة الغربية. هذه المرة أيضاً، انفصل الزوجان بسبب التعقيدات السياسية: فقد سافرت الزوجة إلى رام الله لزيارة أقاربها، لكنها علقت في الضفة الغربية بعد اندلاع الانتفاضة الثانية، ولم تتمكن من العودة بعدها إلى غزة.

بعد وفاة والده، قرر باسل البقاء في غزة، ليدير شؤون العقارات والأراضي الواسعة المملوكة للعائلة. يقع قسم من الأراضي في المنطقة الحدودية التي يسيطر عليها الاحتلال، لكن القسم الأكبر منها يوجد في غزة، قرب الحدود الشرقية. وفي الوقت الحاضر، فإن معظم الممتلكات لا يتم

استغلالها لأن إسرائيل أقامت منطقة عازلة على طول الحدود بعرض كيلومتر واحد، حيث يتعرض كل من يقترب من المنطقة إلى إطلاق النار. وقد تم تدمير الاسطبلات ومزارع الأبقار والدفيئات التي وجدت من قبل في تلك المنطقة، نتيجة للانتهاكات العسكرية الإسرائيلية المتكررة.

• لكنني لا أذرف الدمع على ما فات. لا يجوز للمرء أن يبقى حبيس الماضي مؤملاً أن يعود كل شيء لسابق عهده من الحسن. المهزومون وحدهم يعلقون على الظروف أسباب خيباتهم، وهذا ليس من شيمتي. وبدلا من الشكوى، فإنني أعمل، وأحاول العثور على الإمكانيات المتاحة ضمن إطار الظروف، يقول باسل الشوا.

• كان باسل وزوجته نورما يعملان في مارنا هاوس، من الصباح الباكر إلى وقت متأخر من المساء. وكانت ابنتهما هيفاء ١٥ عاما، وابنهما زياد ١٢ عاما، يجلسان كلاهما في أغلب الأوقات، في صالة الاستقبال الخالية من الموظفين، أو في المكتب ويشتغلون على الوظيفة المدرسية.

• نحن نقضي معظم أوقات يقظتنا هنا، مع كل الأسرة. ولا نرجع الى المنزل إلا لننام، كأنما أصبح بيتنا هو النزل. في بعض الأحيان ينتقدنا الأصحاب لأن وقتنا يضيق عن لقائهم، لكن النزل يأتي أولاً، دائماً. نحن أسرة سعيدة، نعمل كل ما في وسعنا لنوفر لأطفالنا حياة طبيعية، بأفضل ما يمكن في الوضع السائد هنا.

سألت باسل إن لم يكن يفكر أحيانا بترك غزة، فالأسرة كلها تحمل جواز سفر أميركي، ولهم أقارب كثيرون في الولايات المتحدة.

• كلا، لن نغادر هذا المكان. غزة مكان صعب حقاً، لكن إذا كان المرء مؤمنا بأفكاره يمكنه أن يعيش حياة طيبة هنا. أشعر أنني ملك في هذه البلاد، ولو أنني كنت مقيماً في الولايات المتحدة، لشعرت بأنني ذبابة لا أكثر. أنا معروف جيداً هنا وأدير موقعاً محبوبا من الجميع، وأستطيع مواصلة تطويره. الحياة قاسية في كل مكان، وبأشكال مختلفة، ولكن إذا آمن الإنسان بما يفعل فإنه سيتغلب على معظم الصعوبات.

ومن آخر مشاريعه، بناء شقة جديدة في منزل العائلة، سيكون نجله زياد في حاجة اليها بعد عشر سنوات أو نحوها. وحتى ذلك الحين، تستطيع حماة باسل أن تسكنها.

وهو يفكر أيضاً في توسيع المقهى وبناء صالة أفراح، فوق سطح النزل، تتسع لمائتين من المدعوين.

أوراق المؤسسة

مجلس الإدارة:

عقد مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات اجتماعه الثاني والخمسين برئاسة أ. علي مهنا القائم بأعمال رئيس المجلس وبمشاركة د.ممدوح العبادي رئيس مجلس الأمناء، في ٢٠٢٢/٦/٢ في عمان وتدارس مجمل برامج وفعاليات ونشاطات المؤسسة وكذلك الأمر الوضع الإداري والمالي واعتمد تقارير الإدارة بهذا الخصوص.

اختتام مُخيمات ياسر عرفات الصيفية لعام ٢٠٢٢

اختتمت مؤسسة ياسر عرفات مخيماتها الصيفية يوم الخميس الموافق ٢٠٢٢/٧/٢٨ التي نظمتها مع المؤسسات الشريكة في مواقع مختلفة في المحافظات الشمالية والجنوبية لمدة أسبوعين.

وشارك في مخيمات ياسر عرفات صيف هذا العام ٤٠٠ شبل وزهرة تراوحت أعمارهم ما بين ١٣/٨ عاماً، في ٦ مخيمات بالضفة وغزة.

وتهدف المخيمات إلى إحياء تاريخ وتراث الرئيس الراحل ياسر عرفات وتنمية الثقافة الوطنية وتعزيز الروح الإيجابية في المجتمع الفلسطيني، وترسيخ القيم الوطنية لدى الأطفال المشاركين.

واتسمت المُخيمات الصيفية هذا العام بتنوع نشاطاتها اللا منهجية المُقدمة للأطفال من خلال المُنشطين، وتوظيف الطرق والأدوات الحديثة لإيصال المعلومة للأطفال مثل الدراما والغناء الوطني والتراثي والكتابة الإبداعية ورواية القصص، وزيارة متحف ياسر عرفات والألعاب التعليمية وغيرها.

ونفذت مؤسسة ياسر عرفات برنامج المخيمات هذا العام بالتعاون مع خمس مؤسسات في مواقع مختلفة من الضفة الغربية والقطاع هي: المركز الثقافي لتنمية الطفل/ طولكرم، مجلس قروي الجانية/ رام الله، ومركز يافا الثقافي/ مخيم بلاطة، وجمعية كي لا ننسى/ مخيم جنين، ومركز لاجئ/ بيت لحم، البيت الصامد/غزة.

افتتاح معرض "أثر" في متحف ياسر عرفات

افتتح محمود العالول نائب رئيس حركة فتح ممثلاً عن السيد الرئيس محمود عباس، معرض "أثر" في الذكرى الثالثة والتسعين لميلاد الرئيس المؤسس ياسر عرفات، في قاعة المعارض بمتحف ياسر عرفات، يوم الخميس الموافق ٢٠٢٢/٨/٤، بحضور انتصار الوزير (أم جهاد) رئيسة لجنة المتحف/ عضو مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات، وحضور أعضاء من اللجنة المركزية لحركة فتح، ووزراء

في الحكومة الفلسطينية، ود. أحمد صبح مدير عام مؤسسة ياسر عرفات، وأعضاء مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات وأعضاء من لجنة المتحف وشخصيات سياسية وثقافية واعلامية فلسطينية وأجنبية، كما شارك أيضاً سفراء لبعض الدول المعتمدة في فلسطين.

وقالت السيدة انتصار الوزير بأن هذا المعرض خصــص لجزء من مقتنيات الرئيس ياسر عرفات خاصة تلك التي قُدمت له خلال الفترة الممتدة بين عام ٢٠٠٠ واستشهاده عام ٢٠٠٤، ومعظمها من دول ووفود تضامنية أثناء حصاره الأخير، وتعبر جميعها عن التضامن الدولي الواسع التي حظيت به فلسطين من خلال رئيسها المحاصر رغم الظروف الصعبة آنذاك.

وأضافت بأن المعــرض يقدم البدلة الأخيرة لأبي عمار، كما هي والتي لبسها خلال الفترة الأخيرة من الحصار الأخير، بما في ذلك بعض الدبابيس والأعلام التي كان يقدمها زواره المتضامنون.

يذكر أن هذا المعرض هو التاسع الذي يقدمه المتحف بعد، (زاوية عمار، وحارسة نارنا الدائمة، اغتيال، اقتلاع، ملصق، انتفاضة، بلادنا هي بلادنا)، وسيستمر المعرض حتى ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٢٣.

لجنة جائزة ياسر عرفات تعقد اجتماعها الأول لعام ٢٠٢٢

عقدت لجنة جائزة ياسر عرفات للإنجاز اجتماعها الأول للعام الحالي ٢٠٢٢، يوم الثلاثاء الموافق ٢٠٢٢/٨/٢٣، برئاسة د. علا عوض رئيسة اللجنة- عضو مجلس إدارة المؤسسة، وذلك للبدء بفحص الترشيحات التي وصلت للمؤسسة.

وتجدر الإشارة إن اللجنة ستستمر بسلسلة اجتماعات وقراءة جميع الترشيحات حتى إنهاء عملها، واختيار الفائز ضمن الشروط. كما وسيتم الإعلان عن الفائز بالجائزة وتسليمها سيكون متزامنًا مع إحياء الذكرى الثامنة عشرة لاستشهاد الرئيس ياسر عرفات، مساء العاشر من تشرين الثاني/ نوفمبر في قصر رام الله الثقافي.

وحضر الاجتماع جميع أعضاء اللجنة، بالإضافة إلى د. أحمد صبح مدير عام المؤسسة.

مؤسسة ياسر عرفات تحيي ذكرى ميلاد "حكيم الثورة" جورج حبش

أحيت مؤسسة ياسر عرفات، يوم الثلاثاء الموافق ٢٠٢٢/٨/٢ ذكرى ميلاد "حكيم الثورة" جورج حبش مؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، في قاعة المنتدى بمتحف ياسر عرفات.

وبدأت الفعالية بالنشيد الوطني الفلسطيني، وبعدها رحب د. أحمد صبح مدير عام مؤسسة ياسر

عرفات بالحضور، ودعاهم للوقوف دقيقة صمت وقراءة الفاتحة على روح الرئيس الشهيد ياسر عرفات والترحم على القائد الوطني جورج حبش.

ومن ثم عرضت المؤسسة فيلماً من انتاجها بعنوان "حكيم الثورة" يروي نبذة عن حياة الراحل جورج حبش واسهاماته في العمل الوطني الفلسطيني.

وقال د. أحمد صبح: تأتي هذه الفعالية ضمن برنامج "في الذاكرة الوطنية"، الذي يُسلط الضوء على رفاق درب الرئيس الراحل ياسر عرفات، ومفجري الثورة الفلسطينية

وأضاف إن مؤسسة ياسر عرفات تهدف من إحيائها لذكرى قادة الشعب الفلسطيني إلى تعزيز القيم الوطنية والديمقراطية، في إطار سعيها لخدمة المشروع الوطني، تكريماً وتخليداً لقادة ومناضلين نذروا حياتهم لفلسطين ورافقوا ياسر عرفات في مسيرة الثورة والكفاح.

وقال عباس زكي عضو اللجنة المركزية لحركة "فتح" في كلمته:" الحكيم أو حكيم الثورة اللقب الذي أطلقه عليه الشهيد ياسر عرفات، كان مثالاً للرجل الصلب، الذي يعد من أقطاب العمل الوطني التقدمي، واستمر على هذا النحو طيلة حياته، حتى أن خصومه يعترفون بأنه الضمير الحي للقضية الفلسطينية".

وأضاف، أن الحكيم كان حارساً للثوابت والمبادئ الوطنية، وأيضاً كان متمسكاً بمنظمة التحرير الفلسطينية التي كان يعتبرها أمانة يجب الحفاظ عليها وحمايتها.

وتابع زكي: "كان من خصال الحكيم أنه الأكثر دفئاً وحرصاً على إنجاز الوحدة الفلسطينية، وكان فرحاً وقت إعلان وثيقة الاستقلال بالجزائر عام ١٩٨٨، فيما تميز بدماثة خلقه ووطنيته، فهذا محيط لا أحد يستطيع السباحة فيه".

وأردف: "في بداية نضاله أسس مع رفاقه حركة القوميين العرب التي كانت ذات أفق عروبي، حاول من خلالها خلق هوية للعرب التي كان شعارها تحرير فلسطين في نهاية خمسينات القرن الماضي، قبل أن يؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عام ١٩٦٧، لذلك كان مناضلاً لا يحسب حساباً إلا لقوة فكره وتنظيمه في أوساط العالم".

من جانبه قال عمر شحادة عضو المجلس المركزي لمنظمة التحرير القيادي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين: "الرئيس ياسر عرفات عشية اجتياح لبنان عام ١٩٨٢ منح إضافة نوعية للقب الحكيم، عندما قال إن لكل ثورة حكيم، وحكيم ثورتنا جورج حبش".

وأوضح: "هذا اللقب أطلقه الناس على الطبيب جورح حبش عندما تخرج مطلع الخمسينات وافتتح عيادة طبية في مخيم الوحدات في الأردن مع رفيقه وديع حداد".

أما عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير صالح رأفت، عرج على حياة جورج حبش وتحدث عن أبرز المفاصل الفارقة في حياته، والتي كان في بدايتها الانخراط مع طلبة الجامعات والمدارس بالمظاهرات المنددة بقرار تقسيم فلسطين.

وأضاف:" ساهم الحكيم في تأسيس الشباب القومي العربي كمقدمة لتأسيس حركة القوميين العرب والتي انطلقت عام ١٩٥٦، وانتشرت في العديد من البلدان العربية، والتي كان الهدف منها تحرير فلسطين، وفي عام ١٩٥٨ أسس مع وديع حداد وأبو علي مصطفى حركة الشباب الثائر، فيما شارك ثلاثتهم في معسكرات الجيش المصري، فيما أن أول عملية شارك فيها كانت في شهر تشرين أول أكتوبر عام ١٩٦٦، والتي شارك فيها عدد من كوادر حركة القوميين العرب.

وشارك في إحياء الذكرى عدد من قيادات فصائل منظمة التحرير الفلسطينية.

كما أقيم معرض صور يحاكي حياة د. حبش بعنوان "الحكيم".

مؤسسة ياسر عرفات تضع إكليل زهور على ضريح الشاعر محمود درويش

وضع أعضاء مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات، يوم الثلاثاء الموافق ٢٠٢٢/٨/٩، إكليلاً من الزهور على ضريح الشاعر الكبير محمود درويش، وقراءة الفاتحة على روحه، في الذكرى الرابعة عشرة لرحيله.

يأتي ذلك تقديرًا للدور الكبير للشاعر درويش في بناء الهوية الأدبية والوطنية الفلسطينية والقومية العربية، ودوره في حمل رواية الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة للعالم.

مكتب مؤسسة ياسر عرفات في القاهرة

يعمل مكتب المؤسسة في القاهرة على العديد من الفعاليات التي تجمع أبناء الجالية الفلسطينية في جمهورية مصر العربية.

ويحتضن المكتب في القاهرة لقاءات بين الجالية الفلسطينية لمناقشة القضايا التي تخص الجاليات الفلسطينية في بلاد الإغتراب.

وكان آخر لقاء يوم السبت الموافق ٢٠٢٢/٨/١٣، بدعوة من د. فيصل عرنكي عضو اللجنة التنفيذية ل(م. ت. ف) رئيس دائرة المغتربين، وشارك في اللقاء كل من السفير الدكتور بركات الفرا، د. محمد غريب أمين سر الإقليم في القاهرة، علي الجمالي رئيس الجمعية الخيرية الفلسطينية في مصر، د.

محمد رمضان مدير مستشفى فلسطين بالقاهرة، اللواء الركن عرابي كلوب مدير مكتب مؤسسة ياسر عرفات بالقاهرة.

مكتب مؤسسة ياسر عرفات في غزة- بيت الرئيس أبو عمار

يحتضن مكتب غزة العديد من الفعاليات الثقافية، والإجتماعية، والوطنية، والرياضية في القطاع، والتي تهدف كُلها للمحافظة على تاريخ الرئيس الراحل ياسر عرفات، ونشر الثقافة الوطنية التي رسخها أبو عمار في الأجيال السابقة.

كما أن المكتب مفتوح أمام الزوار، ومعروض بداخله مقتنيات الرئيس القائد ياسر عرفات.

ومن هذه الفعاليات:

- إطلاق فعاليات الأسبوع الأولمبي الوطني ٢٠٢٢ من بيت الرئيس في غزة.
- افتتاح المخيمات الصيفية "المسرى والأسرى" ٢٠٢٢ برعاية الفريق جبريل الرجوب رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة والذي أقيم اليوم الإثنين في مؤسسة الشهيد ياسر عرفات بحضور كوكبة من قيادات الحركة الرياضية والوطنية ومدراء المجلس الأعلى للشباب والرياضة.
- افتتاح مؤسسة ياسر عرفات/مكتب غزة بالشراكة مع مؤسسة البيت الصامد "مخيمات ياسر عرفات الصيفية ٢٠٢٢" يوم الأربعاء الموافق ٢٠٢٢/٦/٨، وضم المخيم ٦٠ شبلا وزهرة من مختلف الأعمار ويتضمن المخيم عدة فعاليات وطنية وثقافية وترفيهية وتعليمية.
- وتحتضن قاعة المنتدى العديد من النشاطات الثقافية المتنوعة بما في ذلك العروض المسرحية والدرامية والمسابقات والمؤتمرات الصحافية والندوات وورشات العمل.
- احتضنت قاعة المنتدى في متحف ياسر عرفات، يوم الأربعاء الموافق ٣١/٨/٢٠٢٢، إحياء ذكرى ميلاد القائد الوطني الكبير صلاح خلف (أبو إياد)، أحد مؤسسي وقادة حركة فتح.
- احتضنت قاعة المنتدى في متحف ياسر عرفات، إحياء ذكرى ميلاد "حكيم الثورة" جورج حبش مؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، يوم الثلاثاء الموافق ٢/٨/٢٠٢٢.
- استضافت قاعة المنتدى في متحف ياسر عرفات، أمسية إطلاق كتاب" الدبلوماسية الفلسطينية والإنضمام للاتفاقيات والمعاهدات الدولية"، للدكتور. عبد المنعم وهدان، مساء يوم الأحد الموافق ٧/٨/٢٠٢٢، في مدينة رام الله.

- استضافت قاعة المنتدى في متحف ياسر عرفات، حفل إطلاق كتاب "فتح من نفق عيلبون إلى أفق الحرية.. قراءة نقدية في تقييم التجربة" خلال ندوة إشهار نظمتها مفوضية التعبئة والتنظيم لحركة "فتح"، مساء يوم الأحد الموافق ٢٠٢٢/٧/٣، في قاعة المنتدى بمتحف ياسر عرفات في مدينة رام الله.
- استضافت قاعة المنتدى في متحف ياسر عرفات، حفل إطلاق كتاب "رفقة عمر" مذكرات انتصار الوزير (أم جهاد)، يوم السبت الموافق ٢١/٥/٢٠٢٢.

مؤسسة ياسر عرفات تحيي ذكرى ميلاد صلاح خلف (أبو إياد)

أحيت مؤسسة ياسر عرفات، يوم الأربعاء الموافق ٢٠٢٢/٨/٣١ ذكرى ميلاد القائد الوطني الكبير صلاح خلف (أبو إياد)، أحد مؤسسي وقادة حركة فتح، في قاعة المنتدى بمتحف ياسر عرفات.

وبدأت الفعالية بالنشيد الوطني الفلسطيني، وبعدها رحب عريف الحفل محمود أبو الهيجاء بالحضور، ودعاهم للوقوف دقيقة صمت وقراءة الفاتحة على روح الرئيس الشهيد ياسر عرفات ورفيق دربه القائد صلاح خلف، وجميع شهداء فلسطين.

ومن ثم عرضت المؤسسة فيلماً من انتاجها بعنوان "فلسطيني بهوية" يستعرض سيرة ومسيرة القائد أبو إياد واسهاماته في الثورة الفلسطينية من الإنطلاقة وحتى استشهاده، واسهاماته بالعمل الوطني الفلسطيني.

وقال د. أحمد صبح مدير عام مؤسسة ياسر عرفات، أن هذه الفعالية تأتي ضمن برنامج "في الذاكرة الوطنية"، الذي تُنفذه المؤسسة وتُسلط الضوء فيه على رموز وقادة من المؤسسين ورفاق درب الرئيس الراحل ياسر عرفات.

وأوضح صبح، أن الهدف من هذا البرنامج، إيصال رسالة للأجيال الشابة، بأن يحمل الجيل الجديد رسالة الثورة والإعتزاز بها وما قدمه الشهداء القادة، وزرع الأمل في النفوس والاستمرار على نهج المقاومة حتى تحرير فلسطين.

واستعرض صبح بعض الجوانب الإنسانية في حياة أبو إياد، قائلاً: "عند البحث في حياة القائد صلاح خلف، وجدنا الكثير من الرسائل العائلية من أبو إياد لزوجته، وأولاده، تجتمع كلها على حب الوطن، وكيف عمل على تكريس حياته للثورة الفلسطينية.

من جانبه قال الفريق جبريل رجوب أمين سر اللجنة المركزية لحركة "فتح" في كلمته: "في الثورة الفلسطينية هنالك مثلث متساوي الأضلاع يكوّنه، أبو إياد وهو الفكرة والدبلوماسية، أبو جهاد

وهو فكرة صاحب الفعل الثائر، وأبو عمار وهو فكرة المحافظة على أن يكون القرار الفلسطيني مستقلاً، واستمرار الثورة الفلسطينية للوصول إلى الحرية.

وتابع بأن هذا المثلث، هو مثلث متجانس واعٍ حمل الثورة الفلسطينية وفق أجندات وطنية واضحة.

وشكر الرجوب مؤسسة ياسر عرفات على الجهد الذي تقوم به، في محافظتها على إرث ياسر عرفات ورفاق دربه، مضيفاً بأن المؤسسة بهذا البرنامج تعمل على توفير الأمل والبصيرة لأجيالنا الحالية وتكوين فهم وطني لاجتياز المحطات المرحلية بأمان.

وأضاف ما تقوم به المؤسسة هو فَتح الذاكرة وليس تمجيداً لشخصيات معينة، وهدف ذلك اضاءة الطريق للجيل الحالي والاستفادة من تجربة القادة، ولإعادة الحالة الى ما كانت عليه من إرث وطني.

وتابع الرجوب بأن حركة فتح لا يمكن الحديث عنها بمبادئ ونظريات، دون الحديث عن رموزها وقادتها، وأبو إياد كان صوتاً مسموعاً ومحور اجماع من الكل الفلسطيني والعربي والعالمي، وصاحب قراءة للماضي وقادراً على التنبؤ بالمستقبل، ليشكل بذلك بارقة أمل للشعب الفلسطيني.

أما في كلمة عائلة أبو إياد ألقاها الإبن الأصغر منير خلف من خلال فيديو مُسجل، تقدم ببدايتها بالشكر لمؤسسة ياسر عرفات في إحياء ذكرى ميلاد القادة العظماء، ومن بينهم والدي القائد صلاح خلف.

وأضاف منير في ذكرى ميلاد والدي أحتفظ بذكريات ولمحات عن حياته وما بثه من قيم وطنية في نفوسنا، ووصيته الذي تركها لنا، وأن ما قدمه سوى القليل أمام أبطال الميدان، وما قام به لإثارة العالم على القضية الفلسطينية وعدالتها، وما كان يؤمن به في العمل على كافة الأصعدة، وإيمانه بالدولة الديمقراطية التي ترفض الاحتلال.

وذكر منير مواقف لوالده في حرب بيروت عام ١٩٨٢، بأنه توجه إلى مقر الإذاعة وألقى رسالة للثوار لشحن هممهم مفادها اطلبوا الموت توهب لكم الحياة الكريمة.

وفي نهاية حديثه قال منير: "أسمى أحلام والدي، بيت صغير على شاطئ يافا".

من جانبه قال يحيى يخلف عضو مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات، أغنى أبو إياد الثورة الفلسطينية لأكثر من عقدين ونصف من الزمن بفكر مستنير يحمل همّ القضية الفلسطينية.

وأضاف يخلف، بأن أبو إياد شكل عُصارة لنواة فكر أنشأ مع رفاق دربه حركة فتح بفكر ثوري وطني يعمل للتحرير.

ووصف يخلف أبا إياد بأنه مقاتل شجاع وقائد فذ، ومفكر مسؤول ينتمي إلى الحركة الوطنية الفلسطينية، رمزاً للوطنية والوحدوية ورفيق درب لياسر عرفات.

وشارك في إحياء الذكرى عدد من أعضاء اللجنة المركزية لحركة فتح، والمجلس الثوري وقادة فصائل العمل الوطني وحشد كبير من الجمهور.

كما كان هنالك معرض صور يعرض أهم المحطات في حياة صلاح خلف "أبو إياد".